


# بيت الحكمة

مجلة مغربية للترجمة، في العلوم الانسانية

## فرنان بروديل

# المحتويات

عن التاريخ الجديد فرنان بروديل 5

التاريخ والعلوم الاجتماعية: المدة الطويلة فرنان بروديل 21

فجر المتوسط فرنان بروديل 62

تاريخ المتوسط فرنان بروديل 87

## خارج الملف

مدخل إلى السيمياء ترنس هوكس 107

نحو سيمياء الخطاب السلطوي آلن غولدشليغر 135

الممارسة اللغوية جوليا كريستيفا 148

# عن التاريخ الجديد

## فرنان بروديـل

□ كيف يصبح المرء مؤرخا على شاكلة فرنان برودبل؟

■ لقد أصبحت مؤرخا بسبب أبي. كنت أريد أن أدرس الطب. إلا أنه صرفني عنه. هكذا قادني نقصان طموحي باتجاه التاريخ.

وبفعـل ذاكرتي القوية، سرعان ما انهيتُ دراساتي في التاريخ. لكن التبريز لا يجعل منك مؤرخا بين عشية وضحاها. لم أصبح كذلك إلا بعد هذا بزمن طويل. بعـد أن عشت في إفريقيا الشمالية (التي زرتها من أعلاها إلى أدناها)، وبعد أن حظيت، لاحقا، بإرسالي إلى البرازيل عام 1935، إلى جامعة ساوباولو.

أمـا عن البحـر الابيض المتوسط، فكل منا مهيأ له من قبل ثقافته، وقراءاته؛ [بحيث إن] المرء يلقى فيه ما يعرفه مسبقا. وأما عن البرازيل، فقد اكتشفت فيه ما لم أكن أعرفه، وعلى نحو لا يخلو من عنف: [اكتشفت] شيئا يشبـه مجتمعـا راقيا من مجتمعات الماضي ذات الحظوة، شيئا ما، على سفح المجتمع، يشبه بداية الحياة الصناعية الفرنسية، الخ. وعلى أي حال، فإنني لم أصبح ما أنا عليه الآن إلا في البرازيل.

□ لماذا ألفت، إذن، كتابا عن البحر المتوسط؟

■ كانت تلك مغامرة طويلة. [إذ] كان عليَّ أن أتخلص من التاريخ التقليدي الذي مارسته زمناً طويلاً. خاصة أني فُتنت بالبحر الأبيض المتوسط حين وصـولي إلى الجزائر. كان بإمكاني أن أكون مؤرخا لألمانيا، وأنا أتكلم الألمانية بشكل لائق. لكنني أدّيت خدمتي العسكرية وسط جيوش الاحتلال برينـانيـا، مما جعلني أصاب بخيبة معينة أمام ألمانيا القومية [النازية]... حينهـا أجـريت عملية حسابية مغلوطة: فالتفتت نحو اسبانيا، نحو شعب

قوموي أيضا، ويعاني من قسوة التاريخ كذلك. أما مع البحر المتوسط، فقد يممت نحو آفاق أرحب. وقد زرت، بافتتان، معظم بلدان البحر المتوسط ومخازن أرشيفه. الأمر الذي أخذ مني قرابة عشرين سنة.

□ إنه عمل جبار.

■ كلا. لم يكن المرء، في ذلك الوقت، يلج سلك التعليم العالي. ولم يكن أساتذتنا يحصلون على تقاعدهم إلا في الخامسة والسبعين، وكان عدد المناصب محدودا. بحيث إن المرء يحضر أطروحته من أجل متعة تحضيرها فحسب. كان الأمر شبيها برياضة [من الرياضات]، مثلما يعتني الناس اليوم بصحتهم عن طريق الركوب على الدراجات.

ثم إن لديّ ميلاً إلى الأرشيفات. وقد كنت أُباغَت وأُسحر دائما بما أكتشفه فيها. بحيث إنك تتوقع معلومات حول البواخر فإذا بك تجد معلومات عن الملكيات العقارية. أو إنك تتناول سلسلة تهمّ علاقات الفلاحين بالسادة، لكي تجد نفسك في مواجهة تاجر من التجار. وهكذا دواليك. نادراً ما تجد نفسك أمام المشهد الذي كنت تنتظره. ولشدة ما تنخدعُ، ويحوّل مسارك، تنتهي إلى تكوين نوع من النظرة الشاملة. بل إنك ما لم تكن حلمت بالتاريخ أمام هذه الوثائق أو تلك، فإنه لا يمكنك أن تكون مؤرخا.

□ ينبغي، إذن، توفّر وثيقة الأرشيف وحلم اليقظة المستند إلى وثيقة الأرشيف؟

■ نعم، مادمت مرغما على إعادة بناء ما تبحث عنه، وتخيّله. لقد قضيت، على سبيل المثال، سنوات تلو سنوات دون أن أعثر على البحر المتوسط حقا. كان من السهل عليّ أن أعثر على فيليب الثاني، وعلاقاته بفرنسا... بل وكان بإمكاني أن أكتب حياة فيليب الثاني في صيغة روائية. ثم حصل ذات يوم أني ذهبت إلى دوبروفنيك (راكوزه) التي يحوي أرشيفها الرائع قسائم التأمين البحرية، وأجور السفن، وشهادات السفن التجارية، وسفن القرن السادس عشر الشراعية ذات الأحمال - أي يحوي البحر الأبيض المتوسط برمّته. ولست أدري ماذا كان ممكنا أن أصنع لو أنني لم أذهب إلى دوبروفنيك.

□ **ما معنى أنك «تبحث عن البحر المتوسط»؟**

■ إنني لم أكن، أو لم أكن فقط، باحثا عن البحر المتوسط [الذي يرسمه] التاريخ. بل كنت أبحث أيضا عن ذاتي. لم تحصل لي إشراقات. وبقيت متردّدا سنوات وسنوات أمام البحر المتوسط. بحيث لم أفهمه إلا عام 1941، أي بعد ثماني عشرة سنة من شروعي في العمل، وذلك يوم أدركت أن الجغرافيا كانت وسيلة تبطيء التاريخ دون منازع، وسيلة لبلوغ المستوى الصفر. حينها فقط اكتشفت حسنات البحر المتوسط باعتباره موضوعا للتاريخ. ففهمت نفسي بفضله.

□ **ضمن هذا البحث، ماذا تُراها كانت أهمية مؤلَّف مثل «الأرض والتطوّر البشري» للوسيان فيفر، الذي يعالج علاقات التاريخ والجغرافيا؟**

■ لقد ظهر [مؤلَّف] «الأرض والتطوّر البشري» عام 1922. وكنت على علم بوجوده منذ 1924. وهو كتاب فتنني جدا ـ من أول نظرة. لكن، لشد ما يعقّد التفسير الجغرافي! لقد كان يحطم كل الحتميات تقريبا. ويشكّك فيها. وأنا لا أومن بهذا الإلغاء الكلّي. فهناك بعض الحتميات، وإلا سيكون الفضاء وكأنه محروم من واقعه الحي.

ومع ذلك لست أظن أن هذا الكتاب أثّر فيَّ تواً وبعمق. إذ لم أنتقل من اسبانيا إلى البحر المتوسط إلا حوالي عام 1929؛ ولست أعتقد أن فكر لوسيان فيفر القديم كان حاسما كل الحسم في هذا الانتقال. بل إن ما كان ذا تأثير هو الكلمة التي كان يقولها لي حوالي 1926 ـ 1927: «لا، ليست اسبانيا، ولكن البحر الأبيض» لكن رأيي لم يستقر في هذه اللحظة بالضبط.

□ **هل يمكننا أن نقول عن هذا المؤلَّف ـ «الأرض والتطوّر البشري» ـ وبصيغة أكثر عمومية، أنه كان مؤسِّسا بالنسبة للتاريخ الجديد؟**

■ بالتأكيد. لكن بالنسبة للجغرافية أكثر مما هو بالنسبة للتاريخ. وقد انطبعت به شخصيا [في هذا الجانب]. لكنني لست جغرافيا قُذِفَ به نحو التاريخ، وإنما أنا مؤرخ أدْرَكَ أن ميدان الجغرافيا لا ينبغي أن يُضبط بالطريقة

التي يسلكها الجغرافيون الذين كانوا أساتذة له. هذا أبعد من أن يكون تمردا. وإنما هو مجرد تغيير لوجهة النظر.

□ ما هو التماسك الذي طبع مسيرتك، من «البحر المتوسط» إلى «الرأسمالية» فـ«تاريخ فرنسا» الذي أنت الآن بصدد تحريره؟

■ إنني لم أسلك خطا مستقيما. لقد عشت تاريخ عصري، وطفوت فوقه، عالما كل العلم أنني لن أغيِّر فيه شيئا.. وأنا لا أبحث عن طريق أسلكها بدل أخرى. [بل] أقبل بالظروف كما تنطرح: هل هو نقص في التخيّل، نقص في الارادة، نقص في الأصالة؟ أم هو اختيار مقصود؟

إن لوسيان فيڤر هو المسؤول عن الكتاب الذي ألفته حول «الرأسمالية الحديثة»: لقد كان مشرفا على سلسلة تصدر عن أرمان كولان (A. Colin)، يهتم فيها بالجانب الروحي للعالم، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، وطلب مني أن أهتم بالجانب المادي. وبما أنه لم يتوفر على وقت يحرِّر فيه مؤلَّفه، فقد كتبت، وحيدا، للأسف، أجزاء كتابي الثلاثة. وقد أخذ مني ذلك أزيد من عشرين سنة، وهو عمل لا يندرج بالضبط ضمن خط تفكيري: وفعلا، فلا وجود، بالنسبة لي، لتاريخ غير التاريخ الشامل. والتاريخ المادي هو تاريخ مُقَطَّع في الواقع.

أما الأصل في كتاب «تاريخ فرنسا»، فهو سبب آخر تماما: لقد تحدثت دائما في «الكوليج دو فرانس» عن البحر المتوسط، والبندقية، وأمريكا والحياة الاقتصادية، والرأسمالية، واسبانيا... وقبل أن أغادره بوقت قليل قلت لنفسي إنه لم يكن من الجدِّي ولا من اللائق من جانبي كوني لم أتكلم مطوّلا عن فرنسا. هكذا إذن سرت في طريق التوبة، وأنجزت عن فرنسا، من 1970 إلى 1972، محاضرات حظيت بنجاح كبير، وتابعتها في مدرسة الدراسات العليا بعد تقاعدي. ثم شرعت في الكتابة. إني لا أستطيع العيش بدون أرشيف، بدون عمل على المهنة.

□ إذا نحن استعدنا الماضي، حتى وإن مرّ الوقت على ذلك، ألا نتصوّر وحدة [ما] تضم كل ما قمت به؟

■ لماذا تريد أن أطرح على نفسي هذا النوع من الأسئلة؟ وأن أبحث عن التماسك بعد مرور الوقت؟ الواقع أن كلّ شيء جاء بالنسبة لي من البحر المتوسط ذاته، ومن تعليمه الغريب: [ذلك أنه] لم يكنْ إذا نحن تكلّمنا من الزاوية التاريخية، شخصية عادية. إنك لا تستطيع القول «إنه ولد يوم . . . .». كما أننا لا نعرف نهايته. لهذا كان عليَّ أن أبني إشكالية مخصّصة له. وقلت لنفسي ذات يوم: هناك التاريخ الذي لا يتحرّك ثم التاريخ ذو الايقاع البطيء (أحوال [الناس]، حركة السكان، الدول، الحروب): وهناك، أخيرا، تاريخ الأفراد والوقائع، وهو تاريخ سريع جدا.

هكذا انتهيت إلى تفكيك الزمن. ذلك أن زمن التاريخ ليس دفقاً واحداً؛ وإنما هو شبيه برقائق [أو صفحات]. من هنا ينبغي النظر إلى التاريخ عمودياً. وقد فهم سارتر ذلك جيدا. إن ما يحصل في الأعلى يذهب نحو الأسفل، إلا أنه لا يبلغه دائما؛ وعلى عكس ذلك، فإن ما يحصل ببطء شديد على مقربة من الأرض لا يبلغ السطح دائما. نحن أمام تواريخ متوازية، ذات سُرَع مختلفة. وقد بقيت سجينا لهذا التقسيم، لهذه الاشكالية . . .

إن «تاريخ فرنسا» الذي أكتبه هو، في منطلقه، تاريخ ينبني على المدة الطويلة، [أي] تاريخ التغيّرات البطيئة جدا التي تطلّبت سنوات لكي تتم. ويقول الانجليز عن مدتي الطويلة إنها «تاريخ لا نهاية له». لم لا؟ إن هذا يعني، أيضا، أن بإمكاني أن أتناول، على سبيل المثال، بعض حقائق عصر لويس الرابع عشر لكي أتكلم عن العصر الحالي، دون أن أكون متهما، هنا، بالمفارقة التاريخية. ولعل «تاريخ فرنسا» هذا قد أغراني لكي أثبت، في ميدان يعرفه الجميع، أن بإمكاننا أن نتناول موضوعنا بطريقة تختلف عما يقوم به آخرون. فلتحيا التجربة!

□ هل يمكنك أن تقول لنا كيف يتطوّر «تاريخ فرنسا» هذا؟

■ المهم بالنسبة لي، هو هوية فرنسا، أي الجزء الاول [من الكتاب] بقسميه: «فرنسا في المؤخرة» ـ الفضاء، السكان، الحياة الاقتصادية ـ، أي ما نتحمله، أو بكلمة، فرنسا التي تعاني. . . والقسم الثاني [الذي] يحاول أن يجيب على سؤال: هل الفرنسيون مسؤولون عن أمجاد وكوارث تاريخهم؟

أما الجزء الثاني فسيتناول «نهضة فرنسا»، أي أنه كتاب تقليدي تماما. في حين أن الجزء الثالث، «مصير فرنسا»، يبدأ بعد الثورة الفرنسية. [ليتناول] فرنسا جديدة وقد أخذت مكانها، وأودّ أن ألقي ضوءا خاصا على مصيرها الصعب والدرامي.

□ ألا يلعب الاقتصاد دوراً متميزاً في معمار كتبك، في رؤيتك للتاريخ؟

■ نعم، بالتأكيد. فالاقتصاد علم استثنائي. وقد قدم عدداً كبيراً من النظريات إلى حدّ أنه يعطينا شبكة من القواعد التي يسهل استخدامها. هناك وقائع الحياة الاقتصادية، والحركات الطويلة، والبنيات.. وحين نبلغ البنيات نمسك بالزمن الطويل، وبالاقتصاد ـ العالم، على حدود الفضاء.

□ إننا نرى جيدا كيف يحرّك الاقتصاد الفضاء، مع تحديده له في نطاق كونه هو ما يحرّك الناس؟

■ إن الاقتصاد لا يحرّك الناس فقط، بل ويتحكم في حركاتهم. ويشبه فعله حياةً سرية، لا واعية. على نحـو ما يتحـدث عنه فرويـد. ليست الحكومات هي المتحكمة حقاً في الحياة الاقتصادية. إنها لا تعرف ماهية أزمة [من الأزمات]. ونحن نشبهها في ذلك، إلا أننا نتفوق عليها في كوننا نعرف أننا لا نعرف. والواقع أن الاقتصاد يضع كل شيء موضع اتهام. ويشْغَل كل الطوابق. من هنا فإن الرأسمالية بنية فوقية للحياة الاقتصادية موجودة دائماً، وذلك لأنها، وقبل كل شيء، مسقط قمة الهرم الاجتماعي في مجال الحياة الاقتصادية. ولا وجود قط، لغير حفنة من الناس هي المتحكمة حقا في الحياة الاقتصادية.

□ حتى في بلدان شرق أوربا؟

■ بالتأكيد. لقد ألقي علي يوماً سؤال، بالاتحاد السوفياتي، حول لماذا لم أكن شيوعيا. وقد أجبت بأن الشيء الوحيد الذي يبدو لي مُعادلا للثمن الضخم الذي تكلفه ثورة من الثورات، هو المساواة. وأضفت قائلا: ولا أظن أنكم تملكونها. وقد وافقني محدّثي في ذلك دون تحفظ.

فسواء مال المجتمع إلى اليسار أو إلى اليمين، ومهما كان شكله السياسي، فلا وجود لمجتمع بدون تراتبية. ومؤخرا قال آدر (Ader) في برنامج برنار بيفو (B. Pivot) إن بإمكان الاعلاميات أن تضع حداً للهرم الاجتماعي. وهو ما لا أعتقده، كما أنه لا يعتقده هو بدوره. ذلك أن المركزة سوف تتواصل مع التكنولوجيا الجديدة. سوف تتواصل دائما، حتى وإن لم يظل مكترو القمة هم أنفسهم دائما.

وأظن أنه ينبغي، دون غاية، تمييز المجتمع المدني عن المجتمع السياسي. وهو تمييز قديم، مفرط في القدم، ومألوف جداًا المجتمع السياسي هو الدولة. ولزمن طويل كان المجتمع السياسي يتكوّن من زمرة صغيرة من الناس. كان هناك في القمة، على أيام لويس الرابع عشر، عائلتا كولبير (Les-Colbert) وفيليبو (Les Phélypeaux) وحلفاؤهما، الذين حكموا فرنسا، حتى عام 1715، ولعل مجموع أفراد هؤلاء لا يتعدى المئة، عشرة منهم نشيطون جداً. وبجانب هؤلاء، كان «الاقطاع الضريبي العام» (La Ferme générale) نفسه عبارة عن زمرة مشدودة من الصلات العائلية، دولة في قلب الدولة.

إلا أن الدولة، اليوم، قد كبرت على نحو مفاجىء. إنها تمسك بكل شيء: وهي بنية فوقية تنغرز وسط كتلة الساكنة الفرنسية. ومع ذلك، فإنه لا وجود في القمة قط إلا لعدد محدود من الأشخاص.

إن الدولة والرأسمالية والحضارة والمجتمع موجودة دائما، ومن قديم. وما الانسان سوى خلية نحل بتعقيدها المخيب للآمال والقائم على أن العاملات يملكن الحق في الزواج وامتلاك الأطفال. ولا وجود لزمرة من الناس تتكتّل دون أن ينجم عن تكتلها خلق سلطة. إن المجتمع يصنع تراتبيته بشكل آلي، يصنع الهرم. وربما كان السعي إلى إزالته مجرد مضيعة للوقت. ولو أنه كان ينحل فقط، لكان ذلك بالنسبة للمؤرخ، فرصة رائعة لفهمه.

□ لماذا ينبغي إزالة رأس الهرم وسحقه؟

■ لست من أنصار ذلك قط. ولأنني أظن، كما سبق أن ذكرت، أنه سيعيد تشكيل نفسه في صيغة أخرى. لقد تقبلت دائماً مكانتي الإجتماعية. ومع أني ولدت فقيراً، فإنني كنت أحسّ دائما بأني ذو حظوة. من هنا فلا شراسة

شخصية لدي تجاه المثري عائلة ولا الرغبة في تحطيمها: لو كان الأمر يتعلق بأمنية سارتر، كي نصل إلى مجتمع تمّحي فيه هيمنة الانسان على الانسان، فلا بأس، لكن إذا كان ذلك يتم لكي نشهد مثري عائلة أخرى تأخذ مكانها، فما جدواه؟

□ كل هذا محافظ جدا؟

■ كلا. وإنما هو مجرد معاينة لعجز الأفراد في مواجهة زمرة السلطة الاقتصادية هذه التي يفرزها كل مجتمع من داخله، سواء أكانت رأسمالية أم لا. إنني أرى انطلاقاً من هذه الواقعة، أن الإنسان ليس حرا. وأن حريته الوحيدة، كما كان ليون برنشفيك (L. Brunschvicg) يلقّن ذلك، تكمن في امتلاكه للحق في أن يصدر الاحكام وللشجاعة على ذلك. إنني أصدر حكما على التراتبية. لست أزعم أن هذا سيعطيني حرية خارقة، وإنما هو يسمح لي بأن أفكّر وأحيا وأنام هادئاً مطمئناً، وأن أمارس فعلي من فينة إلى أخرى، في اتجاه هذا الحكم، حين تتاح لي الامكانية ـ وهو أمر نادر.

□ ومع ذلك فهناك أناس أكثر تحررا من آخرين؟

■ صحيح. وطبيعي أن الفكر سرعان ما يذهب إلى الحرية التي يمكن أن تعطيها السلطة السياسية. إلا أنه حين نقارن هذه الحرية بما ستكونه الحرية الكاملة، فإن الفارق هو بمنزلة قفزة برغوث.

□ مثلما هو الأمر بين من ندعوهم «الفقراء الجدد» وبين الأكثر غنى؟

■ إن مجتمع اليوم، وعلى خلاف مجتمع الأمس، قادر، إن هو قرّر ذلك، على إطعام الفقراء. وإلا فإن ذلك سيكون خطأ في الحكم. لكن فرنسا ضنينة بثرواتها وامكانياتها.

□ ألم تكمن حركة التاريخ ذاتها في تنقيل الأهمية إلى كل من الطوابق الثلاثة التي تميّزها، وتقليص أهمية «الطابق الأرضي»؟

■ نعم ولا، لكني أخشى من أن تكون على حق. لقد اعتقدت دائما أن الطابق الأرضي، مع كونه يمكن أن يكون مغرقا في البؤس أحيانا، هو

أرضية التاريخ الصلبة. وأظن أن الأمر كذلك منذ 1950. إنها البنية، كل البنيات العميقة للبلد جرى قلبها، وإتلافها... إلا أن هذا الإفساد العميق يتم من تلقاء ذاته. وقد كان ماركس أكثر من نصف مخطىء حين قال إن الناس يصنعون التاريخ؛ ذلك أن الأكثر تأكيدا، عكس ذلك، هو أن التاريخ يصنع الناس. إنهم يخضعون له.

لو كنت رجل سياسة لعلمت أني لا أستطيع بلوغ القاعدة بسهولة، أو التحكم في الظروف، وأنني محكوم علي، في أحسن الأحوال، بأن أقوم بأفعال دقيقة، في متناول اليد. أما التاريخ الإرادوي فهو مجرد وهم، ونقطة ماء في المحيط.

إنك تريد القيام بهذا الشيء أو ذاك، وإذا واتتك الظروف، أو إذا كان بإمكانك التعرف على الحد الذي تسمح لك ببلوغه، فإن ذلك يتم من تلقاء ذاته. لقد كان كولبير رجلا عنيدا، لكن الظروف عاندته، فأضاع الكثير من وقته في خلق مانيفاتورات لن تعرف طريقها إلى النجاح. وعلى عكس ذلك، أخذت المانيفاتورات تنشأ في القرن الثامن عشر من تلقاء ذاتها، ويحالفها النجاح. إن الحديث على هذا النحو معناه، وأنا أعلم ذلك، الدفاع عن البراءة المتواترة للحكومات، للحكومات الجادة، الموقّرة: فهي ليست متهمة بتسعة أعشار الأخطاء التي تلصق بها، وذلك لأنها لا تستطيع حيالها شيئا.

**□ إن لديك نوعا من حيادية التاريخ. وفي نفس الوقت تتحدث عن «الدراما» وعن «الانحطاط»؟**

■ الانحطاط؟ كلا بالتأكيد. إنك لن تجد قط هذه الكلمة الخدّاعة عندي، وقد أفهَمْتُ وجهة نظري في الموضوع بضعة مرات. كذلك فأنا لا أحب الدراما المألوفة إلى حد الإفراط في الحكايات التقليدية. إن المؤرخ يصبح [فيها] مخرجاً، في حاجة إلى [الحدث] المسرحي. وما أكثر ما نجد وقائع مضخّمة! إن هناك، دون شكّ، وقائع عميقة، إلّا أنها نادرة، [وقائع] نرى من خلالها عمق الكتلة المتحركة. ولست مناهضاً للتاريخ الوقائعي بشكل أعمى: أنا ضد التاريخ الوقائعي وحده، مثلما قد أكون ضد تاريخ المدة الطويلة وحده.

أما بخصوص ما تدعوه تاريخاً محايداً، فلنحدّد القول. إن التاريخ يظهر بالنسبة لي وكأنه شكل من أشكال المعرفة ينبغي علينا دفعه نحو بعض أنصاف اليقينات، كذلك هو الأمر في الميادين ذات الحظوة. ميادين الديموغرافيا والجغرافيا التاريخية والاقتصاد الاستعادي . . . إن التاريخ ذاته يستهويني أقل مما تستهويني كوكبة العلوم الانسانية، المتضامّة، تلك. وقد كان لوسيان فيڤر (L. Febvre)، بالتأكيد، مؤرخاً أكثر مني. كان يريد إخضاع علوم الانسان للتاريخ، مثله في ذلك مثل مارك بلوك (M. Bloch). وأنا لا أحاول استعمار العلوم الانسانية، بل أريد زيارتها فحسب لكي أحاول أن أنظر بأعينها، وأن أستعير، للحظةٍ، لغتها ووجهات نظرها، لكي أغني وجهة نظري.

□ ما معنى هذا القول: «إن التاريخ، علم للانسان»؟

■ كان لوسيان فيڤر يقول: «إن التاريخ هو الانسان»، أما أنا فأقول: «إن التاريخ هو الانسان والباقي». إن كل شيء تاريخ: الأرض والمناخ والحركات الجيولوجية. . التاريخ علم للانسان [لكن] شريطة أن تكون كل علوم الانسان بجواره. والتاريخ أداة لمعرفة الانسان، لكن لا في حد ذاتها، لنكن جديين!

□ الانسان، ما هو؟

■ إنه طريقة في الحديث، كلمة تشير إلى جنس. وقد يكون بإمكاننا أن نقول المجتمع، أو الظرف الانساني. وثمة، في الوقت الحالي، انطلاقة رائعة لعلوم الانسان، هي في نفس أهمية انطلاقة العلوم البيولوجية في أوائل القرن العشرين. ها هو ذا شيء يغمر ويبرر ويفسر كل شيء.

لكن، هل نعلم ذلك في فرنسا بعد؟ هل نعلم أن علوم الانسان تعرف نجاحا لم يسبق له مثيل؟ إننا بلد مُفعَم في هذا الميدان. وما سبب هذا الامتياز؟ السبب بسيط: هو أن فرنسا تملك الجوقة. إذ ليس بإمكاننا أن نقوم بعلوم إنسانية ما لم نجمعها كاملة، ما لم تكن هناك جوقتها الكاملة. والجوقة متوفرة هنا، عندنا، طوع إشارتنا.

□ ألا نشهد اليوم، وعلى العكس من ذلك، تشتتاً أكبر فأكبر لعلوم الانسان؟

■ لقد كان الأمر هكذا دوما. لكن لا ينبغي خلط تشتت العلوم بتشتت الميادين. لو كنت وزيرا للتربية الوطنية لوضعت برنامجا للتبريز [يضم] تاريخ السوسيولوجيا والسيكولوجيا والاقتصاد السياسي الخ. وسنرى ماذا سيعطي هذا البرنامج. إنني نصيرٌ لتاريخ علمي تمتد آثاره بعيدا عنه ويصبح علماً مساعدا، على سبيل الاحتمال، لباقي العلوم الانسانية. وليس ثمة، بالنسبة لي، سوى بَيْعِلْم (Interscience) واحد. ولو كان عليَّ إصدار مجلة لأسميتها البيعلم.

□ وما معنى ذلك؟

■ إذا حاولنا تزويج التاريخ بالجغرافيا، أو التاريخ بالاقتصاد، أو الجغرافيا بالرياضيات، فإننا نضيع وقتنا. ينبغي علينا القيام بكل شيء، في وقت واحد. ينبغي إعادة خلق الاشكاليات المجمّعة، الجديرة بعصرنا، والقابلة لأن تُستخدم ويُعمل بها، أي تلك الإشكاليات التي تعرف طريق النجاح.

□ ما الفرق الموجود بين البيعلم وتداخل أصناف المعرفة؟

■ إن تداخل أصناف المعرفة زواج شرعي بين علمين متجاورين. أما أنا، فمع الاختلاط المعمَّم. والمتحمّسون الذين يقومون بالبيعلم عن طريق تزويج علم بآخر هم [أشخاص] مفرطو الحذر. في حين أن العادات السيئة هي التي ينبغي أن تتفوق: لنخلط كل العلوم بعضها ببعض، بما في ذلك العلوم التقليدية، الفلسفة، وفقه اللغة، الخ. التي ليست ميتة تماما كما يقال. والتي تشكل واحدة من نقط تفوقنا.

□ لهذا السبب أنشأت الشعبة السادسة بمدرسة الدراسات العليا؟

■ لقد جاءت فكرة الشعبة السادسة من شارل مورازي (Ch. Morazé). فغداة الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك في الجامعة سوى كرسي واحد للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. كما أن لوسيان فيفر (L. Febvre) كان مراده

أن نصنـع التـاريخ في ورشـات صحبـة رجـال اقتصـاد وسـوسيولـوجيين وجغرافيين . . . وقد كنت ، إلى حد ما ، الرجل العملي ، ومحقق هذا المشروع ، لا خالقه .

وقـد مكّـنت إقـامـة هذه الشعبـة السـادسة من إغاثة عدد معين من الأشخاص ذوي القيمة الرفيعة جدا ، من أمثال : **لوسيان كولدمان** (L. Goldmann) ، **بيير فرانكاستل** (P. Francastel) ، **رولان بارت** (R. Barthes) ، وكثيرين غيرهم ، ممن لم يكونوا بارزين إذّاك . . . لقد مثّل ذلك إمكانية لأن نفتـح ، في فرنسـا ، مأوى للعلوم الانسـانية التي لم تكن تجد مكانا تأوي إليه ضمن المعيار الجامعي التقليدي . وقد كانت عملية مواتية مقارنة مع غيرها .

**□ هكذا كانت فكرة «البيعلم» ، بالأحرى ، نابعة من «بيت علوم الانسان» ؟**

■ **هنا أيضا فأنا لست منشىء «بيت علوم الانسان» .** في عام 1950 ، كنت أريد إنشاء كلية للعلوم الاجتماعية ، **أي كلية تتمثل فيها مختلف علوم الانسان سوية ،** بطريقة ثورية وعلى خلاف ما كان حاصلا إذّاك . في مواجهة هذا المشروع ، أطـلق على كليات الآداب إسـم كليات الآداب **والعـلوم الانسانية ،** وعلى كليات الحقوق ، كليات الحقوق **والعلوم الاقتصادية . هكذا** وضعوا سدّا أمامي . وللتسليم لهم بما وضعوه ، وعدم إنشاء هذه الكلية الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، وهبتنا الحكومة **«بيت علوم الانسان» .** كتعويض .

هكذا فإن **«بيت علوم الانسان»** لم يعمل لأجلي ، في الأصل ، بل ضدّي إلى حدٍّ ما . إلا أنني لم أكترث لذلك . وإنما بادرت فسعيت للاستفادة من خزانة جيدة جدا واشتغلت في مقرات مختلف مراكز البحث ، دون أن أنتزعها من الادارات المشرفة عليها . كنت أفكر ، بالأحرى ، في إشكاليات مشتركة كان ممكنا لها أن تتطوّر من تلقاء ذاتها : هكذا أنشأت كافتيريا ، أي مكانا للاجتماع . إلا أنها لم تلعب دورها كاملاً .

وإني أجرّب اليوم صيغة أخرى غير مراكز البحث هذه : هي الاجتماع ، استنادا إلى برنامج محدد ، بين أربعة أو خمسة اختصاصيين من ذوي الشهرة الواسعة . وتنجم عن ذلك أشياء ممتازة في ميادين مختلفة جدا .

□ **يظهر التاريخ الجديد وكأنه العلم الانساني الذي نجح في الهيمنة على العلوم الانسانية الاخرى؟**

■ نعم، في حدود معينة. وذلك لأن المؤرخين ربما كانوا يشتغلون أكثر من بعض الآخرين. إلا أن التاريخ، ولكي يكون ذا قيمة، لابد له أن يندمج، وأكرّر القول، في باقي العلوم الانسانية، وعلى علوم الانسان، من جهتها، أن تأخذ البعد التاريخي بعين الاعتبار. إن علماء السوسيولوجيا والاقتصاد والانثروبولوجيا والسيكولوجيا، لا يهتمون، بما فيه الكفاية، بالمنظور التاريخي. وتظن السوسيولوجيا، على سبيل المثال، أن بإمكانها التفكير في ذاتها، وإعادة بناء ذاتها، على حدّ شفرة الأحداث الجارية. لكن ذلك غير ممكن. ومشكل التمييز، مثلا ـ لكي نشير إلى الكتاب الجميل الذي ألّفه بيير بورديو (P. Bourdieu) ـ يُطرح في كل العصور. ويتتبع هذا المشكل، أو مشكلا آخر، عبر الزمن الماضي، إنما يمكننا أن نستخلص إشكالية ذات قيمة في العمق. وعبثاً مضاعفتك للإستبارات في الزمن الحاضر، فهذا لا يكفي. إن هذه هي قناعة عالم اقتصاد علمي الكثير، وهو سيمون كوزنيت (S. Kuznets)، كون الحاضر لا يفسَّر إلا عن طريق الماضي، عن طريق ماضٍ قصيٍّ نسبيا.

□ **والوقائعي؟**

■ إن الوقائعي هو أصعب ما يمكن أن يُمسَك به. لن أجروء، مثلا، على كتابة حياة لفيليب الثاني. فهو كائن غريب. يتكلم بصوت مهموس جداً إلى حد أن الناس لا يسمعون ما يقوله لهم. كان يفرّ من الزمن الذي يعيشه. وهو مسؤول عن موت ابنه: دون كارلوس (Don Carlos) المجنون. ثمة جنون في عائلة الهابسبورك. وقد سجنه الملك بعد [عدد] من المشاريع الخرقاء (كان يريد الفرار باتجاه الأراضي المنخفضة). وبعد موت الطفل، اتخذ لاحقا نفس المرشد الديني لابنه مرشداً له. هل كان يريد أن يعرف، عن طريق الاعتراف الكنسي، الحقيقة حول ابنه؟ الخ. إن الوقائعي يفتن: فهو الدراما.

لكننا نجانب الصواب إذا نحن تصوّرنا [إمكان] استخلاص تفسير أكيد من سلسلة من الوقائع المروية على نحو تفصيلي دقيق.

وباختصار، فإن كثيرا من المؤرخين لا يشعرون بأهمية وشساعة مهنتهم. وقد كان مارك بلوك ولوسيان فيفر يشعران، فيما يتعلق بهما، بأهمية التاريخ هذه التي تكاد تكون تراجيدية. وإني أشعر بذلك مثلما كانا يشعران به. أو إني أجهد نفسي في ذلك، على الأقل.

□ على أي حال، هناك نجاح التاريخ الجديد؟

■ نعم، لقد صار هذا التاريخ مهيمناً. إلا أنه لا يتوقف عن التغيّر بدوره. ونحن على طريق التـاريخ الجـديد. وخـلال السبعينـات، ارتمى المؤرخون الفرنسيون على تاريخ الذهنيات. فهل سيدركون أن الامر يتعلق هنا بتاريخ خاص ينبغي ولابد إلحاقه بالمجموع؟ وهل سيقومون بذلك؟

□ نلاحظ اليوم اتجاها بأكمله لدى المؤرخين يكمن في كونهم يفكرون في ما يقومـون به بنـوع من النسبـوية الحادّة. فهل يكون التاريخ، بذلك، رواية؟

■ المؤرخ صانعا للرواية؟ إنها طرفة. إن التاريخ شيء جدّي. والنقد من هذا القبيل جرى التخلي عنه [من زمن]. ولم يعد بإمكان المؤرخ أن يصنع رواية. والفرق بين لوسيان فيفر وميشلي (Michelet) يكمن في أن لوسيان فيفر لا يمكنه أن يسلم نفسه لحميّته أو لمخيلته.

□ إذن، ما الذي يجعل التاريخ الجديد ينفلت من النسبوية؟

■ لأنه يسعى إلى الدفع بالتاريخ أقصى ما يمكن داخل إطار يريد لنفسه أن يكون عمليا. هكذا كلما نجحت في الحصول على متوالية إحصائية، مثـلا، فإنك تتقدم. لست أقول إن الاحصاء هو التاريخ بمجمله. ولكن بدونـه، قد لا نعـرف، في غالب الأحيان، أين نقع. والأرقام طريقة لكي نحسن طرح قضايانا أو لكي نحول بيننا وبين إساءة طرحها.

□ كيف سيسير المؤرخ بعمله بمصطلحات الحقيقة؟

■ الحقيقة؟ هذه كلمة فيها مبالغة، فلا وجود لحقيقة علمية إلا إذا كانت هناك مراقبة ممكنة. هكذا غيّرت العلوم الدقيقة «حقيقتـ[ها]» على نحو

واسع خلال هذين القرنين الأخيرين. وهي تواصل ذلك كلما واجهها تطوّرها ذاته بحقائق جديدة. إن التاريخ يواجه، بدوره، بعض الحقائق، في نهاية خطابه، وغالبا ما لا يحسن الموقف التاريخي حكمه على ذاته إلا تجاه الزمن الحاضر. وقد كان سماع هذا القول كافيا لأن يرفع أستاذيَّ عقيرتاهما بالصراخ. فقد كانا يحرّمان تناول التاريخ المعاصر. كانت سنة 1900 هي السنة الحدّ. والحال أنه ينبغي الوصول إلى حدود عام 1984 [سنة إجراء الحوار]. وهكذا دواليك.

□ ما هو رأيك في الاستخدامات السياسية التي قيم بها لأعمالك؟ وخاصة منها الجزء الثالث من [كتابك]: «الحضارة المادية: زمن العالم»؟

■ أظن أنه ما من أحد استخدمها حقا. و لست أرى سوى ألان مينك (A. Minc) فهم ما أردت القيام به.

بيد أنك تشير إلى مركزة العالم. ومن هذا المنظور أظن بأن أوروبا محكوم عليها بذلك، للأسف، ولفترة معينة على الأقل. إن المركز، وعنفوان العالم يتجهان نحو بلدان لم تستنفذها السلطة. إن انجلترا مستهلَكة. وكذلك فرنسا، لكن ليس في نفس الموضع. لم يكن لأوروبا أن تقوم، وتكهرَب، وتضفى عليها الحيوية إلا باستيلائها على بلدان الشرق أو تحالفها معها. إن أوروبامرضوضة من قبل الاقتصادين السوفياتي والامريكي. وقد يكون أفضل حظوظ بقائها حية كامنا في توحيد قواها ومجالها في مجموع واحد.

لقد تشوشت فرنسا خلال الخمسينات والسبعينات، كما لم تتشوش من قبل. وفقد المجتمع والثقافة الفرنسيان حواجزهما.

ونحن نعيش اليوم عشية إعادة استرجاع التجديد الذي سيؤدي إلى صعود مفاجيء وجديد في الانتاج. ثورة جديدة لا مثيل لها على الاطلاق. وربما كان ارتفاع الدولار علامة جيدة: وهو يثبت أن هناك، على الأقل، بلداً في العالم تجاوز الأزمة.

لقد فقدت فرنسا، في الخمسينات ـ السبعينات، كثيرا من حريتها، ومن هويتها بالتالي. إلا أنها لم تفقد، للأسف، اعتزازها بذاتها، الأمر الذي لعله كان بالامكان بناء أوروبا بدونه. لكننا لسنا المتهمين الوحيدين.

□ هل ترى، أنت بالذات، أنك نجحت؟

■ نعم ولا. فالناس والآثار تمرّ. وعلى أيٍّ، فقد وهبت لنفسي مشهداً ثقافياً لم يكن لأحد أن وهبه لنفسه. كل علوم الانسان منظورا إليها عن قرب، حقائق روسيا السوفياتية، والأمريكتين، والهند، والصين، كل هذا حين وضعته أمامي أعانني إلى حدٍّ كبير. وقد نجحت في بحثي. [أو] على الأقل أنا راضٍ عنه.

□ هل تحس بنفسك إنساناً وحيداً؟

■ نعم، من الناحية الثقافية فحسب. والناس الذين التقيت بهم لم يكونوا جدّ قريبين مني، نفس قرب لوسيان فيڤر. إن الحياة الثقافية تفتحك على الآخرين ـ وتجعلك منطوياً على نفسك، كذلك. لكني لست وحيداً لأن الحياة، بالنسبة لي، ليست الحياة الثقافية فقط. فهناك عائلتي، وأصدقائي.

□ أخيرا، هل للتاريخ من معنى؟

■ إني أومن، أساسا، بتقدم الناس، بالذكاء، بالأخلاق، لكن التاريخ يسير قدماً مثل المسيرات الاسبانية: كلما خطونا خطوتين إلى الامام، خطونا خطوة أو خطوتين إلى الوراء. وكلما بلغ تقدمٌ تمامه طرح مشاكل جديدة. إن إزدهار الحياة المادية، مثلا، يرافقه تصاعد الجريمة. وهناك، فوق ذلك، المعنى والمعنى المضاد. وكلاهما ينتميان إلى «البنيات الدينامية» للتاريخ. ليس هناك الإله وحده، فثمة الشيطان أيضا.

نقل الحوار عن الفرنسية: مصطفى المسناوي

(*) عن «الماگازين ليتيرير» (Magazine littéraire) العدد 212، نوفمبر 1984. (ص ص: 18 ـ 24)

# التاريخ والعلوم الاجتماعية:
# المدة الطويلة

## فرنان بروديل

ثمة [1] أزمة عامة [تعيشها] علوم الانسان: فهي تنوء تحت التقدمات الخاصة بها، ولو لم يكن من سبب لذلك سوى تراكم المعارف الجديدة وضرورة العمل الجماعي، الذي يبقى تنظيمه الذكي مطروحا للانجاز؛ وهي تتأثر كلها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أحبّت ذلك أم كرهت، بتقدمات أكثر [العلوم] خفة بينها إلا أنها تبقى رهينة بنزعة إنسانية رجعية وماكرة، لم تعد تصلح لها كإطار. وهي منشغلة كلها، بهذا القدر من الحصافة أو ذاك، بموقعها ضمن المجموعة الضخمة التي تؤلفها الأبحاث القديمة والجديدة، التي نستشف اليوم تقاربها الضروري.

فهل ستخرج علوم الانسان من هذه الصعوبات عبر مجهود إضافي [ينصبّ على] التحديد، أم عبر المزيد من الكدر؟ لعل الوهم بذلك يخامرها، إذ هاهي ذي (ولو أدى الأمر بها إلى العودة إلى لوك بعض الترثرات القديمة جدا أو إلى مشاكل مغلوطة) منشغلة، اليوم أكثر من البارحة، بتحديد أهدافها ومناهجها وتفوقاتها. وها هي ذي تتبارى منساقة في خصومات [تهم] الحدود التي تفصلها، أو لا تفصلها أو تفصلها فصــــــلا سيئا، عن العلوم المجاورة. ذلك أن كل علم من هذه العلوم يحلم، في الواقع، بالبقاء في بيته أو بالعودة إليه... ويحاول بعض العلماء المعزولين تنظيم بعض التقاربات: فكلود ليفي ستروس [2] يدفع الانثروبولوجيا «البنائية» نحو مناهج اللسانيات، وآفاق التاريخ «اللاواعي» والامبريالية الفتية للرياضيات

(1) «الحوليات» (Annales ESC) عدد 4، أكتوبر - دجنبر 1958، نقاشات وصراعات، ص: 725 - 753.

(2) «الأنثروبولوجيا البنائية»، باريس، بلون 1958، في مواضع مختلفة وخصوصا ص 329.

«الوصفية»، وهو يميل نحو علم قد يربط، تحت اسم علم التواصل، الانثروبولوجيا، والاقتصاد السياسي واللسانيات، الخ . ولكن [أي علم] على استعداد لهذه التخطيات للحدود وتلك الإعادات للتجميع؟ فالجغرافية نفسها قد تطلّق التاريخ لأدنى سبب !

ولكن ينبغي لنا [تجنب] الجور، ففي هذه الخصومات وهذه الإنكارات مصلحة . [ذلك] أن الرغبة في تأكيد الذات ضدا على الآخرين تقع، وبالضرورة، في أصل أشكال الفصول الجديدة: أن ننكر الآخر، معناه أننا نعرفه قبلا . وفضلا عن ذلك، فإن العلوم الاجتماعية، ودون أن ترغب في ذلك صراحة، تفرض نفسها على بعضها البعض، حيث يريد كل واحد منها الإمساك بالاجتماعي برمته، أي في «كليته»، وكل واحد يدخل [حقول] العلوم المجاورة معتقدا أنه لايزال في بيته . فالاقتصاد يكتشف علم الاجتماع الذي يطوّقه، والتاريخ ـ ولعله أقل العلوم الإنسانية تبنيًا ـ يقبل جميع الدروس [الآتية] من جواره المتعدّد، ويعمل جاهدا على عكسها . هكذا، ورغم التكتيات، والتعارضات، والتجاهلات الحادثة، فإن إقامة «سوق مشتركة» آخذة في التبلور. وهي [إقامة] قد تستحق منا [عناء] المحاولة خلال السنوات المقبلة، ولو أنه قد يكون من المفيد لكل علم أن يعود، لاحقا، ولمدة معنية، ليسلك طريقا ذات صبغة أكثر شخصية .

ولكن ينبغي [حصول] التقارب أولا، فالعملية مستعجلة . وفي الولايات المتحدة، أخذ هذا الاجتماع شكل أبحاث جماعية تدور حول المناطق الثقافية للعالم الراهن، حيث إن دراسات المناطق هي، أولا وقبل كل شيء، دراسة تقوم بها مجموعة من علماء المجتمع (Social Scientists) لهذه الغيلان السياسية المنتمية لوقتنا الحاضر: أي الصين، الهند، روسيا، أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة . لقد أصبحت معرفتها قضية حياة [أو موت] ! مع أنه ينبغي ألا يبقى أي من المساهمين، خلال هذا الإشراك للتقنيات والمعارف، منغمسا في عمله الخاص، ويبقى أعمى أو أصمّ، كحاله بالأمس القريب، إزاء ما يقوله الآخرون أو يكتبونه أو يفكرون فيه ! ومع أنه ينبغي أن يكون تجميع العلوم الاجتماعية تاما، لا يهمل أقدم العلوم لصالح أصغرها سنا، وهي علوم

قادرة على إعـطاء الكثير من الوعود، وإن لم تكن دائما قادرة على الوفاء بها. فالمكـان المخصّص للجغـرافية، مثلا، ضمن هذه المحاولات الامريكية لا يساوي شيئا عمليا، كما أن المكان المسموح به للتاريخ ضئيل جدا. وفضلا عن ذلك، بأي تاريخ يتعلق الأمر؟..

إن العلوم الاجتماعية الأخرى لديها معلومات ناقصة عن الأزمة التي مرّ بها هذا الفرع المعرفي خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، وتميل كلها، فضـلا عن أعـمال المؤرخين، إلى تجاهل مظهر من مظاهر الواقع الاجتماعي الذي يتناوله التاريخ باعتباره خادمه الأمين، إن لم يكن يتاجر فيه ببراعة: أي هذه المدة الاجتماعية، وهذه الأزمنة المتعددة والمتناقضة من حياة البشر، وهي ليست مادة الماضي فحسب، وإنما هي أيضا نسيج الحياة الاجتماعية الراهنة. ذلك سبب إضافي لكي نشير بقوة، وضمن النقاش الذي أخذ يدور بين جميع العلوم الانسانية، إلى أهمية التاريخ وفائدته، أو بالأحرى إلى أهمية جدل المدة وفـائدته، كما يبرُز من مهنة المؤرخ ومن ملاحظته المتكررة؛ فلا شيء يملك أهمية تفوق، في اعتبارنا، وفي مركز الواقع الاجتماعي، هذا التعارض الحي، الحميم والمتكرر إلى ما لا نهاية له، بين اللحظة الواحدة والزمان الذي ينساب انسيابا بطيئا. وسواء تعلق الأمر بالماضي أو بالحاضر فإن منهجية مشتركة بين علوم الإنسان في حاجة ملحة إلى وعي واضح بهذا التعدد الثاوي في الزمن الاجتماعي.

ومن ثم، سأتحدث طويلا عن التاريخ، وعن زمن التاريخ. وسأخاطب قراء هذه المجلة، المتخصصين في دراساتنا، أقل مما أحدّث جيراننا المنشغلين بعلوم الانســان [الأخـرى]: اقتصـاديين واثنـوغـرافيين، إثنـولـوجيين (أو أنثروبولوجيين) وعلماء اجتماع وعلماء نفس، لسانيين وديموغرافيين وجغرافيين، بل وحتى رياضيين اجتماعيين أو إحصائيين ـ كلهم جيران تتبّعنا، خلال سنين طويلة، تجاربهم وأبحاثهم، لأنه كان يبدو لنا (ولايزال) أن التاريخ سيضاء بأنوار جديدة إذا ما انقاد لها أو اتصل بها. ولعلنا نتوفر على شيء ما نعطيه لها كمقابل. ويبرز، من خلال تجارب التاريخ ومحاولاته حديثة العهد، تصور ـ واع أو غير واع، مقبـول أو غير مقبـول ـ حول تعدّدية الزمان وقيمة الزمن

الـطويل الاستثنائية، تصوّر تتنامى دقته أكثر فأكثر. ومن شأن هذا التصوّر الأخير أن يثير اهتمام العلوم الاجتماعية جاراتنا، أكثر مما يثيره التاريخ نفسه - التاريخ ذو المائة وجه.

## - 1 -
## التاريخ والمُدد

ما من عمـل تاريخي إلا ويفكّـك الـزمن المنقضي، ويختار بين وقائعه الكرونولوجية، تبعا لميولاتٍ وعمليات طرد، واعية بهذا القدر أو ذاك. ومنذ فترة طويلة عوّدنا التاريخ التقليدي المهتم بالزمن القصير والفرد، والحدث، على سرده السـريع والدرامي ذي النفس القصير.

[أما]التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الجديد فإنه يضع في الصف الأول من بحثه النوسان الدوري ويراهن على مدّته: كما أنه أصبح مشدودا إلى سراب الارتفاعات والانخفاضات الدورية للأثمنة وإلى واقعها أيضا. هكذا أصبح ثمة، اليوم، وإلى جانب السرد (أو «الإلقاء الملحّن» التقليدي) إلقاء ملحّن يتناول الوضع [الاقتصادي] ويقحم الماضي عبر شرائح عريضة: أي عشرات أو عشرينات أو خمسينات من السنوات.

ووراء هذا الالقاء الملحّن الثاني، يتموضع تاريخ ذو نفس أطول، سعته تشمل، هذه المرّة، قرنا [بأكمله]: إنه التاريخ ذو المدة الطويلة، بل ذو المدة الطويلة جداً. لقد أصبحت [هذه] الصيغة، جيدة كانت أم سيئة، مألوفة لديَّ للاشارة إلى عكس ما أسماه فرانسوا سيميان (F. Simiand) ، وكان من الأوائل بعـد بول لاكـومب (P. Lacombe) ، التـاريخ الـوقـائعي. ولا تهمنا هاتان الصيغتان [إذ] سيتموضع نقاشنا، في جميع الأحوال، من صيغة إلى أخرى، ومن محور زمني إلى آخر، ومن اللحظي إلى المدّة الطويلة.

وذاك ليس لأن هذه الكلمات ذات أمانة تامة. ومثال ذلك كلمة حدث. فبالنسبة لي، أرغب في حصره وسجنه ضمن المدة القصيرة: إن الحدث

متفجّر، أو هو «خبر مدوٍّ»، كما كان الناس يقولون في القرن السادس عشر، إنه يملأ وعي المعاصرين بدخانه الخادع، ولكنه لا يطول أبدا، ولا نكاد نرى لهبه.

وقد يقول لنا الفلاسفة، دون شك، إن هذا إفراغ للكلمة من جزء كبير من معناها. فالحدث قد يحمّل، عند اللزوم، بسلسلة من الدلالات أو العلاقات. وهو يشهد، أحيانا، على حركات عميقة جدا، ويضم، عبر اللعبة، الزائفة أو غير الزائفة، لـ «الأسباب» و«النتائج» التي كانت أثيرة لدى مؤرّخي الأمس، زمنا يتجاوز مدته نفسها تجاوزا كبيرا. وما دام قابلا للتمديد تمديدا لا نهائيا، فإنه يرتبط، أكان ذلك بصورة حرّة أم غير حرّة، بسلسلة كاملة من الأحداث والوقائع الكامنة، سلسلة يبدو، من ثم، أنه من المستحيل فصل بعضها عن بعض. ولقد كان بإمكان بنديتو كروتشي (B. Croce) الادعاء، عبر لعبة الإضافات هذه، أن التاريخ كله، والانسان كله، ضمن أي حدث من الأحداث، يندمجان ويعيدان اكتشاف نفسيهما وقتما شاءا ذلك. ولكن، دون شك، على شرط أن نضيف إلى هذه الكسرة ما لا تتضمنه في البداية، ومن ثم، أن نعرف ما يصلح - أو لا يصلح - لينضاف إليها. هذه اللعبة الذكية والخطرة هي ما تقترحه أفكار جان بول سارتر الحديثة [3].

ولذا، فلننقل بصورة أوضح، وبدل وقائعي: الزمن القصير، على مقاس الأفراد، والحياة اليومية، وأوهامنا، وحالات وعينا السريعة، أي الزمن الذي يخص الاخباري والصحافي [دون سواهما]. والحال أن الأخبار والصحيفة تعطينا، وهذا ما ينبغي لنا ملاحظته، إلى جانب الأحداث الكبيرة، التي تدعى تاريخية، العوارض السطحية للحياة العادية: حريق، كارثة عرفتها السكك الحديدية، ثمن القمح، جريمة، عرض مسرحي، فيضان. هكذا سيفهم كل واحد أن هناك زمنا قصيرا [يكتنف] جميع أشكال الحياة، زمنا اقتصاديا، اجتماعيا، أدبيا، مؤسسيا، دينيا، بل وحتى جغرافيا (هبّة ريح، عاصفة [مثلا]) مثلما أن هناك زمنا سياسيا.

(3) جان بول سارتر: «مسائل المنهج»، الأزمنة الحديثة، 1957، عدد 139 و140.

إن الماضي، عندما نتناوله لأول مرة، هو تلك الكتلة من الوقائع الدقيقة، بعضها براق، وبعضها الآخر غامض ويتكرر بصورة لا نهائية، أي تلك الوقائع التي تنهل منها، وبالتحديد، الميكروسوسيولوجيا والقياس الاجتماعي، في الأحداث الراهنة، يوميا (وثمة كذلك ميكروتاريخ). إلا أن هذه الكتلة لا تشكل الواقع كله، [أو] كثافة التاريخ برمتها التي يمكن للتفكير العلمي أن يشتغل بها اشتغالا سهلا. إن لدى العلم الاجتماعي ما يشبه الكره تجاه الحدث. وعن حق: فالزمن القصير هو أكثر المدد نزوة وخداعا.

ومن ثم، يتولّد لدى بعض المؤرخين بيننا حذر حادّ تجاه تاريخ تقليدي، يدمغ بأنه وقائعي، حيث يمتزج هذا النعت بنعت التاريخ السياسي، رغم ما يكتنف هذا النعت الأخير من الخلط: إذ ليس التاريخ السياسي وقائعيا بالضرورة، ولا هو محكوم عليه بأن يكون كذلك. ومع ذلك، فالحاصل أن تاريخ المائة سنة الأخيرة كان في مجموعه، باستثناء الجداول الزائفة التي تفتقر إلى الكثافة الزمانية والتي كان يقطع بها سرده [4]، وباستثناء التفسيرات ذات المدى الطويل التي كان من اللازم تزويده بها، كان هذا التاريخ السياسي، في الغالب الأعم، التاريخ المتمركز على فاجعة «الأحداث الجسام»، يعمل ضمن الزمن القصير وعليه، لعلّ ذلك كان ثمن التقدم الذي حصل، خلال هذه الفترة نفسها، في الاكتساب العلمي لأدوات العمل والمناهج الصارمة. ولقد دفع الاكتشاف الضخم للوثيقة بالمؤرخ إلى الاعتقاد بأن الحقيقة موجودة كلها في الصحّة الوثائقية. «ويكفي أن نترك الوثائق تحملنا بشكل ما، حيث نقرأها تباعا، وكما تمنح نفسها لنا، لنرى سلسلة الاحداث وهي تعيد تشكيل نفسها بصورة شبه آلية» هذا ما كان يكتبه لوي هالفن [5] (L. Halphen) بالامس فحسب. لقد أدى هذا المثال، أي «التاريخ في حالة الولادة»، في أواخر القرن التاسع عشر، إلى كتابة تاريخية ذات أسلوب جديد، كتابة تتبع، في طموحها نحو الدقة، خطوة بعد خطوة، التاريخ الوقائعي كما يظهر من خلال مراسلات السفراء أوالنقاشات البرلمانية. لقد كان مؤرخو القرن الثامن عشر وبداية القرن

(4) «أوروبا سنة 1500»، «العالم سنة 1880»، «ألمانيا قبيل الاصلاح»، الخ.
(5) لوي هالفن (L.Halphen) : «مدخل إلى التاريخ»، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1946، ص 50.

التاسع عصر أكثر انتباها إلى أبعاد المدّة الطويلة التي لم يستطع إعادة إكتشافها لاحقا سوى بعض العقول الكبيرة، من أمثال ميشلي (Michelet) ورانكه (Ran-ke)، ويعقوب بوركهارت (Jacob Burckhardt) وفوستيل [دي كولانج] (Fus-tel [de Coulanges]). فإذا قبلنا بأن هذا التجاوز للزمن القصير كان أثمن غنم حصل عليه التأريخ (Historiographie)، خلال المائة سنة الأخيرة، لكونه أندر غنم، فهمنا الدور البارز [الذي يلعبه] تاريخ المؤسسات، والديانات، والحضارات، [وفهمنا]، بفضل الحفريات التي تتطلب مجالات زمنية واسعة، الدور الطلائعي [الذي تلعبه] الدراسات المكرسة للعصور القديمة الكلاسيكية. لقد انقذَتْ، بالامس، مهنتَنا.

* * *

إن القطيعة حديثة العهد مع الأشكال التقليدية لتاريخ القرن التاسع عشر لم تكن قطيعة تامة مع الزمن القصير، بل نعرف أنها عملت لصالح التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وعلى حساب التاريخ السياسي. ومن ثم، [نتج عن ذلك] انقلاب وانبعاث لا ينكر؛ ومن ثم، ضرورة التغييرات في المنهج، و[حدوث] انتقالات في مراكز اهتمامنا مع ظهور تاريخ كمّي على المسرح، تاريخ لم يقل كلمته الأخيرة بكل تأكيد.

بل [نتج عن ذلك] خصوصا تشويه للزمن التاريخي التقليدي. فبالأمس كان بإمكان يوم واحد وسنة واحدة أن يبدوا لمؤرخ سياسي وكأنهما قياسان صالحان. ولم يكن الزمان سوى حاصل الأنهر. إلا أن منحنىً للأثمنة، ومتواليةً ديموغرافية وحركةً للأجور، وتغيرات معدل الفائدة، ودراسة الإنتاج (وهي دراسة نحلم بها أكثر مما نحقّقها)، وتحليلا دقيقا للتداول تطالب [كلها] بقياسات أوسع بكثير.

لقد ظهر نمط جديد للسرد التاريخي - ولنسمّه «الإلقاء الملحّن» [illegible]، والدورة، بل و«البَيْدَوْرة» («intercycle») - يقترح علينا عقدا من [illegible]، وربع قرن، وفي الحدّ الأقصى نصف قرن من دورة كوندراتييف (Kondratieff) الكلاسيكية. وعلى سبيل المثال، إذا أغفلنا العوارض القصيرة

والسطحية، فإن الأثمنة ترتفع في أوروبا، من 1791 إلى 1817، وتنخفض من 1817 إلى 1852: هذه الحركة المزدوجة والبطيئة من الارتفاع والتراجع تمثّل بيدورة كاملة في الزمن الأوروبي، وفي زمن العالم دون ريب. ومما لاشك فيه أن هذه الفترات الزمنية ليس لها قيمة مطلقة. [وإذا قسنا على] بارومترات أخرى، مثل بارومتر النمو الاقتصادي والدخل أو النتاج الوطني فإن، فرانسو بيرو F. Perroux)[6] قد يعطينا حدودا أخرى قد تكون أصلح، ولكن لا طائل من وراء هذه النقاشات الجارية ! فالمؤرخ يتوفّر لا محالة على زمن جديد، زمن رفع إلى مصاف تفسير يمكن للتاريخ أن يحاول الاندراج تحته، حيث يتجزأ تبعا لمعالم مستحدثة، وحسب هذه المنحنيات وتنفسّها ذاته.

هكذا شرع إرنست لابروس (E. Labrousse) وتلامذته، ومنذ البيان الذي أصدروه خلال مؤتمر روما التاريخي سنة 1955، في إنجاز بحث واسع في التاريخ الاجتماعي تحت شعار التكميم. ولا أظن أنني أخون هدفهم إذا قلت إن هذا البحث سيفضي [بهم]، وبالضرورة، إلى تحديد بعض الظروف (بل البنيات) الاجتماعية، حيث لا شيء يضمن لنا مسبقا أن هذا النوع من الظرف سيتوفر على نفس السرعة، أو نفس البطء، اللذين يتوفر عليهما الاقتصادي. وفضلا عن ذلك، لا ينبغي لهاتين الشخصيتين الهامتين، الظرف الاقتصادي والظرف الاجتماعي، أن تجعلا فاعلين آخرين يغربون عن ذهننا، فاعلين قد يصعب، بل قد يستحيل، علينا، تحديد سيرهم، في غياب أقيسة دقيقة. فللعلوم، كما للتقنيات، والمؤسسات السياسية، والأدوات الذهنية، والحضارات (إذا أردنا استعمال هذه اللفظة الملائمة)،وتيرة حياتها ونموّها، ولن يكون التاريخ الظرفي الجديد في وضع جيّد إلا عندما يستكمل جوقته.

لقد كان من شأن هذا الإلقاء الملحّن أن يؤدي منطقيا، وعبر تجاوزه بالذات، إلى المدة الطويلة. ولكن هذا التجاوز لم يشكل القاعدة، لألف سبب، وها نحن نشهد عودة إلى الزمن القصير، ولعل [السبب] في ذلك هو أن ربط التاريخ «الدوري» بالتاريخ القصير التقليدي يبدو أكثر ضرورة (أو استعجالا) من المضي قدما نحو المجهول. وبتعابير عسكرية، قد يتعلق الأمر

(6) قارن مع كتابه: «النظرية العامة للتقدم الاقتصادي» دفاتر I.S.E.A، 1957.

هنا بتعزيز المواقع المكتسبة. هكذا، كان موضوع أول كتاب هامّ لإرنست لابروس، سنة 1933، هو الحركة العامة للأثمنة بفرنسا، خلال القرن الثامن عشر، وهي حركة تشمل قرنا [7] [بأكمله]. و[لكن]، ها هو إرنست لابروس نفسه يخضع، في سنة 1943، وفي أعظم كتاب تاريخي ظهر بفرنسا خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة، إلى الحاجة [التي دفعته] إلى العودة إلى زمن أقل إزعاجا، وذلك عندما أشار إلى أن في الدرك الأدنى من الكساد الممتد من 1774 إلى 1791، يكمن أحد المنابع القوية للثورة الفرنسية، بل أحد مزالق قذفها. وذلك رغم أنه لم يكن يطعن إلا في نصف بيدورة (demi-intercy-cle)، وهي قياس واسع. أما مساهمته في مؤتمر باريس الدولي المنعقد سنة 1948، [والتي عنونها]: كيف تولد الثورات؟، فهي تحاول أن تربط، هذه المرّة، استهواء (pathétisme) اقتصاديا ذا مدة قصيرة (في حلة جديدة) باستهواء سياسي (ذي الحلة العتيقة جدا)، هو استهواء الأيام الثورية. فها نحن غارقون مجددا في الزمن القصير، وفي خضمه تماما. وبالطبع، فالعملية مشروعة، ومفيدة، ولكن ما أدها ! إن المؤرخ [مستعد] ليكون مخرجا، وعن طيب خاطر. فكيف له التخلّي عن دراما الزمن القصير، أي عن أحسن الأسرار التي تتضمنها مهنة قديمة جدا؟

* * *

ووراء الدورات والبيدورات، ثمة ما يسميه الاقتصاديون، دون أن يدرسوه دائما، الميل القرني، ولكنه لا يهم سوى بعض الاقتصاديين، وتُقدُّم تأملاتهم في الأزمات البنيوية، التي لم تخضع لامتحان التحققات التاريخية، باعتبارها مسوّدات أو فرضيات، لم يغمرها الماضي القريب إلا جزئيا، وإلى حدود 1929، بل وإلى حدود سبعينات [8] القرن الماضي في أقصى الحالات. ومع ذلك فهي تشكل مدخلا مفيدا إلى تاريخ المدّة الطويلة. إنها مفتاح أوّل.

(7) «مسوّدة لحركة الأثمنة والمداخيل بفرنسا خلال القرن الثامن عشر». مجلدان، باريس، دالوز، 1933.

(8) ثمة بيان توضيحي صدر عن روني كليمان (René Clemens) عنوانه: «مقدمة لنظرية في البنية الاقتصادية»، باريس، دوما - مونكريتيان، 1952 - وانظر كذلك يوهان أكرمان (J.Akerman)، «الدورة والبنية»، المجلة الاقتصادية، 1952، عدد 1.

- المفتاح الثاني، المفتاح الأفيد، فهو كلمة بنية. وسواء أكانت هذه الكلمة صالحة أم غير صالحة، فإنها تهيمن على مشاكل المدة الطويلة. ويقصد الملاحظون الاجتماعيون [بكلمة] بنية تنظيما وانسجاما [يغلّفان] العلاقات بين الوقائع والجماهير الاجتماعية، وهي علاقات بها ما يكفي من الثبات. أما بالنسبة لنا، نحن المؤرخين، فما البنية سوى تجميع ومعمار، دون ريب، بل هي، وأكثر من ذلك، واقع يستعمله الزمان استعمالا سيّئا، وينقله خلال مدة زمنية طويلة جدّا. ولكونها تعمّر طويلا، فإن بعض البنيات تصبح عناصر قارّة لعدد لا يحصى من الأجيال: فهي تزحم التاريخ وتعرقل انسيابه، وبالتالي، تتحكم في هذا الانسياب. وثمة [بنيات] أخرى يصيبها التفتّت بسرعة أكبر. ولكنها جميعا أعمدة وعراقيل في آن معا. فباعتبارها عراقيل، تُعلَم بكونها حدودا (أو أطواقا (enveloppes) بالمعنى الرياضي) لا يمكن للانسان وتجاربه الانعتاق منها أبدا. فلنتفكر في الصعوبة [التي تعترض] تحطيم بعض الأطر الجغرافية، والوقائع البيولوجية، وبعض حدود الانتاجية، بل وحتى هذه المتطلبات العقلية أو تلك: فالأطر الذهنية [تشكل] كذلك سجونا للمدة الطويلة.

ويبدو أن أقرب مثال يمكننا تناوله، [هنا] أيضا، هو الإكراه الجغرافي. فالانسان، ومنذ قرون، سجين المناخات والنباتات، سجين حيوانات تساكنه وزراعات، وتوازن شيّد ببطء، توازن لا يمكنه الابتعاد عنه دون أن يعيد النظر في كل شيء. فلننظر إلى موقع الانتجاع من الحياة الجبلية واستمرار بعض القطاعات من الحياة البحرية، المنغرسة في تلك النقط الممتازة من التمفصلات الساحلية، ولننظر إلى انغراس المدن المستديم، واستمرار الطرق والتنقلات، [بل] وثبات الاطار الجغرافي للحضارات ثباتا يثير العجب.

[وإننا لنلاحظ] نفس الاستمرارات أو المخلّفات ضمن الميدان الثقافي الشاسع. و[ما] الكتاب الرائع، الذي أصدره إرنست روبيرت كورتيوس [9] (E. R. Curtius)، والذي ظهرت له مؤخرا ترجمة فرنسية،

(9) ارنست روبيرت كورتيوس (E. R. Curtius): «الأدب الأوروبي والقرون الوسطى اللاتينية» بيرن، 1948، الترجمة الفرنسية: منشورات فرنسا الجامعية، باريس 1956.

[سوى] دراسة لنسق ثقافي يمدّد. الحضارة اللاتينية للأمبراطورية المتأخرة مع تشويهها نظرا للخيارات [المتبعة]، وهي حضارة ينيخ عليها بكلكله ميراث ثقيل: فإلى حدود القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وحتى ميلاد الآداب الوطنية، عاشت حضارة النّخب المثقّفة على نفس الموضوعات، ونفس التشبيهات، نفس الموضوعات المطروقة والأغنيات المكرورة. وضمن خط فكري مماثل، ثابرت دراسة لوسيان فيڤر (Lucien Febvre) «رابلي ومشكل الكفر في القرن السادس عشر »[10] على تدقيق أدوات الفكر الفرنسي الذهنية في عصر رابلي (Rabelais)، أي تلك المجموعات من التصوّرات التي حكمت، قبل رابلي بكثير، وبعده بمدة طويلة، فنون العيش والفكر والاعتقاد، ووضعت، مقدما، حدودا قاسية أمام المغامرة الفكرية التي عاشتها أكثر العقول تحرّرا. [أما] الموضوع الذي يتناوله ألفونس ديبرون (A. Dupront)[11] فيقدم نفسه أيضا باعتباره واحدة من أحدث الدراسات التي أنجزتها المدرسة التاريخية الفرنسية. لقد تم تناول فكرة الحرب الصليبية في الغرب، ضمنها، فيما وراء القرن الرابع عشر، أي فيما وراء الحرب الصليبية «الحقيقية»، وفي إطار استمرارية موقف طويل الأمد يخترق، في تكرار لا نهاية له، أكثر المجتمعات والعوالم والنفسيات تنوّعا، ويمس رجال القرن التاسع عشر ببريق أخير. [كما] أن كتاب بيير فرانكاستل (P. Francastel)، «الرسم والمجتمع»[12]، يشير، في مجال لايزال قريبا، وانطلاقا من بدايات النهضة التي عرفتها فلورنسا، إلى استمرار فضاء رسمي «هندسي» لن يتغيّر إلى حين ظهور التكعيبية والرسم العقلي اللذين عرفتهما بدايات قرننا. [أما] تاريخ العلوم، فلقد عرف، هو الآخر أيضا، أكوانا مشيدة [تقدم] تفسيرات ناقصة متعدّدة، ولكنها تحظى بمدة تشمل قرونا، وذلك بصورة منتظمة. ولم يتم التخلّي عن [هذه الأكوان] إلا بعد أن جرى استعمالها خلال مدة طويلة. إن

---

(10) باريس، ألبان ميشال، 1943، الطبعة الثالثة، 1969.

(11) «أسطورة الحروب الصليبية - مقالة في السوسيولوجيا الدينية» أطروحة مضروبة على الآلة الكاتبة، السوربون.

(12) بيير فرانكستل (P. Francastel): «الرسم والمجتمع: ميلاد فضاء تشكيلي وتحطيمه، من النهضة إلى التكعيبية» ليون، أودان، 1951.

الكـون الأرسـطي يستمرّ، أو يكاد، دون معارضة، إلى غاليلي وديكارت، ونيـوتن. وسيمّحي، حينئـذ، أمـام كون مهنـدَس هندسة عميقة سينهار، بدوره، ولكن في زمن متأخر لاحق، أمام ثورات أينشتاين [13].

وتكمن الصعوبـة، بصـورة مفـارقـة مفـارَقـة ظاهـرية فحسب، في استشفاف المدة الطويلة ضمن ميدان أحرزَ فيه البحث التاريخي على نجاحات لا تنكـر: ألا وهـو الميدان الاقتصـادي. فالدورات والبيدورات، والأزمات البنيوية تخفي هنا انتظامات أنساق [معينة] واستمراراتها، وقد تحدّث بعضهم عن حضـارات [14] [معينـة] ـ أي انتـظامـات واستمرارات بعض العادات القديمة في التفكير والسلوك، والأطر المستعصية التي تقاوم الموت، ضد كل منطق أحيانا.

ولكن فلنُعمل عقلنا على مثال نحلّله بسرعة. ها هو ذا، قربنا، وفي إطـار أوروبا، نسق اقتصادي يدخل ضمن بعض السطور والقواعد العامة الواضحة بها يكفي: لقد حافظ على نفس الموقع تقريبا منذ القرن الرابع عشر إلى القـرن الثامن عشر، ولنقل لكي نطمئن أكثر، إلى حوالي سنة 1750، لنكسب أمانا أكبر. فخلال قرون اعتمد النشاط الاقتصادي على سكان ذوي هشـاشـة ديمـوغـرافية، كما ستظهر ذلك الانحسارات الكبيرة التي شهدتها سنوات 1350 ـ 1450 و1630 ـ 1730 [15] دون شك. وخلال قرون،

(13) هناك حجج أخرى: وسأشير طواعية إلى المقالات القوية التي تسير في نفس الاتجاه، مثل مقالة أوطو برونير (Otto Brunner) عن تاريخ أوروبا الأجتماعي ضمن «المجلة التاريخية»، المجلد 177، العدد 3، (Historisthe Zeitschrift, t 177, n° 3) ومقالة ر. بولتمان (R. Bultmann)، نفس المجلة المجلد 176، العدد 1، حول النزعة الإنسـانية، ومقالة جورج لوفيڤر (G. Lefebvre) ضمن «الحوليات التاريخية للثورة الفرنسية»، 1949، العدد 114، (Annales historiques de la Révolution française) ومقالة ف. هارتونغ، «المجلة التاريخية»، المجلد 180، عدد 1، (F Hartung, Historische Zeitscrift t. 180, n 1) حول الاستبداد المتنوّر..

(14) روني كورتان (R.Courtin) «حضارة البرازيل الاقتصادية»، باريس، مكتبة ميديسي 1941.

(15) هذا في الزمن الفرنسي. أما في إسبانيا فيسجل الانحسار الديموغرافي منذ نهاية القرن السادس عشر.

شهد التنقل (circulation) انتصار الماء والسفينة، حيث كانت كل كثافة قارّية عرقلة ونقصا. إن الازدهارات الأوروبية، ماعدا الاستثناءات التي تؤكد القاعدة (معارض شمبانيا (Champagne) التي كانت في مرحلة النكوص في بداية الفترة، أو معارض لايبزغ (Leipzig) في القرن الثامن عشر)، إن هذه الازدهارات تقع جميعها على طول الأشرطة الساحلية. وثمة خصائص أخرى تدخل في هذا النسق: أسبقية التجّار؛ دور المعادن الثمينة البارز، الذهب والفضة، بل وحتى النحاس، الذي لن يُلطِّف اهتزازاته، وفي أحسن تقدير، إلا التطور الحاسم للقرض، في أواخر القرن السادس عشر؛ اللسعات المتكررة التي شنّتها الأزمات الزراعية الموسمية؛ هشاشة ما قد نسمّيه الأرضية نفسها للحياة الاقتصادية؛ وأخيرا، الدّور الذي يبدو متفاوتا لأول وهلة، والذي كانت تحظى به تجارتان خارجيتان كبيرتان: وهما تجارة المشرق من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، والتجارة الاستعمارية خلال القرن الثامن عشر.

هكذا حدّدتُ، أو بالأحرى استرجعت بدوري، وبعد باحثين آخرين، الملامح الرئيسية للرأسمالية التجارية بالنسبة لأوروبا الغربية، وهي مرحلة تنتمي إلى المدّة الطويلة. ورغم جميع التغيّرات الواضحة التي تخترقها، فإن هذه القرون الأربعة أو الخمسة من الحياة الاقتصادية قد عرفت تماسكا معينا، إلى حدود انقلاب القرن الثامن عشر والثورة الصناعية التي لم نخرج منها بعد. فثمة ملامح مشتركة بينها، ملامح ظلت ثابتة بينما كانت ألف قطيعة وانقلاب حولها، ومن بين استمراريات أخرى، تجدّد وجه العالم.

* * *

هكذا تظهر لنا المدة الطويلة، من بين أزمنة التاريخ المختلفة، وكأنها شخصية مزعجة، معقّدة، لم يسبق لنا مصادفتها في غالب الأحيان. [ومن ثم]، فإن قبولها في صميم مهنتنا لن يكون لعبة بسيطة، أي ذلك التوسيع المعتاد للدراسات والفضولات. كما أن الأمر لن يتعلق أيضا بخيار تكون وحدها المستفيدة منه. إن قبول [المدة الطويلة] معناه، بالنسبة للمؤرخ، أن يرتضي تغيير أسلوبه واتجاهه، ويقبل بقلب فكره ويتبنّى تصوّرا جديدا

للاجتماعي، ومعناه التعوّد على زمن جرى إبطاؤه، [زمن ينساب] في حدود المتحرِّك. وفي هذا الطابق، لا في غيره - وهذا ما سأعود إليه - يصبح من المشروع لنا أن نتخلّى عن الزمن المتشدّد للتاريخ، ونخرج منه، ثم نعود إله، وإنما بعيون أخرى، محملة بهموم أخرى، وأسئلة أخرى. وعلى أية حال، بإمكاننا إعادة التفكير في كلية التاريخ، بالنسبة إلى هذه الطبقات من التاريخ البطيء، باعتبارها بنية تحتية. ويمكن لنا فهم هذه الطوابق كلها، هذه الآلاف من الطوابق، وهذه الآلاف المؤلفة من التشظّيات [التي خضع لها] زمن التاريخ، انطلاقا من هذا العمق، ومن شبه الجمود، هذا، فكل شيء يدور حوله.

* * *

لا أدّعي تحديد مهنة المؤرخ، من خلال السطور السابقة، وإنما [أحدّد] تصوراً [معيّنا]، لهذه المهنة. فما أسعد، وما أسذج، ذاك الذي يظن، بعد زوابع السنوات الأخيرة، أننا عثرنا على المبادىء الحقة، والحدود الواضحة، والمدرسة الجيدة. والواقع أن مهن العلوم الاجتماعية جميعها لا تكفّ عن التحوّل بسبب الحركات الخاصة بها والحركة السريعة التي تلف المجموع. ولا يشكل التاريخ استثناءا. ومن ثم، لا نتوقع طمأنينة قريبة، كما أن ساعة المريدين لم تدق بعد. [حقا]، ثمة بون شاسع بين شارل فكتور لانغلوا (Ch. V. Langlois) وشارل سنيوبوس (Ch. Seignobos) وبين مارك بلوك (M. Bloch). ولكن منذ مارك بلوك لم تتوقف العجلة عن الدوران. أما بالنسبة لي، فإن التاريخ هو مجموع التواريخ الممكنة - أي مجموعة من المهن ووجهات النظر المنتمية إلى الأمس واليوم والغد.

إن الخطأ الوحيد، في رأيي، يكمن في اختيارنا لأحد هذه التواريخ دون سواه. وكان هذا، وقد يكون [مستقبلا]، هو الخطأ التاريخاني. وإنا لنعلم أنه لن يكون من اليسير إقناع المؤرخين بذلك، بل، وأقل منهم، العلوم الاجتماعية المتشبثة بإعادتنا إلى التاريخ كما كان بالأمس. وسيلزمنا كثير من الوقت والجهد حتى يتم قبول هذه التغييرات والتجديدات تحت الاسم القديم للتاريخ. ومع ذلك، ها قد ولد «علم» تاريخي جديد، علم لا يزال يتساءل ويتغير. ولقد

أعلن عن نفسه، عندنا [بفرنسا]، من خلال «مجلة التوليف التاريخي Revue de synthèse historique» منذ 1900، ومن خلال «الحوليات» (Annales) انطلاقا من 1929. إن المؤرخ قد قرّر الاصغاء إلى جميع علوم الانسان. وهذا ما يعطي مهتنا حدودا غريبة وفضولات غريبة. ومن ثم، لا ينبغي لنا تخيّل حواجز الأمس واختلافاته بين المؤرخ وملاحظ العلوم الاجتماعية. فثمة عدوى تسري ما بين علوم الانسان جميعها، بما فيها التاريخ. إنها تتكلم نفس اللغة أو بإمكانها التكلم بها.

وسواء كنا في سنة 1558 أو في سنة 1958، فإن الأمر يتعلّق، بالنسبة لمن يريد أن يمسك [بسيرورة] العالم، بتحديد تراتب للقوى والتيارات والحركات الخاصة، ثم إعادة إمساكه بمجموع الكوكبة. وينبغي، خلال كل لحظة من لحظات هذا البحث، أن نميّز ما بين الحركات الطويلة والدفعات القصيرة، حيث يجري تناول هذه الأخيرة من منابعها المباشرة، وتناول الأولى في اندفاع زمن بعيد. إن العالم، الذي كان كثيبا جدا في الزمن الفرنسي سنة 1558، لم يولد على عتبة هذه السنة الخالية من المفاتن. وكذلك الشأن بالنسبة إلى سنتنا 1958 الصعبة، في الزمن الفرنسي دائما. فكل «راهنية» تجمع حركاتٍ أصلُها وإيقاعُها مختلفان: إن زمن اليوم يرجع، في نفس الوقت، إلى أمس وأوّل أمس وقديم الزمان.

## - 2 -

## معركة الزمن القصير

هذه حقائق مبتذلة حقا. إلا أن العلوم الاجتماعية لا يستهويها البحث عن الزمن الضائع. وذلك لا لأنه بإمكاننا أن نرفع في وجهها اتهاما حازما وندينها دائما [بدعوى] أنها لا تقبل التاريخ أو المدة باعتبارهما بعدين ضروريين لدراساتها. بل هي تستقبلنا، ظاهريا، بحفاوة. فالفحص «التعاقبي» الذي يعيد إدخال التاريخ لا يغيب قط عن همومها النظرية.

إلا أنه ينبغي لنا، إذا ما نحّينا هذه الموافقات جانبا، أن نتّفق على أن العلوم الاجتماعية تميل دائما، بدافع الذوق والغريزة العميقة، بل وربما بدافع التشكل، إلى أن تفلت من التفسير التاريخي. إنها تفلت منه عبر مسارين شبه متعارضين: حيث «يضفي» الأول «الطابع الوقائعي»، أو، إذا كنا نفضّل، «يحيِّن» الدراسات الاجتماعية بصورة مفرطة، بفضل علم اجتماع تجريبي يحتقر كل تاريخ، ويقتصر على معطيات الزمن القصير، والبحث [في الواقع] الحي؛ ويتجاوز الثاني الزمنَ بلا قيد ولا شرط بتخيّله لصياغة (formulation) رياضية [تضم] بنيات شبه أبدية تكون في نهاية «علم للتواصل». وبالطبع، فإن هذا المسار الأخير، وهو أكثر المسارات جدّة، هو الكفيل وحده بإثارة اهتمامنا إثارة عميقة، إلا أن الوقائعي لا يزال يتوفّر على ما يكفي من الأنصار، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن وجهي المسألة يستحقان التمحيص بالتناوب.

سبق لنا أن عبّرنا عن حذرنا تجاه تاريخ وقائعي محض: ولنكن عادلين: إن كان ثمة ذنب وقائعي ما، فإن التاريخ، المتهم باتباع [هذا النهج]، ليس المذنب الوحيد. بل إن العلوم الاجتماعية تشارك جميعها في هذا الخطأ ويتوزع الاقتصاديون والديموغرافيون والجغرافيون بين الأمس واليوم (ولكنهم سيئو التوزع). وليكونوا حكماء ينبغي لهم أن يعدلوا في تصرّفهم. وهو الأمر الهيّن والاجباري بالنسبة للديموغرافي، والمفروغ منه تقريبا بالنسبة للجغرافيين (وخصوصا جغرافيينا المتشبِّعين بالتقليد الفيدالي)، ولكن هذا الأمر لا يحصل إلا نادرا، وعكس ذلك، بالنسبة للاقتصاديين، الذين تسجنهم أقصر راهنية بين حدّ خلفي لا يتجاوز سنة 1945 قط، ووقت حاضر تمدده المخططات والتوقّعات ببعض الشهور داخل المستقبل القريب، وببعض السنوات في أحسن تقدير. وأصرّ عى أن هذا القيد الزمني يقيِّد الفكر الاقتصادي برمّته. ويقول الاقتصاديون إن على المؤرخين الذهاب إلى ما وراء 1945 بحثا عن الاقتصادات القديمة. ولكنهم يحرمون أنفسهم، بفعلهم ذاك، من حقل عظيم للملاحظة، هجروه هم أنفسهم دون إنكار قيمته مع ذلك. لقد تعوّد لاقتصادي على الجري في خدمة الراهن، والحكومات.

أما وضعية الاثنوغرافيين والإثنولوجيين فليست بهذا الوضوح ولا تثير نفس القلق. لقد شدّد بعضهم جيدا على استحالة (ولكن كل مثقف مشدود إلى المستحيل) التـاريخ ولا جدواه ضمن مهنتهم. [إلاّ] أن هذا الـرفض السلطوي للتـاريخ لم ينفـع مالينـوفسكي (Malinowski) ولا تلامذته قط. والـواقـع، كيف يمكن للانثـروبولوجيا أن تدير ظهرها للتاريخ؟ فهو نفس المغـامرة [التي يعيشها] العقل، كما يحلو لليڤي ستروس [16] قول ذلك. ولا وجود لمجتمع، مهما تكن خشونته، لا تكشف الملاحظة، ضمنه، عن «مخالب الحدث»، كما أنه لا وجود لمجتمع لم يتعرض تاريخه للغرق كلية. ومن هذا الجانب، قد يكون تشكّينا أو إلحاحنا مجانبين للصواب.

وسيكون خصامنا، عكس ذلك، شديدا بما يكفي، في حدود الزمن القصير، مع علم الاجتماع الذي يهمّ أبحاثا عن الحاضر، أي الأبحاث ذات الاتجاهات الألف التي تتموقع ما بين علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد. وهي أبحاث تترى عندنا وخارج البلاد. إنها رهان متكرر، بطريقتها الخاصّة، على قيمـة الـزمن الحـاضر التي لا تعـوّض، وعلى حرارته «البركانية» وثروته الغزيرة. ولِمَ التلفّت نحو زمن التاريخ: وهو زمن مفقَر، مبسّط، عاث فيه الصمت فسادا، زمن أعيد بناؤه ـ ولنلحّ جيدا على: إعادة البناء. وهل بلغ حقا تلك الدرجة من الموت وإعادة البناء التي يزعمون [أنه بلغها]؟ ومما لاشك فيه أن المؤرخ يجد سهولة مفرطة في إبراز الجوهري ضمن عصر غابر. وإذا تكلمنا بطريقة هنري بيرين (H. Pirenne)، قلنا إنه يميز، دون صعوبة تذكر، «أحداثه الهامة»، ولنفهم أنها الأحداث «التي ترتبت عنها نتائج ما». وذلك تبـسيط واضح وخطير. ولكن لماذا قد يضحي مسافر الراهن، يا ترى، مقابل الحصول على هذا التراجع (أو هذا التقدم في الزمن) الذي يعرّي ويبـسّط الحياة الراهنة، المضطربة، التي لا تقبل القراءة إلا قليلا، لكونها مثقلة بالايماءات والعلامات الصغرى؟ ويزعم كلود ليڤي ستروس أن ساعة من النقاش بينه وبين معاصر لأفلاطون قد تعطيه معلومات، أكثر من خطاباتنا الكلاسيكية، حول انسجـام حضارة اليونان القديمة أو لانسجامها [17]. وأنا متّفق معه.

(16) كلود ليڤي ستروس: «الانثروبولوجيا البنائية»، ص 31.
(17) «ديوجين المضطجع»، الأزمنة الحديثة، عدد 195، ص 17.

ولكن السبب هو أنه سمع، وخلال سنوات، مائة صوت يوناني تم إنقاذه من الصمت. لقد مهّد له المؤرخ الرحيل. أما ساعة يقضيها في يونان اليوم فلن تفيده في شيء، أو لا شيء تقريبا، حول انسجامات [اللحظة] الراهنة أو لا انسجاماتها.

بل وأكثر من ذلك، إن الباحث في الزمن الحاضر لا يصل إلى الحبكات «الدقيقة» للبنيات إلا على شرط أن يعيد البناء، هو أيضا، ويتقدم بفرضيات وتفسيرات، ويرفض الواقعي كما يدركه الناس، ويبتره، ويتجاوزه، وهي كلها عمليات تتيح له الإفلات من المعطى قصد السيطرة عليه سيطرة أفضل. ولكنها كلها، إعادات للبناء. وإني لأرتاب في أن تكون الصورة الفوتوغرافية السوسيولوجية التي تصور الحاضر «أصدق» من لوحة الماضي التاريخية، بل ستكون أقل صدقا كلما أرادت الابتعاد عن المعاد بناؤه ابتعادا أكبر.

ولقد ألحّ فيليب آرييس [18] (Ph. Ariès) على أهمية الاغتراب، والمفاجأة في التفسير التاريخي: فأنت تتعثر، في القرن السادس عشر، بغرابة، [أو] هي غرابة بالنسبة إليك أنت رجل القرن العشرين. فلماذا هذا الاختلاف؟ إن المشكل مطروح. ولكنني سأقول إن المفاجأة، والاغتراب والتباعد، وهي الوسائل الكبرى للمعرفة، لا تقل ضرورة، [بالنسبة إليك]، لمعرفة ما يحيط بك إحاطة قريبة جدا لدرجة أنك لم تعد تراه بجلاء. فلتعش سنة بلندن، وستكون معرفتك بإنجلترا سيئة جدا. ولكنك ستفهم فجأة، عن طريق المقارنة، وعلى ضوء استغراباتك، بعضا من ملامح فرنسا الأكثر عمقا وأصالة، وهي الملامح التي لم تكن تعرفها لفرط معرفتك بها. ومن ثم، فإن الماضي، في مواجهة الراهن، هو اغتراب أيضا.

والنتيجة هي أن باستطاعة المؤرخين وعلماء المجتمع (social Scientists) أن يتبادلوا الاتهامات تبادلا دائما حول الوثيقة الميّتة والشهادة الحيّة حياة مفرطة، وحول الماضي البعيد والراهن القريب قربا مفرطا. ولا أعتقد أن هذا المشكل جوهري. [ذلك] أن الحاضر والماضي يضيء كلاهما الآخر بنورهما المتبادل. فإن اقتصرنا على ملاحظة الراهن ملاحظة لصيقه به، ذهب انتباهنا نحو ما

(18) «زمن التاريخ»، باريس، بلون، 1954، خصوصا ص 298 وبعدها.

يتحـرك بسرعـة، أو يشـعّ عن حق أو باطل، أو ما تغيّر لتوّه، أو ما يحدث ضجيجا أو يكشف نفسه بدون صعوبة تذكر. فثمة حدث وقائعي، حدث ينفّرنا بقدر ما ينفرنا حدث العلوم التاريخية، يتربّص بالملاحظ المتعجّل، [أي] بالاثنوغـرافي الذي يضرب موعدا لشعب بولينيزي مدته ثلاثة أشهر، وعالم الاجتماع الصناعي الذي يسلمنا العبارات المكرورة الواردة في آخر بحث من أبحاثه، أو يعتقد، عبر استمارات بارعة وتركيبات بطاقاته المثقوبة، أنه أحاط بإوالية اجتماعية [معينة] إحاطة شاملة. إلا أن الاجتماعي صيد شديد المكر.

وفي الحقيقـة، ما المصلحـة التي يمكننـا جنيهـا، نحن [ممثلي] علوم الانسـان، من التنقلات، التي يتحدث عنها بحث كبير وجيّد أنجز حول منطقة باريس [19]، أي من تنقـلات فتـاة بين منـزلها، الواقع في الدائرة السـادسة عشرة، وأستاذها في الموسيقى والعلوم السياسية؟ إننا نحصل، من ذلك، على خريطة جميلة. ولو أنها كانت تدرس بالمعهد الزراعي، أو أنها تمارس التزلّج على الماء، لتغيرت رحلاتها المثلثية تغيرا تاما. وإنني لأفرح عندما أرى، على خريطةٍ، توزيعَ المساكن الخاصة بموظفي مؤسسة كبيرة. ولكن إذا لم تكن لدي خريطة سابقـة تتنـاول التـوزيع، وإذا لم تكن المسـافة الزمنية الفاصلة بين البيانـات غير كافية ليتسنى لنـا تسجيل الكـل ضمن حركـة حقيقية، فأين المشكل الذي سيظل البحث بدونه سعيا خائبا؟ إن أهمية هذه الأبحاث التي لا تتغيّى سوى البحث هي أنها في أحسن الأحوال، تُراكِم المعلومات. مع العلم أنها لن تكـون جميعها، ومن تلقاء نفسـها، صالحة لأعمال مستقبلية. فلنحذر من الفن لأجل الفن.

وبـالمثل، إنني أشك في أن دراسة تتناول مدينة، كائنة ما كانت هذه المدينـة، قد تكـون موضـوعـا لبحث سوسيولـوجي كما هو الحـال بالنسبـة لأوسير [20] (Auxerre)، أو فيينا (Vienne) في منطقة دوفيني [21] (Dauphiné)،

(19) ب. شامبار دي لو (P. Chombart de Lauwe) «باريس وضواحيها»، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1952، المجلد الأول، ص 106.

(20) سوزان فرير وشـارل بتلهايم (S. Frère et Ch. Bettelheim) : «مدينة فرنسية متوسطة، أوسير سنة 1950»، باريس، ارمان كولان، دفاتر العلوم السياسية، عدد 17، 1951.

دون أن تدخل في المدة التاريخية. ينبغي إعادة موقعة كل مدينة، [ذلك] المجتمع المتوتر بأزماته وقطائعه، تعطلاته وحسابات الضرورية، داخل مركّب البوادي القريبة التي تحيط بها، وموقعها أيضا داخل الأرخبيلات التي تشكّلها المدن المجاورة والتي كان ريشار هيبكه (R. Häpke) من بين الأوائل الذين تكلموا عنها، وينبغي، من ثم، موقعتها، داخل الحركة التي تدفع هذا المركب، وهي الحركة البعيدة، بهذا القدر أو ذاك ضمن الزمن، بل والبعيدة جدا في غالب الأحيان. وعندما نسجّل ذلك التبادل الحاصل بين البادية والمدينة، وذلك التنافس الصناعي أو السلعي، ألا يهمّنا، بل أليس جوهريا، عكس ذلك، أن نعرف أن الأمر يتعلق بحركة شابة في أوج انطلاقها، أو في نهاية مطافها، أو يتعلق بانبعاث بعيد أو استئناف رتيب؟.

ولنعط خلاصاتنا في كلمة: لقد كان لوسيان فيفر يردّد، خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته: «التاريخ علم الماضي وعلم الحاضر». أليس التاريخ، وهو جدل المدّة، وبطريقته الخاصة، تفسير الاجتماعي ضمن واقعه بأكمله؟ وبالتالي، تفسير الراهن؟ حيث يشكل الدرس [المستخلص منه]، وفي هذا الميدان، تحذيرا ضد الحدث: فلا ينبغي لنا التفكير ضمن الزمن القصير وحده، ولا ينبغي لنا أن نعتقد أن الفاعلين الذين يحدثون الضجيج هم وحدهم أكثر الفاعلين أحقية، بل ثمة آخرون صامتون ـ ولكن من منا كان يجهل ذلك؟

ـ 3 ـ

## التواصل والرياضيات الاجتماعية

لعلنا كنا على خطإ عندما ركّزنا على الحدود المضطربة للزمن القصير. والحقيقة أن النقاش يدور هناك دون كبير فائدة، أو يدور، على الأقل، دون مفاجأة مفيدة. أما النقاش الجوهري فيدور في موقع آخر، في صفوف جيراننا

(21) بيير كليمان ونللي كسياديس (P. Clément et Nelly Xyadis): «فيينا ـ على ـ الرون، سوسيولوجيا مدينة فرنسية»، باريس، أرمان كولان، دفاتر العلوم السياسية، عدد 71، 1955.

الذين أخذتهم أجدّ تجربة ضمن العلوم الاجتماعية، وتحت العلامة المزدوجة التي تضمّ «التداول» والرياضيات.

ولكن الدفاع عن ملفنا لن يتيسّر هنا، وأعني أنه لن يكون من السهل علينا البرهنة على أن ما من دراسة اجتماعية تفلت من زمن التاريخ، وذلك عندما يتعلق الأمر بمحاولات تتموقع، في الظاهر على الأقل، خارج هذا الزمن بصورة مطلقة.

وعلى أية حال، فإن القارىء سيحسن صنعا، خلال هذا النقاش، وإذا ما أراد تتّبعنا (لموافقتنا أو الاختلاف مع وجهة نظرنا)، لو أنه يزن بدوره، وبالتناوب، مصطلحات ليست جديدة كل الجدّة، حقا، ولكنها أعيد تناولها، وأعيد لها الشباب من خلال نقاشات جديدة لاتزال تجري أمام أعيننا. وبالطبع، لا مأخذ [لنا] على الحدث أو المدّة الطويلة. ولا شيء ذا أهمية كبيرة فيما يتعلّق بالبنيات، رغم أن هذه اللفظة ـ والشيء ليست بمأمن عن الشكوك والنقاشات [22]. ولا فائدة كذلك من إلحاحنا إلحاحا شديدا على لفظتي التزامن والتعاقب، فهما يحدّدان نفسهما تلقائيا رغم أن الاحاطة بدورهما، ضمن دراسة ملموسة تتناول الاجتماعي، أصعب مما يبدو. وبالفعل، لايمكن أن يوجد قط تزامن تام، ضمن لغة التاريخ (كما أتصورها): إن توقفا لحظيا، يعلّق جميع المدد، لا معقول في حد ذاته تقريبا، أو هو، والأمران سيان، أمر مصطنع جدا. كما أننا لا يمكننا التفكير في هبوط يتبع منحدر الزمان إلا في شكل وفرة من الهبوطات تتبع أنهار الزمان المتنوعة التي لا تحصى.

وستكفينا هذه التذكيرات الوجيزة والتحذيرات في هذه اللحظة. ولكننا مضطرون إلى الافصاح أكثر فيما يتعلق بالتاريخ اللاواعي، والنماذج والرياضيات الاجتماعية. علاوة على ذلك، ستنضم هذه التعاليق الضرورية إلى بعضها البعض، أو، وهذا ما أتمناه، لن تتخلف عن ذلك، في إطار إشكالية مشتركة بين العلوم الاجتماعية.

(22) انظر الندوة حول البنيات، القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، ملخص مضروب على الآلة الكاتبة، 1958.

وبالطبع، فالتاريخ اللاواعي هو تاريخ الأشكال اللاواعية للاجتماعي. «إن البشر يصنعون التاريخ، ولكنهم يجهلون ذلك»[23]. هذه الصّيغة الصادرة عن ماركس تنير المشكل ولكنها لا تفسره. والواقع مرة أخرى أنه كل المشكل الخاص بالزمن القصير، أو «الزمن الصغري» أو الوقائعي الذي يطرح نفسه مجددا علينا، ولكنه يطرح نفسه تحت اسم جديد. إن الناس يظنون دائما أنهم، خلال عيشهم لزمانهم، يمسكون بانسيابه يوما بيوم. فهل يكون هذا التاريخ الواعي والواضح مفرطا كما سبق لكثير من المؤرخين أن اتفقوا على ذلك، ومنذ مدة طويلة؟ لقد كانت اللسانيات تعتقد، بالأمس، أنها قادرة على استخراج كل شيء من الكلمات. أما التاريخ فقد توهّم أنه قادر على أن يستخرج كل شيء من الأحداث. وقد يميل أكثر من معاصر لنا إلى الاعتقاد بأن كل شيء ناتج عن اتفاقيات يالطا أو بوتسدام، أو عن حوادث ديان بيان فو أو ساقية سيدي يوسف، بل نتج عن ذلك الحدث الآخر، الذي يفوق، في الحقيقة، الأحداث الأخرى أهمية، إطلاق السبوتنيكات. [إلا] أن التاريخ اللاواعي ينساب وراء هذه الأضواء وومضاتها. ومن ثم، ينبغي التسليم بأنه يوجد، وعلى مسافة معينة، لاوعي اجتماعي، بل وينبغي التسليم، علاوة على ذلك، وفي انتظار ما هو أفضل، بأن هذا اللاوعي يعتبر أغنى، من الناحية العلمية، من السطح اللامع الذي تعوّدت عليه عيوننا، وأغنى من الناحية العلمية معناه أن استغلاله أبسط وأيسر، إن لم يكن اكتشافه كذلك. إلا أن الفصل بين السطح الواضح والأعماق المظلمة - بين الصخب والصمت - عسير وصدفوي. ولنضف أن التاريخ «اللاواعي»، وهو مجال يقع في منتصف الطريق بين الزمن الظرفي والزمن البنيوي، بدون منازع، غالبا ما يدرك إدراكا أوضح مما يتم التصريح به. فكلنا نشعر، وراء حياتنا الخاصة، بوجود تاريخ جماهيري، نتعرف على قوته ودفعاته في الحقيقة أكثر مما نتعرّف على قوانينه واتجاهه. وهذا الوعي لا يعود إلى الأمس فقط (فيما يتعلق بالتاريخ الاقتصادي مثلا)، رغم أن حدّته أخذت، اليوم، تكبر شيئا فشيئا. وتكمن هذه الثورة، ذلك أنها ثورة عقلية، في مجابهة نصف هذه العتمة رأسا، وإفساح مكان لها، مكان آخذ في الاتساع، جنب الوقائعي، بل وعلى حسابه.

(23) ذكره كلود ليفي ستروس في «الانثربولوجيا البنائية»، ن. م. ص 30 - 31.

ومن هذا التنقيب الذي لا يوجَدُ التاريخ فيه وحيدا (بل بالعكس، إنه لم يفعل سوى السير وراء وجهات النظر [النابعة من] العلوم الاجتماعية الجديدة في هذا الميدان، وتكييفها قط قصد استعمالها) تمّ بناء أدوات جديدة للمعرفة والبحث: هكذا، تم بناء النماذج، ذات الصنع المتقن بهذا القدر أو ذاك، بل هي نماذج لاتزال حرفية في بعض الأحيان. وليست النماذج سوى فرضيات وأنساق تفسيرية ترتبط ارتباطا متينا حسب شكل المعادلة أو الدالة: أي هذا يساوي ذاك، أو يحدّده. ولن يظهر هذا الواقع دون أن يرافقه ذاك الآخر، وتتكشف علاقات متينة وقارة تربط بينهما. إن النموذج الذي تم بناؤه بحرص سيسمح لنا، ومن ثم، بإقحام أوساط اجتماعية أخرى، من نفس الطبيعة، خارج الوسط الاجتماعي الملاحَظ ـ الذي تم خلقه انطلاقا منه باختصار ـ وعبر الزمان والمكان. [ومن ثم]، قيمته المتواترة.

وتتغير هذه الأنساق التفسيرية إلى ما لا نهاية له، حسب مزاج مستعمليها وحسابهم وهدفهم: سواء أكانت بسيطة أم معقدة. كيفية أم كمية، سكونية أم دينامية، ميكانيكية أم إحصائية. وإنني أستعير هذا التمييز الأخير من كلود ليفي ستروس. فبوصفه ميكانيكيا، قد يكون النموذج في حجم الواقع الملاحَظ ملاحظة مباشرة، وهو واقع ذو أبعاد صغيرة لا يهمّ سوى زمر ضئيلة من الناس (هكذا يعمل الاثنولوجيون خلال دراستهم للمجتمعات البدائية). أما بالنسبة للمجتمعات الضخمة، حيث تتدخل الأعداد الكبيرة، فإن حساب الأوساط يفرض نفسه: فهي تقود إلى النماذج الاحصائية. ولكن مالنا وهذه التعاريف القابلة للنقاش أحيانا!

إن الجوهري بالنسبة لي هو أن ندقّق، قبل إقامة برنامج مشترك بين العلوم الاجتماعية، في دور النموذج وحدوده، وهو النموذج الذي قد تضخمه بعض المبادرات تضخيما مفرطا. ومن ثم، ضرورة مواجهة النماذج، هي أيضا، مع فكرة المدّة. ذلك أن دلالة هذه النماذج وقيمتها التفسيرية تعتمد، في فهمي، اعتمادا كبيرا على المدة التي تتضمّنها.

* * *

وحتى نكـون أوضـح، علينـا أن نأخـذ أمثلة من بين النـماذج التـاريخية [24]، وأعني بها النـماذج التي يصنعها المؤرخون، وهي نماذج فجة وبدائية بما يكفي، ونادرا ما تصل إلى صرامة قاعدة علمية، ولا يهمّها بتاتا أن تؤدي إلى لغة رياضية ثورية ـ إلا أنها نماذج، مع ذلك، وعلى طريقتها الخاصة.

لقد سبق لنا أن تكلمنا أعلاه عن الرأسمالية التجارية فيما بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر: ويتعلق الأمر بنموذج من بين نماذج عديدة، يمكن لنا إبرازها ضمن أعمال ماركس وهو لا ينطبق بالتمام إلا على عائلة معينة من المجتمعات، وخلال زمن معين، وإن كان يترك الباب مفتوحا أمام جميع التجريدات [الممكنة].

إلا إن الأمر يختلف تماما بالنسبة لنموذج صُغته في كتاب قديم لي [25]، [يتناول] دورة من دورات التطور الاقتصادي، لدى تعرضي للمدن الايطالية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، حيث كانت، وبالتناوب، تجارية، ثم «صناعية» فمتخصصة في تجارة الأبناك، وحيث كان هذا النشاط الأخير أبطأها في الازدهار، وأبطأها كذلك في الانّحاء. إن هذه الخطاطة ذات الحيز الأضيق، في الواقع، من بنية الرأسمالية التجارية، قد تكون قابلة، وبصورة أيسر من قابلية هذه الأخيرة، للتمديد في الزمان والمكان. وإنها لتسجل ظاهرة (قد يسميها البعض بنية دينامية، إلا أن بنيات التاريخ جميعها بنيات دينامية بصورة أولية على الأقل) قابلة للتكرار في شروط يسهل العثور عليها من جديد. ولعل هذا قد يكون أيضا شأن ذلك النموذج الذي صغناه، أنا [26] وفرانك سبونر (F. Spooner)، لدى تعرضنا لتاريخ المعادن النفيسة قبل وخلال وبعد القرن السادس عشر: فالذهب والفضة والنحاس ـ وحتى

(24) قد يكون من المغري أن نفسح مكانا لـ «نماذج» الاقتصاديين الذين حكموا تقليدنا، في الحقيقة.

(25) «البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني»، باريس، أرمان كولان، 1949، ص 264 وما بعدها.

(26) فرنان بروديل وفرانك سبونر (F. Braudel et F. Spooner): «المعادن النقدية واقتصاد القرن السادس عشر. تقارير إلى مؤتمر روما العالمي»، 1955، المجلد الرابع، ص 233 ـ 264.

القرض، هذا البديل الخفيف الحركة عن المعدن ـ كلها عناصر تدخل في لعبة هي أيضا. إن «استراتيجية» الواحد منها تضغط على «استراتيجية» الآخر. ولن يكون من الصعب نقل هذا النموذج خارج القرن السادس عشر، وهو القرن المحظوظ والمتقلب جدّا الذي اخترناه لملاحظتنا. أو لم يحاول بعض الاقتصاديين أن يتحققوا، في الحالة الخاصة بالدول المتخلفة اليوم، من النظرية النقدية الكمية القديمة، وهي النظرية التي تشكل نموذجا كذلك، ولكن بطريقتها الخاصة؟ (27).

إلا أن إمكانيات الاستمرار المتوفرة لكل هذه النماذج لاتزال قصيرة، إذا ما قورنت بإمكانيات النموذج الذي تخيّله سيغموند دايموند(28) (S. Diamond)، عالم النفس والمؤرخ الأمريكي الشاب. فلقد أثارته اللغة المزدوجة التي تستعملها طبقة كبار رجال المال الأمريكيين السائدة، الذين عاصروا بيربونت مورغان (Pierpont Morgan)، فثمة لغة داخلية [تهم] الطبقة، ولغة خارجية (وهذه، في الحقيقة، ما هي إلا مرافعة موجهة إلى الرأي العام الذي يقدّم له النجاح المالي وكأنه النصر النموذجي الذي حققه الرجل العصامي، وهو الشرط الملازم لثروة الأمة نفسها)، ورأى في هذه الازدواجية رد الفعل العادي [والملازم] لأية طبقة سائدة تشعر بأن حظوتها مهاجمة وامتيازاتها مهدّدة، ولهذا فهي مضطرة، قصد التمويه، إلى مزج مصيرها بمصير المدينة أو الأمة، ومزج مصلحتها الخاصة بالمصلحة العامة. ولدى سيغموند دايمند استعداد ليفسر، بنفس الطريقة، تطور فكرة السلالة أو الامبراطورية، السلالة الانجليزية أو الامبراطورية الرومانية... فإذا تم تصوّر النموذج بهذه الطريقة، كان قادرا، بالطبع، على تخطي القرون. إذ هو يفترض وجود بعض الشروط الاجتماعية المضبوطة، التي كان التاريخ سخيا في توفيرها: وهو، بالتالي، صالح لمدة أطول من النماذج السابقة، إلا أنه يطعن في وقائع أدق وأضيق.

(27) الكسندر شابير (A. Chabert)، «البنية الاقتصادية والنظرية النقدية»، باريس، أرمان كولان، منشورات مركز الدراسات الاقتصادية، 1956.

(28) سيغموند دايمند (S. Diamond): «سمعة رجل الأعمال الأمريكي»، كمبريدج (ماساشوستس)، 1955.

إن هذا النـوع من النماذج قد يصل، في الحدود القصوى، كما يقول الرياضيون، إلى النماذج التي يفضلها علماء الاجتماع الرياضيون، وكأنها خارج الـزمـان، أي، في الحقيقـة، نماذج تتبـع طرقـا غامضة وغير مألوفة، نماذج [خاضعة] للمدة الطويلة.

إن التفسيرات السابقة ليست سوى مدخل غير كاف إلى علم النماذج ونـظريتهـا، ولايزال المؤرخـون بعيدين عن احتلال مواقع طليعية. وليست نماذجهم سوى حزم من التفسـيرات، إلا أن زملاءنا أكثر طموحا وتقدما في أبحـاثهم، حيث يحاولـون الارتبـاط بنـظريات ولغـات الاعـلام والتواصل والرياضيات الوصفية. ويكمن فضلهم، وهو فضل كبير، في استضافتهم، ضمن ميدانهم الخـاص، لتلك اللغة النافذة، أي الرياضيات، إلا أنها قد تفلت من قبضتنا، لأدنى سهو، لتجري إلى حيث لا يعلم إلا الله ! إن الاعلام والتـواصل والرياضيات الوصفية تتجمع كلها تجمعاً جيداً تحت لواء هذه اللفظة الفضفـاضـة جدا، أي الرياضيات الاجتماعية. ومع ذلك، يبقى علينا أن نضيء قنديلنا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

* * *

إن الـرياضيات الاجتـماعية [29] تتكون من ثلاث لغات على الأقل، وبـإمكـانها أن تمتـزج، كما أنها لا تستثني متـوالية [أخرى]. فالرياضيون لا ينقصهم الخيال. وعلى أية حال، ليس ثمة علم واحد للرياضيات، أو علم الرياضيات (وإلا كان ذلك مطلبا ينادى به). «لا ينبغي لنا القول: الجبر أو الهندسة، وإنما علم واحد للجبر أو علم واحد للهندسة». (ت. غيلبو) (Th. Guilbaud)، وذلك أمر لا ييسّر مشاكلنا ولا مشاكلهم. ومن ثم، هناك ثلاث لغات: الأولى تتعلق بوقائع الضرورة (إذا ما توفرت واقعة ما، تبعتها أخرى)، وهـو ميدان الـرياضيات التقليدية. وتتعلق الثـانية بالـوقائع الاحتمالية منذ باسكـال (Pascal)، وذاك ميدان الحسـاب الاحتمالي. وتتعلق اللغة الأخيرة

(29) انظر خاصة كلود ليڤي ستروس، في: «النشرة الدولية للعلوم الاجتماعية»، منظمة اليونـسكو، المجلد السادس، العدد 4، وبصورة أعم كل ذلك العدد ذي الأهمية الكبيرة، والمعنون بـ «الرياضيات والعلوم الاجتماعية».

بالـوقـائـع المشروطـة، غير المحـدّدة أو الاحتـمالية، بل الخـاضعـة لبعض الاكـراهـات، وقـواعـد اللعب، وتدور في محور «استراتيجية» الألعاب التي أسّسـهـا فون نويـمان (Von Neumann) ومورغنشترن [30] (Morgenstern)، وهي استراتيجية ظافرة تجاوزت مبادىء مؤسّسيها وجَساراتهما. إن استراتيجية الألعاب تفتح السبيل، عبر استعمالها للمجموعات والزمر، وحتى عبر استعمالها للحساب الاحتمالي، أمام الرياضيات «الكمية». ومن ثم، لن يتم الانتقال من الملاحظة إلى الصياغة الرياضة عبر صعوبة الأقيسة والحسابات الاحصائية الطويلة. فبإمكاننا أن ننتقل مباشرة من تحليل الاجتماعي إلى صياغة رياضية ما، وقد نقول: إلى الآلة الحاسبة.

وبالطبع، علينا أن نهيء عمل هذه الآلة التي لا تلتهم ولا تسحق جميع الأغذية. علاوة على ذلك، فلقد ظهر علم الاعلام وتطوّر في علاقة مع آلات حقيقية، ومع قواعد اشتغالها بقصد التواصلات، بأكثر معاني الكلمة مادية. وليس كاتب هذه المقـالـة بالمتخصص في هذه الميادين الصعبة. [إلا] أن الأبحاث الجارية بهدف صنع آلة للترجمة، وهي أبحاث تابعها من بعيد، ولكنه تابعها مع ذلك، قد رمت به في بحر من الأفكار، كما رمت بآخرين غيره. ومع ذلـك، تظل ثمـة واقعـة مزدوجة: أولا، إن مثل هذه الآلات، ومثل هذه الامكـانيات الرياضية موجودة، ثانيا، ينبغي لنا أن نعدّ الاجتماعي[لتقبل] رياضيات الاجتماعي، التي لم تعد تلك الرياضيات القديمة والمعهودة لدينا فحسب: أي منحنيات الأسعار، والأجور، والولادات...

بيد أنه إذا كانت الإوالية الرياضية الجديدة لاتزال بعيدة عن متناولنا في أغلب الأحيان، فلا يمكن لنا أن نغفل عن تهيء الواقع الاجتماعي قصد استعمالها ولولبتها وتقسيمها. وإلى حدّ الآن، ظلت المعالجة السابقة هي نفسها تقريبا: أي اختيار وحدة مقلصة بهدف الملاحظة، مثل قبيلة «بدائية» أو «مجموعة» ديموغرافية «متوحدة»، حيث يتسنى لنا أن نفحص الكل تقريبا،

(30) «نظرية الألعاب والسلوك الاقتصادي»، برنستون، 1944. قارن بالعرض الرائع الذي قدمه جان فوراستيي (J. Fourastié) في مجلة: «النقد» (Critique) أكتوبر 1951، العدد 51.

ونمسه بإصبعنا. بعد ذلك، نقيم بين العناصر التي ميزناها جميع الروابط والألعاب الممكنة. إن هذه العلاقات المحدّدة تحديدا صارما تعطينا المعادلات التي ستستخرج منها الرياضيات جميع الخلاصات والتمديدات الممكنة قصد الوصول إلى نموذج يلخصها جميعا، أو أنه، بالأحرى، يأخذها جميعا بعين الاعتبار.

* * *

وبالطبع، إن ألف إمكانية للبحث تنفتح في هذه الميادين. إلا أن مثالاً واحدا يكون أفضل من خطاب طويل. ويتقدم لنا كلود ليڤي ستروس كأحسن مرشد، فلنقتف خطوه حيث سيدخلنا إلى قطاع من قطاعات هذه الأبحاث، لنقل إنه قطاع علم التواصل [31]. يكتب كلود ليڤي ستروس [32]: «ويتم التواصل، في أيما مجتمع، في ثلاثة مستويات على الأقل، تواصل النساء، تواصل الممتلكات والخدمات وتواصل الرسائل». ولنسلم بأن هذه لغات مختلفة، على مستويات مختلفة، إلا أنها لغات. ومن ثم، ألا يحق لنا أن نتعامل معها باعتبارها لغات، أو بالأحرى باعتبارها اللغة، وإشراكها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في التقدمات الرائعة للسانيات، أو بالأحرى بتقدمات الفونولوجيا التي «لن يفوتها أن تلعب، إزاء العلوم الاجتماعية، نفس الدور التجديدي الذي لعبته الفيزياء النووية، مثلا، بالنسبة لمجموع العلوم الدقيقة» [33]؟ هذا قول مبالغ فيه، ولكن المبالغة ضرورية أحيانا. فمثلما كان الشأن بالنسبة للتاريخ الواقع في كمين الحدث، تحرّرت اللسانيات الواقعة في كمين الكلمات (علاقة الكلمات بموضوعها، التطور التاريخي للكلمات) منها عبر الثورة الفونولوجية. فوراء الكلمة ارتبطت [اللسانيات] بالخطاطة الصوتية، أي بالفونيم، ولم تبال، من ثم، بمعناه، إلا أنها اهتمت بموقعه، وبالأصوات المرافقة له، بتكتلات هذه الأصوات والبنيات الفونيمية التحتية

(31) إن جميع الملاحظات التي ستلي مأخوذة من مؤلفه الأخير «الانثروبولوجيا البنائية»، ن. م.

(32) ن. م. ص 326.

(33) ن. م، ص 39.

(Infra-phonémiques) ، واهتمت بكـل واقع لساني تحتي لاواع . إن العمل الرياضي الجديد أقيم على عشرات من الفونيات التي نعثر عليها مجدداً في جميع ألسن العالم، وها [نحن نرى] اللسانيات ، أو على الأقل جزءا من اللسانيات ، وهو يفلت، خلال العشرين سنة الأخيرة، من عالم العلوم الاجتماعية ليخترق «مر العلوم الدقيقة» .

وما تمديد معنى اللغة إلى البنيات الأولية للقرابة والأساطير، إلى تقاليد الحفلات والمبادلات التجارية سوى البحث عن تلك الطريق التي تجتاز الممر الصعب، ولكنه الممر المؤدي إلى النجاة، وتلك هي المأثرة التي حققها كلود ليڤي ستروس ، بادىء ذي بدء ، عندما تعرّض للتبادل الزواجي ، وهي اللغة الأولية والجوهرية في التواصلات بين البشر ، لدرجة [أننا لا نجد] مجتمعات ، سواء أكانت بدائية أم غير بدائية ، لا يكون فيها ارتكاب المحارم ، أي الزواج داخل الخلية العائلية الضيقة ، محرما . فثمة لغة إذن . وتحت هذه اللغة ، بحث عن عنصر أساسي يطابق الفونيم إذا أردنا ، بحث عن ذلك العنصر، أو تلك «الـذرة» القرابية التي ذكـرها مرشدنا ، ضمن الأطروحة التي تقدم بها سنة 1949 [34] ، في أبسط تعابيرها : وأعني بذلك الرجل وزوجه ، فطفلهما ، ثم خال الطفل . وانطلاقا من هذا العنصر مربع الزوايا ، وانطلاقا من مجموع أنساق الزواج التي عرفتها هذه العوالم البدائية ـ وهي عوالم متعددة ـ فإن الرياضيين سيبحثون عن التركيبات والحلول الممكنة . ولقد استطاع ليڤي ستروس أن يترجم، بمساعدة الرياضي أندري ڤيل (André Weill) ، ملاحظات الأنثروبولوجي إلى تعابير رياضية . وينبغي للنموذج الذي تم إبرازه أن يبرهن على صلاحية النسق وثباته ، كما يبرهن على الحلول التي يتضمنها هذا الأخير.

ونحن سنرى ما هو مسعى هذا البحث: أي تجاوز سطح الملاحظة قصد الوصول إلى منطقة العناصر اللاواعية أو قليلة الوعي ، ثم اختزال هذا الواقع إلى عناصر صغرى، ولمسات دقيقة ومتناهية نتمكّن من تحليل علاقاتها

(34) «البنيات الأولية للقرابة»، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1949 . انظر «الانثروبولوجيا البنائية»، (ص ص : 47 ـ 62)

بالتّحديد. ففي هذا الطّابق «السوسيولوجي الصُغري (من نوع خاص، وإنّي صاحب هذا التحفّظ المضاف هنا)، نأمل في رؤية أعمّ قوانين البنية، مثلما يكتشف اللساني قوانينه في الطابق الجُزئي التّحتي، أي في مستوى الذّرة»[35].
وبالطبع، يمكن للُعبة أن تستمرّ في اتجاهات أخرى. ومن ثم، ليس ثمة ما هو أكثر تعليمية من رؤيتنا لليڤي ستروس وهو يتصارع مع الأساطير هذه المرة، ويتصارع، بهدف التفكّه، مع المطبخ (تلك اللغة الأخرى): إنه سيختزل الأساطير إلى متوالية من الخلايا الأولية، أي الوحدات الأسطورية، وسيختزل (دون أن يؤمن بذلك إيمانا قويا) اللغة المستعملة في كتب الطبخ إلى وحدات فوقية. وهو يبحث، في كل مرة، عن مستويات توجد في العمق، مستويات شبه واعية: فأنا لا أهتم، عندما أتكلم، بفونيمات خطابي، كما أنني لا أهتم، عندما أكون جالسا إلى المائدة، إلا نادرا، و من زاوية المطبخ، بـ «الوحدات الذوقية» إذا ما كان لهذه الوحدات من وجود. ومع ذلك، يبقى تأثير العلاقات النافذة والدقيقة مصاحبا لي في كل مرة. وهل يكون آخر مبتكرات البحث السوسيولوجي هو الامساك بهذه العلاقات البسيطة والملغزة في جميع اللغات، قصد ترجمتها إلى أبجدية مورس، أعني بها اللغة الكونية للرياضيات؟ هذا هو مطمح الرياضيات الاجتماعية الجديدة. وهل لي أن أقول دون أن يساورني الضحك، إن تلك حكاية أخرى؟

* * *

وبالفعل علينا أن نعيد إدخال المدة. ولقد سبق لي القول إن للنماذج مدة متغيّرة: فزمنها مساوٍ للواقع التي تسجّله. وهذا الزمن أساسي بالنسبة لمن يلاحظ الاجتماعي، ذلك أن نقط القطيعة التي تعرفها البنيات العميقة للحياة، واضمحلال هذه البنيات السريع أو البطيء تحت تأثير ضغوطات متناقضة، أدل بكثير من هذه البنيات [نفسها].

لقد سبق لي أحيانا أن قارنت النماذج بالسفن. إن ما يهمنا من السفينة، عندما تكون جاهزة، هو إنزالها إلى الماء، ومعرفة هل تطفو على السطح، ثم

(35) «الانثروبولوجيا». ص 42 ـ 43.

يهمّني أن أجعلها، حسب رغبتي، تصعد في مياه الزمان أو تنحدر فيها. إن الفرق هو اللحظة الأدل على الدوام. ومن ثم، يبدو لي أن التفسير الذي تخيلناه، أنا وسبونر، للتأثيرات الجارية بين المعادن النفسية غير صالح تماما قبل القرن الخامس عشر. إذ قبله عرفت اصطدامات المعادن عنفا لم تشر إليه الملاحظة لاحقا. ولهذا علينا أن نبحث نحن عن السبب. وما دام من الضروري لنا أن نرى، جهة المصب هذه المرّة، لماذا أصبحت الملاحة صعبة، بعدما كانت مفرطة البساطة بالنسبة إلى سفينتنا، ثم صارت مستحيلة [بوصولها] إلى القرن الثامن عشر واندفاع القرض اندفاعة غير عادية. أما بالنسبة لي، فإن البحث ينبغي أن يمضي، دون توقف، من الواقع الاجتماعي إلى النموذج، ومن هذا الاخير إلى الواقع الاجتماعي، وهكذا دواليك، عبر متوالية من اللمسات والرحلات الصبورة ودائمة التجدد. وهكذا يكون النموذج، بالتناوب، محاولة لتفسير البنية وأداة للمراقبة والمقارنة، كما يكون تحققا من صلابة بنية معينة، بل وحتى من حياتها. فإذا صنعت نموذجا، انطلاقا من الراهن، لرغبت في وضعه مجددا وتوّا داخل الواقع، ثم جعله يصعد في الزمان إلى ميلاده، إن كان ذلك ممكنا. ثم أحسب حياته المحتملة، بعد ذلك، إلى قطيعته القريبة، وحسب الحركة الملازمة لوقائع اجتماعية أخرى، هذا إذا لم أمض به عبر الزمان والمكان، باستعمالي له كعنصر للمقارنة، حيث أبحث عن وقائع أخرى من شأنها أن تظهر في أضواء جديدة تحت تأثيره.

هل أكون محقا إذا ما اعتقدت أن نماذج الرياضيات الوصفية، كما تم تقديمها لنا إلى حد الآن [36]، غير صالحة لمثل هذه الأسفار، ذلك أنها تتبع، قبل كل شيء، واحدة من طرق الزمان التي لا تحصى، أي طريق المدة الطويلة، بل والطويلة جدا، في مأمن عن الحوادث والظروف والقطائع؟ وسأعود مرة أخرى إلى كلود ليفي ستروس، ذلك أن محاولته تبدو، في هذه الميادين، أذكى وأوضح من غيرها، وأكثر انغراسا أيضا في التجربة الاجتماعية،

---

(36) أقول وأؤكد الرياضيات الوصفية، حسب استراتيجية الألعاب. أما بالنسبة إلى النماذج الكلاسيكية كما بلورها الاقتصاديون، فقد يكون من الضروري أن ندخل في نقاش مختلف.

وهي التي ينبغي أن ينطلق منها ويعود إليها كل شيء. وينبغي لنا أن نلاحظ أنه يستعمل، في كل مرة، ظاهرة ذات بطء شديد، بل ظاهرة لا زمانية. فجميع أنساق القرابة أنساق مستديمة، لأنه لا يمكن لأية حياة بشرية أن تقوم وراء وسط [حسابي] معين من أوساط القرابة العصبية، ولأنه ينبغي لزمرة صغيرة من الناس أن تنفتح على العالم الخارجي إذا أرادت الحياة: [ومن ثم]، فإن حظر ارتكاب المحارم واقع ذو مدة طويلة، وكذلك تُطابق الأساطير، ذات التطوّر البطيء، بنيات تعمّر طويلا. فبإمكاننا أن نجمّع الروايات المتعلقة بأسطورة أوديب، ودون أن نلقي بالا إلى أقدمها، على أن نرتب التنويعات المختلفة، ونُخرج إلى واضحة النهار تمفصلا عميقا، يوجد تحتها ويحكمها. ولكن لنفترض أن زميلنا لا يهتم بأسطورة ما، ولكنه معني بالتصورات والتأويلات المتعاقبة التي أعطيت لـ «الميكيافيلية»، ويبحث عن العناصر التي توجد في أساس نظرية بسيطة بما يكفي، وشديدة الانتشار انطلاقا من القرن السادس عشر. فكم من قطيعة، هنا، وكم من انقلاب في كل لحظة، انقلاب طال حتى بنية المكيافيلية نفسها؟ ذلك أن هذا النسق لا يتوفر على الصلابة المسرحية، وشبه الخالدة التي تتوفر عليها الأسطورة. بل هي تتأثر بانعكاسات التاريخ وثباته، بل وحتى بشوادنه (intempéries) المتعددة. وبكلمة، إنها لا تسير فقط في الطرق الهادئة والرتيبة للمدة الطويلة. . ومن ثم، فإن الاجراء الذي يوصي به ليڤي ستروس في البحث عن بنيات قابلة للصياغة الرياضية لا يتموقع في الطابق الاجتماعي الصُغري فحسب، وإنما يتموقع في النقطة التي يلتقي فيها المتناهي الصِّغَر والمدة الطويلة جدا.

ومع ذلك، أما من خيار أمام الرياضيات الوصفية الثورية سوى اتباع هذه الطرق الخاصة بالمدة الطويلة جدا؟ ففي هذه الحالة، لن نعثر، من جديد، وبعد كل هذه المحاذير، إلا على حقائق لن تكون سوى حقائق الانسان الخالد. تلك حقائق أولية، وجوامع الكلم النابعة من حكمة الأمم، هذا ما ستقوله بعض العقول المكتئبة، إلا أننا سنجيبهم: تلك حقائق جوهرية بإمكانها أن تلقي أضواء جديدة على أسس الحياة الاجتماعية نفسها. ولكن مجموع النقاش لا ينحصر هنا.

والواقع أنني أعتقد أنه يمكن لنا تمديد هذه المحاولات ـ أو محاولات شبيهة بها ـ خارج المدة الطويلة جدا. إن ما نزوّد به الرياضيات الاجتماعية الوصفية، ليس أرقاما، وإنما هو علاقات ينبغي لنا تحديدها تحديدا صارما وكافيا، حتى يتسنّى لنا إرفاقها بعلامة رياضية يمكن لنا، انطلاقا منها، دراسة جميع الامكانيات الرياضية التي تتيحها هذه العلامات، ودون أن نلقي بالاً للواقع الاجتماعي الذي تمثله. ومن ثم، فإن القيمة الكاملة للنتائج تعتمد على قيمة الملاحظة الأصلية، وعلى الاختيار الذي يعزل العناصر الجوهرية داخل الواقع الملاحظ ويحدّد علاقاتها ضمن هذا الواقع. حينئذ، ندرك ميل الرياضيات الاجتماعية نحو النماذج التي يسميها كلود ليفي ستروس ميكانيكية، أي أنها نماذج تُبنى انطلاقا من زمر ضيقة يصبح ضمنها كل فرد قابلا للملاحظة بصورة مباشرة، إذا جاز لنا التعبير، وتسمح لنا حياة اجتماعية شديدة التجانس، بأن نحدّد، بصورة لا تخطىء، علاقات اجتماعية، بسيطة وملموسة، علاقات قليلة التغير.

وبالمقابل، فإن النماذج المسماة إحصائية تخاطب مجتمعات واسعة ومعقدة، حيث لا يمكن لنا القيام بالملاحظة إلا عن طريق أوساط [حسابية]، أي عن طريق الرياضيات التقليدية. ولكن بعد قيام هذه الأوساط، وإذا كان الملاحظ قادرا على إقامة هذه العلاقات الأساسية التي كنا نتكلم عنها ـ على مستوى الزمر، [هذه المرة]، وليس على مستوى الأفراد ـ فلا شيء يمنعنا من اللجوء إليها حينئذ. وفي حدود علمي، لم تقم بعد محاولات تمضي في هذا الاتجاه. إلا أننا لانزال في بداية التجارب. وإلى حدود اللحظة، سواء تعلق الأمر بعلم النفس أو الاقتصاد أو الانثروبولوجيا، فإن جميع التجارب قد تمّت في الاتجاه الذي حدّدته بالنسبة لليفي ستروس. غير أن الرياضيات الاجتماعية الوصفية لن تبرهن على صلاحيتها إلا إذا تعرضت لمجتمع حديث، وتعرضت لمشاكله المتشابكة وتواتر سرعته الحياتية المختلفة. ولنراهن على أن المغامرة ستغري أحد علماء الاجتماع الرياضيين من بين صفوفنا. ولنراهن كذلك على أنها ستتسبب في مراجعة ضرورية للمناهج التي اتبعتها الرياضيات الجديدة إلى حدّ الآن، ذلك أن هذه الأخيرة لا يمكن لها أن تبقى حبيسة ما سأسميه، هذه

المرة، المدة المفرطة الطول: بل عليها أن تعثر من جديد على اللعبة المتعددة للحياة، وتعثر على جميع حركاتها ومددها، على جميع قطائعها وتغيّراتها.

## - 4 -
## زمن المؤرخ، زمن عالم الاجتماع

هاأنذا أعود إلى الزمان والمدة، في نهاية جولة عابرة تغلغلتُ خلالها في بلد الرياضيات الاجتماعية اللازمانية. وباعتباري مؤرخاً لا يرعوي، فإنني أتعجب مرة أخرى من كون علماء الاجتماع قد أفلتوا منها[الزمان والمدة]. بيد أن زمانهم ليس زماننا: فهو أقل إجبارية، وأقل ملموسية كذلك، ولا يتصدّر مشاكلهم وتفكيرهم.

والواقع أن المؤرخ لا يخرج أبدا من زمن التاريخ: فالزمان يلتصق بفكره كما يلتصق التراب بمعزقة البستاني. وبالطبع، إنه يحلم بالافلات منه. ولقد كتب غاستوف روبنل (G. Roupnel) [37]، يدفعه إلى ذلك جزع سنة 1940، سطوراً تؤلم كل مؤرخ صادق. وهذا هو المعنى الذي تأخذه كذلك فكرة قديمة قالها بول لاكومب (P. Lacombe)، وهو أيضاً مؤرخ عالي المستوى: «موضوعياً، ليس الزمان شيئاً في حد ذاته، إنه ليس سوى فكرة من أفكارنا» [38]. . . ولكن هل يتعلق الأمر هنا بعمليات هروب حقيقية؟ فأنا ناضلت شخصيا، وخلال اعتقال كئيب جدا، نضالا كبيرا قصد الافلات من إخبارية (Chronique) هذه السنوات الصعبة (1940 ـ 1945). إن رفضنا للأحداث، وزمن الأحداث، كان معناه تهميش أنفسنا، ووضعنا في منأى عنها قصد النظر إليها من مسافة أبعد، وقصد الحكم عليها حكماً أحسن، ودون أن نومن بها إيمانا مفرطا. أن ننتقل من الزمن القصير إلى الزمن الأقل قصرا فإلى الزمن الطويل جدا، (حيث لا يمكن لهذا الأخير، إن كان له وجود إلا أن يكون زمن الحكماء)، أن نقف بعد بلوغنا هذا الحدّ، ثم نعيد النظر في

(37) «التاريخ والمصير»، باريس، برنار غراسي، 1943، في مواضع متفرقة، وخصوصا في ص 169.
(38) «مجلة التوليف التاريخي»، 1900، ص 32.

كل شيء، كما نعيد بناء كل شيء، ونراه يدور حولنا: فهذه عملية من شأنها أن تغري أي مؤرخ.

إلا أن هذه المرويات المتتالية لا ترمي به، في نهاية المطاف، خارج زمن العالم، أي خارج زمن التاريخ الاجباري، لأنه غير قابل للعكس، ولأنه يجري على إيقاع دوران الأرض نفسه. والواقع أن المدد التي نميّزها مدد متضامنة فيما بينها: فليست المدة هي ما خلقه عقلنا، وإنما خلْق تجزيئات هذه المدة.. والحال أن هذه القطع تتلاقى في نهاية عملنا. فالمدة الطويلة، والظرف والحدث تندمج دون صعوبة، لأنها تقاس كلها على نفس السلم. ومن ثم، يكون معنى المشاركة فكريا في أحد هذه الأزمنة هو المشاركة فيها كلها. [أما] الفيلسوف، المنشغل بالمظهر الذاتي والداخلي لمفهوم الزمان، فهو لا يشعر أبدا بوزن الزمن التاريخي، أي بوزن زمن ملموس وكوني، شبيه بالزمن الظرفي الذي يرسمه إرنست لابروس (E. Labrousse) في مستهل كتابه [39]، وكأنه مسافر متماهٍ مع نفسه، حيثما حلّ وارتحل، مسافر يجوب العالم ويفرض نفس الاكراهات، كائنا ما كان البلد الذي يحل به أو النظام السياسي أو الاجتماعي الذي يحاصره.

كل شيء يبتدىء وينتهي، بالنسبة إلى المؤرخ، بالزمان، زمن رياضي وخالق، قد يسهل علينا الاستخفاف به، زمن يبدو وكأنه خارج البشر، وقد يقول الاقتصاديون إنه زمن «خارجي المنشأ»، يدفع الناس ويجبرهم، كما يستولي على أزمنتهم الخاصة ذات الألوان المتنوعة: أجل، إنه الزمن الاجباري للعالم.

وبالطبع، يرفض علماء الاجتماع هذا المفهوم ذا البساطة المفرطة. فهم أقرب، وبكثير، من جدل المدة [40] كما عرضه غاستون باشلار (G. Bachelard). فالزمن الاجتماعي ليس سوى بعد خاص من أبعاد الواقع الاجتماعي الذي أتأمله. و[باعتباره] داخل هذا الواقع، كما يمكنه أن يكون داخل أي فرد، فهو

(39) «أزمة الاقتصاد الفرنسي عشية الثورة الفرنسية»، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1944، المدخل.

(40) باريس، منشورات فرنسا الجامعية، الطبعة الثانية، 1950

علامة من بين علامات أخرى يتأثر بها، أي خاصية من الخصائص التي تطبعه بوصفه كائنا خاصا. إن عالم الاجتماع لا يتضايق من هذا الزمان المتساهل، حيث يمكنه قطعه كيفما يشاء، ويمكنه حصره ثم تحريكه من جديد. [أما] زمن التاريخ، وهذا ما أكرّره، فقد لا يقبل الانصياع للّعبة التزامنية والتعاقبية المزدوجة والسريعة بنفس القدر: إنه لا يسمح لنا أبدا بأن نتخيل الحياة وكأنها إوالية بإمكاننا إيقاف حركتها حتى يتسنى لنا عرض صورة ساكنة عنها.

إن هذا الخلاف أعمق مما يبدو: فلا يمكن أن يكون زمن علماء الاجتماع زمننا، حيث إن البنية العميقة لمهنتنا تشمئز من ذلك. إن زمننا قياس كما هو زمن الاقتصاديين. وعندما يقول لنا عالم اجتماع إن البنية لا تكف عن تحطيم ذاتها إلا لكي تعيد تشكيلها، فإننا نقبل، وعن طيب خاطر، هذا التفسير الذي تؤكده الملاحظة التاريخية، فضلا عن ذلك. ولكننا نرغب، ضمن محور متطلباتنا المعهودة، في معرفة مدة هذه الحركات، سواء أكانت حركات إيجابية أم سلبية. [فبإمكاننا] قياس الدورات الاقتصادية، وهي مدّة الحياة المادية وجزرها.

كما أنه ينبغي لنا رصد أزمة اجتماعية بنيوية في الزمن، وعبره، وينبغي لنا موقعتها بدقة في ذاتها، وخصوصا بالنسبة إلى حركات البنيات المصاحبة لها. إن ما يشغف المؤرخ، هو تشابك هذه الحركات، وتفاعلها والنقط التي تكون فيها القطيعة فيما بينها: وتلك أشياء لا يمكن تسجيلها إلا بالنسبة إلى زمن المؤرخين وحيد الشكل، ذلك القياس العام الذي تقاس به هذه الظواهر كلها، لا بالنسبة إلى الزمن الاجتماعي متعدد الأشكال، ذلك القياس الخاص بكل واحدة من هذه الظواهر.

* * *

إن المؤرخ ليصوغ هذه الأفكار المعاكسة، أصاب في ذلك أم أخطأ، حتى عندما يدخل إلى سوسيولوجيا جورج غورفيتش (G. Gurvitch) المضيافة وشبه الأخوية. وبالأمس، ألم يعرّفه أحد الفلاسفة [41] باعتباره ذلك الذي

(41) جيل غرانجي (G. Granger)، «الحدث والبنية ضمن علوم الانسان»، دفاتر معهد علم الاقتصاد التطبيقي، سلسلة م، العدد الاول، ص 41 ـ 42.

«يرغم علم الاجتماع على الرجوع إلى التاريخ»؟ والحال، أن المؤرخ لا يتعرف، حتى عنده، على مدده ولا على زمانياته، فالبنيان الاجتماعي الشاسع (وهل نقول نموذجه؟) الذي شيّده جورج غورفيتش ينتظم تبعا لخمسة معمارات جوهرية [42]: الدرجات الموجودة في العمق، فالقابليات الاجتماعية (Sociabi-lités)، ثم الزمر الاجتماعية، والمجتمعات الشاملة، والزمان أخيراً، حيث إن هذه السقالة الأخيرة، سقالة الزمانيات، هي أجدّها، وحيث إنها أيضا آخر سقالة بناها وكأنه أضافها ثانية إلى المجموع.

إن زمـانيات جورج غورفيتش متعـددة، وضمنهـا، يميز سلسلة بكـاملهـا: زمن المدة الطويلة الذي ينساب ببطء، فالزمن الخادع أو الزمن المفاجأة، والزمن ذو النّبض غير المنتظم، الزمن الدوري أو زمن الرقص في نفس المكـان، الـزمن المتـأخر عن نفسه، الزمن الذي يتناوب عليه التأخر والتقدم، الزمن المتقدم على نفسه، الزمن المتفجّر [43]. . . فكيف للمؤرخ أن يقتنع؟ قد تتعذر عليه، أمام هذه السلسلة من الألوان، إعادة تشكيل اللون الأبيض الـوحدوي الضروري له. كما أنه يدرك، وبسرعة، أن هذا الزمن الحـربـاء لا يعدو أن يطبع، دون زيادة، المقولات التي ميزها سابقا بعلامة إضـافية ولمسـة لونية. إن الزمان في مدينة صديقنا يقطن، باعتباره آخر من وصـل، عنـد الآخـرين، بصـورة طبيعية. فهـو يتخـذ حجم هذا الـدور ومتـطلبـاتهـا، حسب «الـدرجات»، والقابليات الاجتماعية، وحسب الزمر والمجتمعات الشاملة. وتلك طريقة مغايرة لإعادة كتابة نفس المعادلات، دون تغييرها. إن كل واقع اجتماعي يفرز زمانه أو سلالم زمانه كما لو كانت صدفات مبتذلة. ولكن ما هي الفائدة التي نجنيها من ذلك نحن المؤرخين؟ إن المعمار الضخم لهذه المدينة الفاضلة يظل ساكناً. ويظل التاريخ غائباً عنها. [حقا]، إن زمن العالم، أي الزمن التاريخي موجود بها، إلا أنه شبيه بالريح عند إيول

(42) انـظر مقـالي ذا النـبرة الجـدالية المفرطة دون شك: «جورج غورفيتش وانقطاع الاجتماعي»، الحوليات، 1953، العدد الثالث، ص 347 ـ 361.

(43) قارن بـ جورج غورفيتش (G. Gurvitch)، «الحتميـات الاجتـماعيـة والحـريـة الإنسانية»، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1955، ص 38 ـ 40، ومواضع متفرقة.

(Eole) ، أي الريح المحبوسة في قربة تيس. وإن ما يغيظ علماء الاجتماع، في النهاية، وبصورة لا واعية، ليس هو التاريخ، وإنما هو زمن التاريخ، وهو ذلك الواقع الذي يظل عنيفا، ولو أن [بعضهم] يحاول ترتيبه وتنويعه. هذا إكراه لا يفلت منه المؤرخ أبدا، إلا أن علماء الاجتماع يفلتون منه على الدوام تقريبا: فهم يهربون إما داخل اللحظة، الراهنة دائما، وكأنها معلقة فوق الزمان، وإما داخل الظواهر المتكررة التي لا تنتمي إلى عصر معين. ومن ثم، فهم يهربون عبر مسعى متعارض للعقل، مسعى يحصرها إما داخل الوقائعي الأضيق، وإما داخل أطول مدة [ممكنة]. فهل الهروب مشروع؟ ها هنا يكمن النقاش الحقيقي بين المؤرخين وعلماء الاجتماع، وحتى بين مؤرخين ذوي آراء مختلفة.

* * *

لا أدري فيم لو كان هذا المقال المفرط في وضوحه، والمفرط في اعتماده على الأمثلة، حسب عادة المؤرخين، سيحصل على اتفاق علماء الاجتماع وجيراننا الآخرين. أشك في ذلك. وعلى أي حال، ليس من المفيد لنا قط تكرار لازمته المعروضة بإلحاح باعتبارها خلاصة. وإذا كان التاريخ مدعوا، من حيث طبيعته، إلى أن يهتم اهتماما خاصا بالمدة، وبجميع الحركات التي يمكن لنا تقسيمها إليها، فإن المدة الطويلة تبدو لنا، ضمن هذا الجدول، باعتبارها أجدى خط [يمكن اتباعه] قصد إجراء ملاحظة وتفكير مشتركين بين العلوم الاجتماعية. فهل نكون مجحفين إذا ما تمنّينا أن يردّ جيراننا، في لحظة من لحظات استدلالهم، ملاحظاتهم وأبحاثهم إلى هذا المحور؟

أما بالنسبة إلى المؤرخين الذين لا يشاطرونني الرأي، فقد ينتج لديهم قلب لمنظورهم: إنهم يُفضّلون الذهاب غريزيا نحو المدة القصيرة. حيث تحظى هذه الأخيرة بتواطوء المقررات المقدسة الجاري بها العمل في الجامعة. ويعزّز جان بول سارتر، ضمن مقالات حديثة العهد [44]، وجهة نظرهم، عندما أراد الاحتجاج ضد ما هو مفرط البساطة والثقل في آن معا، ضمن الماركسية، فقام بذلك باسم البيوغرافي والواقع الغزير الذي يزخر به الوقائعي.

(44) جان بول سارتر «شذرات من كتاب سيظهر حول تنتوريتّو»، الأزمنة الحديثة، نوفمبر 1957، وكذلك المقال المذكور سابقا.

إننا لا نقول كل شيء عندما «نموقع» فلوبير باعتباره بورجوازيا، أو تتوريتّو باعتباره برجوازيا صغيرا. وأنا متفق تماما. إلا أن دراسة الحالة الملموسة - أكانت فلوبير أم ڤاليري أم السياسة الخارجية التي اتبعها الجيرونديون - تردّ سارتر، في نهاية المطاف، إلى السياق البنائي والعميق. فهذا البحث يمضي من سطح التاريخ إلى عمقه، ويتلاقى مع اهتماماتي الخاصة. بل وقد يتلاقى معها بصورة أحسن لو أن الساعة الرملية خضعت للقلب في الاتجاهين - من الحدث إلى البنية، ثم من البنيات والنماذج إلى الحدث.

إن الماركسية شعب من النماذج. ويحتجّ سارتر ضد جمود النموذج وخطاطيته ونقصه، باسم الخاص والفردي. وأنا سأحتج مثله (باستثناء بعض الفروقات هنا وهناك) لا ضد النموذج، وإنما ضد الاستعمال الذي يخضع له، أو الذي اعتقد البعض أنه يجوز له إخضاعه له. إن عبقرية ماركس، بل وسرّ سلطته المستمرة يكمن في كونه أول من صنع نماذج اجتماعية حقيقية، وذلك انطلاقا من المدة التاريخية الطويلة. لقد جمّدت هذه النماذج في بساطتها عندما منحت قيمة قانونية، وقيمة التفسير القبلي والآلي، الصالح لكل مكان وكل مجتمع. وحينما تردّ إلى أنهار الزمان المتغيرة فإن نسيجها قد يظهر جليا، ذلك أنه صلب وجيّد الحبك، وقد تعود إلى الظهور دون انقطاع، إلا أنها ستكون متنوعة، ممحوّة تارة، وطورا يؤجّجها حضور بنيات أخرى، قابلة، هي بدورها، لأن تحددها قواعد أخرى، وبالتالي نماذج أخرى. هكذا تم تقييد قوة الخلق الكامنة في أقوى تحليل اجتماعي عرفه القرن الماضي ولا يمكن له أن يستعيد قوته وشبابه إلا ضمن المدة الطويلة... وهل لي أن أضيف أن الماركسية الراهنة تبدو لي نموذج الخطر الذي يتهدّد كل علم اجتماعي شغوف بالنموذج في حالة الصفاء، بالنموذج من أجل النموذج؟

إن ما أريد التشديد عليه أيضا قبل أن أختم، هو أن المدة الطويلة ليست سوى إمكانية من بين الامكانيات التي توفرها اللغة المشتركة بهدف المواجهة فيها بين العلوم الاجتماعية. وتوجد إمكانيات أخرى. ولقد أشرت، بصورة جيدة أو سيئة، إلى محاولات الرياضيات الاجتماعية الجديدة. فالجديدة

تستهويني، إلا أن القديمة التي حقّقت انتصارا جليا ضمن الاقتصاد ـ ولعله أكثر العلوم الانسانية تقدّما ـ لا تستحق هذه الملاحظة المتحرّرة من الوهم أو تلك. ثمة حسابات لا تحصى تنتظرنا في هذا الميدان الكلاسيكي، لكن هناك فرقا من الحاسبين وآلات حاسبة يتزايد اتقان صنعها يوما بعد يوم، وإنني لأومن بفائدة الاحصائيات الطويلة، وبالرجوع الضروري لهذه الحسابات والأبحاث نحو ماض يتراجع كل يوم. فورشاتنا تملأ القرن الثامن عشر الأوروبي، بل هي تملأ القرن السابع عشر قبله، وتملأ القرن السادس عشر أكثر منه. وتفتح لنا إحصائيات ذات طول لم يسمع به، وعبر لغة كونية، أعماق الماضي الصيني [45]. ومما لا شك فيه أن الاحصاء يبسّط ليحصل على معرفة أحسن، إلا أن كل علم يمضي، بهذه الطريقة من المعقّد إلى البسيط.

ومع ذلك، لا ينبغي لنا أن ننسى لغة أخيرة، وهي عائلة أخيرة من النماذج، في الحقيقة: أي الاختزال الضروري لكل واقع اجتماعي في المكان الذي يحتله. ولنقل إنه الجغرافية والايكولوجيا، دون أن نتوقف طويلا عند هذه الاختلافات القاموسية. إن الجغرافية تفكر في نفسها، وفي أغلب الأحيان، باعتبارها عالما في ذاته. وهذا مما يؤسف له. وقد نكون في حاجة إلى [عالم مثل] فيدال دي لابلاش (V. de la Blache)، من شأنه أن يتأمل المكان والواقع الاجتماعي بدل تأمله للزمان والمكان. وحينئذ ستتصدّر المشاكل التي تشمل علوم الانسان جميعا البحثَ الجغرافي. [ثم] الايكولوجيا: إن الكلمة تشكل، بالنسبة لعالم الاجتماع، ودون أن يعترف بذلك لنفسه أبدا، طريقة تعفيه من أن يقول جغرافية، ويتجنّب، في ذات الوقت، المشاكل التي يطرحها المكان، بل، وأكثر من ذلك، المشاكل التي يكشفها للملاحظة المتنبّهة. إن النماذج المكانية هي تلك الخرائط التي ينقذف فيها الواقع الاجتماعي، ويُفسّر جزئيا؛ وتلك نماذج حقّة بالنسبة إلى جميع حركات المدّة (وخصوصا حركات المدة الطويلة)، وإلى مقولات الاجتماعي برمتها. إلا أن العلم الاجتماعي يتجاهلها

---

(45) أوتو بركلباخ (O. Berkelbach)، فان در شبرنكل (V. der Sprenkel)، «إحصاء السكان في صين سلالة مينغ» B.S.O.A.S، 1953. ماريان ريغر، (M. Rieger)، «نحو تاريخ مالي وزراعي لسلالة مينغ 1368 ـ 1643»، Sinica، 1932.

تجاهلا يثير العجب. وغالبا ما ارتأيت أن أحد مظاهر التفوّق الفرنسي في العلوم الاجتماعية يكمن في تلك المدرسة الجغرافية [التي ترأسها] قيدال دي لابلاش، والتي لن نجد عزاء في خيانة [بعضهم] لروحها ودروسها، وينبغي لجميع العلوم الاجتماعية أن تفسح مجالا، من جانبها، لـ «تصور [أكثر] فأكثر جغرافية للبشرية»، كما سبق لقيدل دي لابلاش أن طالب بذلك سنة 1903 [46].

* * *

إنني أتمنّى عمليا ـ ذلك أن هدف هذه المقالة عملي ـ أن تتوقف العلوم الاجتماعية، مؤقتا، عن النقاش حول حدودها المتبادلة، وعما هو علم اجتماعي أو غير اجتماعي، عما هو بنية أو غير بنية.. عليها بالأحرى أن تحاول رسم خطوط، إذا ما كانت ثمة خطوط من شأنها أن توجه، عبر أبحاثنا، بحثا جماعيا، وتوجه أيضا الموضوعات التي قد تتيح لنا تقاربا أول. وأسمي هذه الخطوط شخصيا: إضفاء الصيغة الرياضية (mathématisation)، الاختزال إلى المكان، المدة الطويلة... إلا أن لدي فضولا لمعرفة ما قد يقترحه اختصاصيون آخرون. وهل من الضروري أن نقول إن هذه المقالة لم توضع اعتباطا في خانة: نقاشات وصراعات [47] بل هي تزعم طرح المشاكل لا حلها، حيث يتعرض كل واحد منا، للأسف، إلى أخطار واضحة إذا خرج الأمر عن دائرة اختصاصه. إن هذه الصفحات دعوة إلى النقاش.

نقل النص عن الفرنسية: **مصطفى كمال**

(*) العنوان الأصلي للنص: «Histoire et sciences sociales: La longue durée»
ضمن كتاب: «كتابات حول التاريخ» (ECRITS SUR L'HISTOIRE)
فلاماريون (سلسلة «مجالات» CHAMPS)، باريس، 1969. (ص ص: 41 ـ 83)

(46) «مجلة التوليف التاريخي»، 1903، ص: 239.
(47) وهو باب معروف من أبواب «الحوليات».

# فجر المتوسط

## فرنان بروديل

كلنا نقول، ونعلم، بأن «الحضارات الاولى» نشأت في الشرق الأدنى، [أي] في الجهة الشرقية من البحر الابيض المتوسط. لكن البحر لم يكن مسؤولا عن ذلك منذ البداية, فقد ظل خاليا طوال آلاف السنين، [بل] وأقفر من الصحارى نفسها، [يمثّل] عائقا - لا رابطاً - بين البشر الذين عاشوا، مع ذلك، على سواحله منذ زمن مبكرا جدا.

غير أنه، ومنذ زمن مبكّر جذا كذلك، مخرت طافيات أو زوارق جذعية بدائية عبابه، ولولاها لما كانت التنقلات، التي نتوفر على دليل حدوثها، ممكنة هكذا فإن قبرص، التي كانت دائما جزيرة، منذ ظهور الانسان في آسيا الصغرى والتي لا نعرف بالضبط تاريخ إعمارها الاولى، كانت تستورد السَّبج من الأناضول في الألف السادسة قبل الميلاد، وتصنع منه أدواتها. وليس هذا المثال فريدا: فمالطا التي شغلها الانسان لأول مرة حوالي الألف الخامسة قبل الميلاد، كانت تحصل من صقلية على أحجار غير موجودة عندها، ومنها السّبج. لكن لا شيء يشير إلى وجود اتصالات منتظمة أو علاقات متواصلة. فإذا كان الانسان قد تجاوز، مبكراً، عائق البحر في المسافات القصيرة، فإن ذلك لم يتم إلا بكيفية متفرقة. وظل الامتداد البحري، من حيث هو خالق للتبادلات الواسعة، غير مستعمل لزمن طويل. وقد خطت حضارة البحر الابيض المتوسط خطواتها الاولى على هامشه، وخارجه.

### ثورات الشرق الأدنى

يتمثّل فجر التاريخ في اختراع الزراعة، وفي الثورة النيوليثية التي لا نعرف إلا منذ عهد قريب، وبفضل طرائق التأريخ المعتمدة على الكربون الاشعاعي، أنها بدأت حوالي الألف التاسعة قبل الميلاد وامتدت عبر عدة آلاف من السنين. وبالتالي فإن هذا الوقف الكبير في تاريخ البشرية لم ينشأ

بسرعـة كبيرة. ومع ذلك فقد تطوّر انطلاقا من بؤر عديدة، ترتبط ببعضها بعضا بصورة متفاوتة، دافعاً أمامه حبوبه ـ من نباتات برية استعملت طويلا قبـل أن تتم زراعتهـا بالتـدريج ـ، وحيوانـاتـه الداجنة، وأشجاره المثمرة، وعادات استقراره.

وهذا ما يفسِّر كونه لم يولد في السهول التي قد نتخيل قَبْليا أن حرثها أسهل، وإنما ولد في الأراضي المرتفعة التي تحدّ صحراء سوريا أو في النجود الجبلية للأناضول أو إيران: وفعلا، فذاك هو الموطن الطبيعي للغنم والماعز والبقريات والخنازير، وهو أيضا موطن النجيليات البرية على ارتفاعات تتراوح بين 600 و900 متر؛ وهنـاك، أخيرا، تجري المياه بوفرة نسبية، عند سفح تضاريس الشمال على منحدرات مكشوفة جيداً، أمام الجنوب أو الغرب. ففي هذه المنطقة التي سمّاها المؤرخون تسمية متميزة هي الهلال الخصيب، بدأت الزراعة مسيرتها الطويلة، انطلاقا من ثلاث مناطق ذات حظوة هي: أودية وسفوح زاكروس (Zagros) الغربية، والمنطقة الجبلية من أرض الرافدين التركية وجنوب هضبة الأناضول.

ومن يتحـدث عن الـزراعة يتحدث عن حياة الاستقرار والتجذر في مســاكن مجمَّعة. لكن المفـاجأة، التي كشف عنها الكربون الاشعاعي هي الأخرى، كانت هي وجـود، لا مجرد قرى أو مداشر فحسب، منذ الالف الثامن قبل الميلاد، بل وتجمعات سكنية ضخمة يمكن تسميتها مدناً، حتى وإن لم تتوفر، في الأصل، على نفس التنظيم الذي عرفته المدينة الرافدية أو المصرية. من هنا تأتي البرهنة الثورية والمقنعة (التي قدّمتها) جين جاكوبس (J. Jacobs) («اقتصاد المدن»، The Economy of Cities, 1969): فهي تزعم أنه من الطبيعي والمنطقي في الفراغ، فراغ ما قبل التاريخ أو فراغ هذا القسم أو ذاك من العالم الجديد بعد الغزو الأوروبي، أن تبدأ المدن حياتها في نفس الوقت الذي بدأت فيه القـرى حياتهـا، إن لم يكن قبله. وتمثـل جرش و سطال حيـوك نموذجين لهذه التجمعات «النيوليثية»: فقد كانت جرش تؤوي، في الألف السابعة قبل الميلاد، ما لا يقل عن ألفي نسمة، وكانت بيوت سطال حيوك المتصلة تمتد على مسافة خمسة عشر هكتاراً، وكان تنقّل الناس، داخل الدور، يتم عبر فتحات بيضوية بالجدران، وبين الدور، عن طريق السطوح.

ومنذ ذلك الحين كانت هذه «المدن البدائية» مراكز منظّمة. فهي تثير تنفلا واسع المدى وتتعهده. [حيث] تصدِّر جرش الملح والقار وتستورد، من بين ما تستورده، سبج الأناضول وأحجار الفيروز من سيناء والغوريات [النقود الصدفية] من البحر الاحمر. [كما] تبادل سطال حيوك سبجها بصوان سوريا، وتستورد من البحر الابيض المتوسط كميات كبيرة من الصدف وأنواعا مختلفة من الأحجار ومن المرمر والرخام. أما أنشطتها الحرفية فعديدة، [تتناول] الحلي من الحجارة أو اللؤلؤ أو النحاس، والأقمشة الرقيقة والخزف، الخ.. وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه سهل بامفيليا (Pamphilie) القريب منها لا يزال متأخراً من الناحية الثقافية. ومن أول وهلة أثبت الابتكار الخلاق، وهو علامة على الوفرة الاقتصادية، بسطال حيوك، أنه قوي جدا.

ومع ذلك فإن السهل، أي أرض الرافدين السفلى هو الذي سيصير، مع مصر، المراكم الجوهري للحضارة الحبلى. ذلك أن الحضارة العظيمة لا يمكنها أن تعيش دون تنقّل واسع، كما أن مياه الأنهار ـ الفرات ودجلة والنيل ـ سرعان ما ستمكّن من ازدهار النقل عبر المراكب. وأن تجازف هذه المراكب، أخيرا، بعبور المياه المالحة للخليج الفارسي أو المحيط الهندي أو البحر الأحمر والبحر الابيض المتوسط [معناه] أن الخطوة الحاسمة قد تمّ قطعها. وبدأت المعجزة. حيث سيمر كل شيء: الخبرات والسلع والتقنيات، وبالتدريج، عبر الطرق البحرية. وستبدأ حياة البحر الابيض المتوسط.

## أولى المراكب، أولى الحضارات

من المؤكد أن النقل بالمراكب عبر الفرات ودجلة (والذي تكمّله طافيات مصنوعة من القِرَب المنفوخة المربوط بعضها إلى بعض، كانت تنزل مع مجرى الأنهار مثقلة الحمولة، لكي تعاد القرب بعدها، وقد أفرغت من الهواء، على ظهور الحمير) قد لعب دوراً مهماً للغاية في نمو أرض الرافدين وازدهارها. فقد مكّن، وفي نفس الآن، من توزيع موارد الجبل والسهل المتنوعة توزيعا اقتصاديا، ومن ربط المدن المستقلة، والراغبة في البقاء كذلك، ضمن كلٍّ واحد. يكفي أن ننظر اليوم أيضا إلى حركة القوارب على الفرات ومستويات مائه العريضة وضفافه المنبسطة والمنقعية لزمن طويل، كي تعيد الحياة من

جديد لنقوش قصر نينوى الرائعة، بقواربها القصبية المنسابة بين أفراس النهر على المستنقعات وفيرة السمك. إلا أن أرض الرافدين بعيدة عن سواحل البحر الابيض المتوسط، وإذا ما غامرت، كما يبدو، [بولوج] البحر الاحمر والخليج الفارسي، فإننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن هذا الموضوع. إنها توجد في خلفية أول تاريخ للبحر الأبيض المتوسط.

أما المراكب المصرية فهي، على عكس ذلك، تصبّ في تاريخ بحرها الداخلي. وتبرزها لنا نقوش الأهرامات الاولى مصنوعة، في الغالب، من حزم البردي مشدود بعضها إلى بعض، وشبيهة، إلى حدٍّ ما، بقوارب أرض الرافدين، بكوثلها وجؤجؤها المرفوعين، وبأسفلها الذي يكاد يكون مسطحا، وقاية لها من الاصطدام بالأرصفة الرملية التي لا يكاد يغمرها الماء، وكي تتمكن من عبور المستنقعات العديدة دون ضرر.

وسيدفع التقدم السريع إلى تعويض الأُسُل البدائية بروافد خشبية وبألواح من خشب الجميز أو السنط الآتية من مصر العليا، أو من خشب أرز لبنان. ويتم ضمّ هذه الروافد القصيرة الضخمة إلى بعضها بعضاً. إن هذه السفن الخشبية، التي لا صالب لها والتي يرفع فيها حبل مستعرَض، تشبه، بداهة، تلك القوارب البدائية، إذا نحن استثنينا مادة بنائها. إنها تملأ مشاهد القنص والصيد التي يكثر رسمها على جدران المدافن، وتُستعمل لنقل الأموات إلى مثواهم الأخير.

إن النقل بالمراكب عبر النيل يعادل مثيله عبر الفرات في قوته، زيادة على أن له عليه ميزة مؤكدة: هي أن نظام الريح المضبوط، في مصر، يسمح للسفن بأن تصعد النهر بسهولة عن طريق الشراع. ويكفي، في الاتجاه المعاكس، أن تترك [السفن] تنساب مع مجرى المياه. ونادراً ما يُلجأ إلى المجاذيف وإلى جرّ السفن. من هنا فإن النيل، لهذا السبب ولأسباب أخرى، هو شرط وحدة مصر وغناها. لقد كان هذا النهر، في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، يتيح نقل الغرانيت من مقالع مصر العليا إلى منف، كما يتيح السيطرة من بعيد على النوبة، أكبر ممّون بالعاج والأبنوس، وريش النعام والمعادن النفيسة، وخاصة منها الذهب. وبعد ذلك بقليل، سوف يتيح الوصول إلى البحر الأحمر عبر الطريق الرابطة بين قبطوس (Coptos) وقوير (Qoeir)، ومن ثم الوصول

إلى البخور والمُرّ المكّاوي من بلاد البنط، وإلى النحاس وأحجار الفيروز وأحجار كريمة أخرى من سيناء. وفي مصر السفلى يوجد مقر الحكم الفرعوني وتتكدّس كل هذه الثروات، [التي تمكن] مصر من شراء أو اقتناء كل ما ينقصها وكل ما تشتهيه: أشجار أرز لبنان، وقار البحر الميت، والزيت، ثم خرسوريا فيما بعد.

هكذا بدأت الرحلات بين مصر ومدن الشاطىء السوري ـ اللبناني في فجر التاريخ المصري تقريبا. حيث يحتمل أنها كانت، في البداية، عبارة عن إرساليات بعثها الفراعنة. إلا أنه، وفي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، كان هناك أسطول تجاري حقيقي يربط بيبلوس [جبّيل حاليا] بموانىء دلتا النيل؛ وكانت السفن من النوع المصري، ولا شك أنها كانت ممولة من طرف مصر، لكن لعلها كانت من بناء بل ومن تركيب الكنعانيين (وهو الاسم الذي كان يطلق على السوريين ـ اللبنانيين). لقد كان أسلاف الفينيقيين هؤلاء شعبا من البحارة أصلا، أما المصري فسيكون دائما، عكس ذلك، ميالا إلى البقاء في موطنه مادامت ثروته تمكنه، علاوة على ذلك، من الاستيراد، كما سيقال فيما بعد، في اتجاه البحر الأبيض المتوسط. ومهما يكن من أمر، فإن الشك لم يعد ليتطرق إلى ذلك بعد ألف سنة: حيث إن رسما من طيبة، يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، يصوّر سفنا يركبها الكنعانيون بلباسهم المتميّز وهم يفرغون سلع بلادهم في مصر. ومع ذلك فإن السفن ظلت متماثلة: مراكب شراعية من النوع المصري، بنفس الطرفين المرفوعين بزاوية تكاد تكون قائمة، وبدون صالب في الظاهر. وهي مراكب تناسب مساراً هادئاً وروتينياً على مياه النيل قليلة العمق، والمعرضة للفيضان الموسمي الذي يعرّج الطريق الصالحة للملاحة ليجعل منها مجرد ممر، عبر نهر النيل. إلا أنها قليلا ما تناسب أخطار أعالي البحار.

والحال أن نوعاً آخر من السفن قد ظهر منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد، وربما قبل ذلك، ناجماً عن مغامرة أخرى: هي مغامرة شعوب بحر إيجه. فهذه السفن الخفيفة تسير بالشراع وبالمجذاف وهي مزودة بغاطس وصالب، الشيء الذي لا يقوي هيكلها ضد اصطدامه بالأمواج فحسب، بل ويعطيها ثباتا أكبر ومقاومة أقوى للرياح. والواقع أن هذه السفينة الايجية، التي

هي السلف المباشر لسفن الفينيقيين والاغريق والرومان، هي أول سفينة نقل ملائمة للبحر حقا. وهي التي عجّلت تاريخ البحر الابيض المتوسط.

## أول بحر أبيض متوسط تجاري في التاريخ

لقد انبثق إذن، في بداية الألف الثانية ق. م، قطاعان بحريان لإنتاج السفن والبحارة هما: الساحل اللبناني، والجزر الايجية. وكان هناك، أصلاً، فينيقيون أوائل وإغريق أوائل. يشمل نشاطهم سواحل بحر إيجه كما يشمل سواحل آسيا الصغرى، مثلهم في ذلك مثل خلفائهم، ومن هنا كانوا، وبدون منازع، المسؤولين الرئيسيين عن ميلاد أول بحر أبيض متوسط للمبادلات، بحر أبيض لا يزال مختزلا إلى نصفه الشرقي (فضاءات الشرق)، لكنه كان، ومنذ ذلك الحين، بمثابة فضاء اقتصادي موحّد، سيتم فيه، قريباً، تبادل كلّ شيء: الأشياء والتقنيات والموضات والأذواق والناس بطبيعة الحال، بل والمراسلات الديبلوماسية أيضا.

هكذا خُلقت ظاهرة ذات جدّة خارقة للعادة، وأخذت ثقافة عالمية مكانها، يمكننا أن نتعرف فيها على إسهامات مختلف الحضارات التي شُيّدت على أطراف البحر أو وسطه. لقد أخذ بعض هذه الحضارات من إمبراطوريات مثل مصر و أرض الرافدين وآسيا الصغرى على عهد الحتيين؛ وأطلق بعضها الآخر على البحر مدعوما من مدن، [مثل مدن]: الساحل السوري ـ اللبناني، وكريت ثم مسينا فيها بعد. لكنها، من الآن فصاعدا، تتواصل كلها مع بعضها البعض. وكلها، بما في ذلك مصر المنغلقة على نفسها كل الانغلاق في العادة، تلتفت نحو الخارج بفضول متحمّس. إنه عصر الرحلات وتبادل الهدايا والمراسلات الديبلوماسية والاميرات اللائي يعطَينَ زوجات للملوك أجانب باعتبارهن عربونا على هذه العلاقات «الدولية» الجديدة. وهو العصر الذي تظهر فيه، على جداريات المدافن المصرية، كل شعوب الشرق الأدنى وبحر إيجه: الكريتيين والمسينيين والفلسطينيين والتوبيين والكنعانيين، وهي ترتدي ملابسها الأصلية، في صور دقيقة النسخ: العصر الذي غزا فيه الخزف الكريتي البديعُ المشرق كلّه (لاوجود لتنقيب لا يكشف، عملياً، عن إناء أو عن قطع خزفية كريتية من هذا العصر)؛ حيث كانت الخزفيات المصرية

الـزرقاء ـ المصدّرة إلى كل مكان، والمقلّدة دون اهتمام في أوغاريت ـ ترافق الموتى في المدافن المسينية؛ وحيث انتشرت عبادة الآلهة الكنعانية ـ القادمة مع التجار دون شك ـ في دلتا النيل، في حين انتشرت [تماثيل] أبي الهول المجنح أو آلهة مصر في سوريا أو في بلاد الحثّيين؛ حيث كان الخيال المبدع للرسم الكريتي على جدران مدافن طيبة يزاحم التقليد المصري الخشن، في الوقت الذي تلهم فيه زهور اللوتس والطيور المائية للنيل البعيد خزّافين كريتيين أو مسينيين يستعيدون، لحسابهم الخاص، كونها الغامض والبحري، لكن مع قوة بالغة في ترتيب الأشكال ومعالجتها، رافضين ، فوق ذلك، وعلى عكس مصر، الإحالات المكانية والآفاق المجازية؛ وحيث تفتتن الموضة المصرية ـ الموقوفة على الكتان الأبيض حتى ذلك الحين ـ بالمطرّزات السورية والمنسوجات الكريتية المبرقشة.

وما من شك في أن مجد النزعة العالمية، في هذا الخليط المتنافر الخارق للعادة من الألف الثانية ق. م. ، يعود إلى السوريين ـ اللبنانيين، الذين استعاروا كل شيء ومن الجميع، وأعادوا خلط الكل حسب رغبتهم. وعلى النقيض من ذلك فقد أعطت كريت أكثر مما أخذت، رغم نشاط تجارها وبحارتها الذي نجد آثاره في كل مكان. لقد بقيت [هذه] أكثر أصالة ومخالَفة للمألوف من بين الحضارات القديمة الأولى، الأمر الذي قد يعود إلى حماية [طبيعتها] الجُزُرية لها. غامضة في تطوّرها باعتبارها ظاهرة منفردة، نفس غموضها في اختفائها نتيجة موت عنيف وغير مفسَّر.

### من كنوسوس إلى مسينا

إن كريت جزيرة ضائعة في أعلى البحر، قليلة السكان وضعيفة النمو لأمد طويل. وهي في مأمن على نحو غريب، إذ لا توجد فيها حيوانات ضارية أصلية، ولا ثعلب فيها ولا ذئب ولا عُقاب ولا بوم ولا أي حيوان ضار باستثناء العقرب والأفعى وعنكبوت سامة (مجهولة، فوق ذلك، على سطح القارة [الأوروبية]). ولـزمن طويل ظلت تردّد بالكاد أصداء التيارات المحضرة القادمة من [جزر] السيكلاد و إيجه. وحين كانت طروادة تتألق، قرب الهلسبون، كانت كريت ماتزال في الظلمة. ولم يصلها بصيص من النور إلا

حوالي سنة 2500 ق. م وتتضمن أسطورة أوزوبا التي اختطفها زوس من سواحل فينيقية وقادها إلى كريت قسطاً من الحقيقة.

هل ينبغي أن نرى في هذه الكثرة من المدن ـ القصور ـ التي تعتبر كنوسوس أجملها، لكنها ليست النموذج الوحيد ـ مدنا مستقلة، أي مدناً ـ دولا على النمط الاغريقي، كما يدّعي ذلك فان إفانتر (E. Van Effenter)؟ إن هذه القصـور ليست وقفاً على إله بقدر ما هي خاصة بأمير هو مينوس (Minos) الكنوسوسي. وربما تكون، أيضا، شكلا من أشكال الاقتصاد، ومكاناً يتجمّع فيه الانتاج ويتوزّع، ومركزاً يتسلّم فيه حرفيو المدينة القريبة وتجّارها أوامرهم، حيث يتم تصوّر مشاركة واعية وعياً متنامياً بالمبادلات الخارجية. ذلك أن هذا الإزدهـار، وخاصة الأكثر تألقا، بين 1700 و1450 ق. م. كان معاصراً لانـطلاقـة اقتصـادية عامـة في الشرق الأدنى. ومن هنـا انعكست عظمـة الامبراطوريات الكبرى على مرآة الحضارة الكريتية التي تعيد، هي الأخرى، إرسال أنوارها بعيدا. لقد كانت كنوسوس القصر ـ المدينة دون منازع، تلقي أشعتها بعيداً، بفضل السفن الكريتية التي تجوب البحر.

وحـوالي سنـة 1450 ق. م سينهـار كل شيء ـ كما سبق القول ـ في كنوسوس وفي كريت الشرقية (وهو الجزء الوحيد الذي أنارته الحضارة). [هل حدث ذلك] نتيجة انفجار بركان ثيرا (سانتوران، اليوم)؟ أم نتيجة هجوم ظافر قام به المسينيون عليها؟ وهذه فرضية كلاسيكية؛ أم نتيجة اضطرابات اجتماعية عنيفة؟ مهما يكن من أمر فإن الحضارة الكريتية ستنطفئ مع منتصف القرن الخامس عشر ق. م.

إننـا لا نعرف هذه الحضارة الا بكيفية ناقصة. ولا نعرف من ديانتها سوى القليل. ونحن نتعرف ـ في الأكثر ـ على بعض رموزها: الشجرة والعمود والفأس المزدوجة وقرني الثور والأوشحة المعقودة بطريقة شعائرية، وعلى بعض الحيوانات المقدسة: الثعبان والحمامة والثور. ويبدو، أخيرا، أن الإلهة ـ الأم المتحدرة من أعماق ما قبل التاريخ والعقليات البدائية قد كانت مهيمنة. لكن هناك فرقاً كبيراً بين هذه الآلهة الشابة الرشيقة التي ترفع ثعباناً في يدها كما تحمل زينة رخيصة وبين تماثيل الخصب المكتنزة التي تم العثور على مئات من نماذجها في مكـان آخـر، في كل مكـان يحيط ببحر إيجه! ما علاقة رقص الكاهنات

المقدس الذي يجعل التنورات ذات الدوائر، الشبيهة بتنوارت سيدات شابات يملكن أجسام راقصات باليه طويلة، تدور متطايرة، ومشهد رسوم ماري الجدارية حيث [نرى] الملك وهو يتسلم من الإلهة عشتار الشعارات المقدسة، بالاحتفال الكهنوتي في أرض الرافدين؟ إن ما يفتن في كريت هو الفكرة التي نكونها، عن حق أو باطل، عن حضارة «أخرى» حيث يسعى كل شيء إلى الجمال وبهجة الحياة، وحيث لا مكان للحرب (وعلى كل حال، لا وجود للتضحيات حول المدن الكريتية). [إننا نرى] على رسوم كنوسوس الجدارية الكاهن/الملك يسير بين الزنابق، ونساءً بفساتين فاتحة صفراء وزرقاء وبيضاء، عاريات الأثداء يرقصن أمام جمهور غفير جالس تحت أشجار زيتون زرقاء، وبهالين ذوي أجسام دقيقة يلعبون بين قرني ثور. إن نزعة طبيعية بسيطة وقوية هي المهيمنة: قشة من العشب، وباقة من الزعفران أو من السوسن، وقضيب من الزنبق الأبيض فوق مغرة مزهرية أو فوق اللون الأرجواني لجص جداري، أعواد وقصب تتزاوج وفق نموذج متصل يكاد يكون تجريدياً، وفرع مزهر من شجرة الزيتون، وأذرع ملتوية لأخطبوط، ودلافين، ونجمة بحرية، وسمكة مجنحة زرقاء، [هذه] كلها موضوعات في حد ذاتها، لكنها عولجت بحرّية ابتكار كبيرة. و[نرى]، ضمن خيال مبدع لعالم لا واقعي على نحو مرح، قردا أزرق يقطف زعفرانات، وطائراً من حجر الفيروز جاثماً على صخور حمراء وصفراء وزرقاء مشوبة بالبياض تزهر فيها ورود النسرين، وقطاً برياً يراقب، من خلال أغصان لبلاب خفيفة، طائراً بريئاً يدير إليه ظهره؛ وحصاناً أخضر يجر عربة الاهتين مبتسمتين.

إن الحضارة المسماة مسينية (من اسم مدينة مسينا في أرغوليدا)، التي ورثت الحضارة الكريتية، قد كانت في ذلك الوقت، ولمدة طويلة، في مدرسة هذه الأخيرة. هل دمّر التلاميذ الذين صاروا خطرين أستاذ[هم]؟ هذا ممكن. فالمؤكد، على كل حال، هو أن المدن المسينية: تيرانث وبيلوس وأرغوس وطيبة وأثينا ومسيناواصلت انطلاقها بعد الاندثار المفاجيء لكريت. فقد بنيت فيها قصور كبيرة على الطريقة الكريتية. واحتل التجار المسينيون، وهم يجوبون البحار كما كان الكريتيون يفعلون، مكانة راجحة في [بحر] إيجه. فهم يحلّون، بقوة، في قبرص ومصر وآسياالصغرى وسوريا ولبنان، وتجد الأواني المسينية، مثل الأواني الكريتية في السابق، نفسها منتشرة، كونياً، في الشرق

الأدنى. لكن الجو قد تغير: فالمدن المسينية المقاتلة والمنفتحة والمتنافسة أحيان تحيط نفسها بالأسوار. وستعرف، أخيرا، مصيراً مأساويا باختفائها كلها تقريبا أثناء مأساة أشد غموضا من المأساة التي قضت على كنوسوس.

## كوارث القرن الثاني عشر المظلم التي لم تفسر تفسيرا كافيا

إن القرن الثاني عشر قرن مظلم بين القرون المظلمة. فهل يمكن مقارنة كوارثه المتسلسلة بسقوط روما في القرن الخامس؟ لقد تم الدفاع عن ذلك. كان النور، على كل حال، هو السائد من البحر الإيوني إلى مصر وباقي الشرق الأدنى، ومع حلول القرن الثاني عشر سيحل الليل لمدة خمسة قرون إجمالا. لذلك لا سبيل لمقارنة معقولة بين نهاية روما التي لن تكون سوى ضربة فأس وبين هذه الظلمة الممتدة عبر قرون عدة والتي تجتاح كل شيء.

إن ما يختفي، حينئذ، هو الامبراطورية الحتية في آسيا الصغرى، هو الانسان الحتي؛ هو القصور المسينية التي أحرقت ودمرت عن آخرها (لقد تم العثور، في تيرانث، على المدافعين عند أسفل الاسوار تحت كتلة من الأنقاض المتكلسة). فهل تعود المسؤولية، في ذلك، إلى «شعوب البحر» الغامضة التي تذكّرنا بنورمانديي القرون الوسطى؟ إن هذه الشعوب - من هي؟ ومن أين أتت؟ - قد وُجدت حقيقة مادامت نصوص عديدة تتحدث عنها، ووصلت إلى حدود مصر حيث سُحقت مرتين: في سنة 1225 وفي سنة 1180 ق. م؛ [إذ هناك] نقش يخلّد انتصار الفرعون هذا. لكن مصر لن تفلت، بسبب ذلك، من الفاجعة، ذلك أن ما يختفي خاصة في المغامرة المضاعفة ولمدة طويلة هو مبادلات البحر الابيض المتوسط. فهذه الأخيرة قد ضؤلت واختفت؛ إذ لم تصمد أمام الحرائق والمذابح والأسوار المنهارة والمدن الهائجة، كأنها تجد لذة في ذلك، ولا أمام الحواضر المقتحَمة والمنهوبة.

كنا لا نزال، بالأمس، نفسر هذه المآسي بقدوم الهند - أوروبيين أي الدوريين. إنهم برابرة، فليكن، لكنهم يملكون أسلحة حديدية. لعلهم تغلبوا على المسينيين الذين لم يكونوا يعرفون سوى الأسلحة البرونزية. ولعل الوافدين الجدد طردوا، أمامهم، السكان المذعورين. وربما تكون شعوب البحر هي هذه الأقوام من الهاربين الذين سينهبون ويسلبون ويقتلون، هم

الآخرون، انطلاقا من بلاد الحتيين وصولا إلى مصر. هذا التفسير لم يعد مقنعا للاسف، ذلك لأن الدوريين، وهم آخر الغزاة الهند ـ أوروبيين لبلاد الاغريق القديمة، لم يأتوا إلا في نهاية القرن الثاني عشر، أي مائة سنة بعد ذلك على الاقل، ولم يحملوا معهم الحديد الذي جاء من مكان آخر. هذا ما يؤكده علماء الآثار اليوم.

لكن ما من تفسير يفرض نفسه، أيضا، ويصمد أمام متطلبات النقد. إننا لا نتوفر سوى على فرضيات ينبغي التحقق منها لا ندري كيف!

لقد دافع **كلود شيفر** (C. A. Shaeffer) عن أن الامبراطورية الحتية قد دمرتها الزلازل التي بلغت حدا أقصى في عنفها. هذا ممكن بل ومؤكد، إذ أن الهزات الأرضية كانت، دائما، عديدة في هذه المنطقة من آسيا الصغرى. لكن ذلك غير كاف لتفسير مجمل الظاهرة التي تتجاوز حدود الأناضول، ولا لتفسير دور شعوب البحر أو دمار المدن المسينية.

هل كان هناك ـ كما يظن ذلك رايس كاربنتر (Rhys Carpenter) في كتاب له حديث العهد ـ انقلاب في المناخ قد يكون أحدث خللا، أي جفافاً دائما وفاجعاً ومدمِّراً في النهاية؟ قد تمتد مدة [هبوب] رياح موسمية فتقصي المطر وتحوِّل المناطق الشاسعة التي كانت قاحلة، في ذلك الوقت، لكنها قابلة للزراعة، إلى صحاري. قد تكون المناطق المرتفعة القريبة من البحر والمعرضة، فضلا عن ذلك، للرياح الغربية مباشرة هي وحدها التي أفلتت من العدو المشؤوم: مثل خليج كورنثه (الذي تشير إليه التعليمات الملاحية باعتباره منطقة معرضة للتسبّب في تقلبات جوية عاصفية من ماي إلى يوليوز ومن شتنبر إلى أكتوبر)؛ ومثل منطقة أثينا، ومثل رودس أو قبرص أو ثيساليا أو الإبير. وفي أماكن أخرى ركب السكان، الذي طردتهم عدة محاصيل تافهة من بلادهم، البحر واجتاحوا، بكثافة، الأراضي التي كانت في مأمن نسبيا، وأحدوا الدمارات المسلسلة التي نعرفها. أما القصور المسينية فقد لا يكون الغزاة هم الذين دمروها وإنما السكان المحليون من الفلاحين الجائعين لأنها كانت دائما [عبارة عن] مخازن كبيرة للمواد الغذائية.

إن هذه التفسيرات تجعلنا نحلم، وتلك هي ميزتها وفائدتها. لكن المشكلة ستظل غامضة ما دام ينقصها قدر أدق من الوقائع. ينبغي [القيام بـ]

عدد أكبر من التنقيبات و[التوفر على] قدر أكبر من الكسور الخزفية المقنعة ومن التدقيقات الزمنية على الخصوص. وهذا كثير حتى وإن كانت إمكانات التأريخ الجديدة التي يوفرها الكربون الإشعاعي قادرة على توضيح أشياء كثيرة.

على كل حال هناك واقعة مؤكدة هي أن البحر الأبيض المتوسط الشرقي، قد عاد، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إلى مستوى الصفر، أو كاد، من التاريخ. فانقطعت مبادلاته، ومضى كل يحْيا لنفسه بصعوبة. وفقدت الامبراطوريتان اللتان ظلتا قائمتين كلّ إشعاع: فانطوت مصر على نفسها وعلى تمزقاتها الداخلية، وضاع تاريخها ضمن الاجتياحات المتواصلة، المتواضعة بهذا القدر أو ذاك، التي ترهقها. واختفت بلاد الرافدين ضمن اضطراباتها التي لا تكاد تُفهم، لكن أليس قدرها أن تكون منفتحة، بطبيعتها، على عوالم الصحراء والجبل - الرهيبة - المحيطة بها؟ أما الساحل الكنعاني - لنقل إنه، الآن، فينيقي - فيوجد دائما في مفترق طرق حياة هذين الوحشين اللذين يحتاج أحدهما إلى الآخر واللذين يخلق تلاقيهما، مقدما، الحياة البحرية للساحل اللبناني الضيق. في هذا المكان، أكثر من غيره، سيستمر عالم الشرق الأدنى في الحياة رغم تجزيئه وبلقنتـه إن صح القول؛ إذ تولد دويلات صغيرة دون أن نعرف السبب في ذلك، ثم يختل نظامها وتختفي. وهكذا تألفت دولة يهودية حوالي سنة 950 ق. م. ثم تفككت إلى شطرين: يهودا في الجنوب واسرائيل في الشمال. إنه يلزمنا، حقا، مجهر لتتبع هذه المسارات السياسية القصيرة. أما على الساحل الكنعاني فقد اختفت أوغاريت وانحطت بيبلوس وعوضتها صيدون [صيدا حاليا]، وحوالي سنة ألف ق. م. صارت صور هي المدينة المهيمنة. لقد بدأت فينيقية تحيى متجهة نحو البحر في حين لم تفتأ الحرب تعيث فسادا في كل مكان.

كيف لا نستغرب كون ثورتين قويتين قد تطورتا وسط هذا التاريخ الغامض؟

[تكمن] الاولى في انتشار صناعة الحديد. فالحديد المُفَوْلَذ المصلّب عن طريق مزجه بالكاربون الآتي من القوقاز أو من سيليسيا قد بقي مدة طويلة حكـرا على الحثيين. وربما سهّل تشظي امبراطوريتهم تشتت زمر من

الحدادين، الشخصيات الشيطانية في نظر غيرهم من البشر. لكنهما تشتت وانتشار كانا بطيئين. إذ لم يصبح الحديد ذا استعمال عادي قبل القرن العاشر ق. م. حين انخفض سعره في بلاد الرافدين.

أما الثورة الثانية فـ[يمثلها] ظهور الكتابة الألفبائية. لقد عرف الشرق الأدنى الكتابة في العصر البرونزي: [عرف] الحروف الهيروغليفية في مصر، والخط المسماري في آسيا الصغرى، والحرف الخطي A والحرف الخطي B في كريت (وهو الوحيد الذي فكت رموزه والذي كشف عن لسان مرتبط باللغة الإغريقية). فهذه الكتابات المقطعية المعقدة المعدَّة لاستعمال الأمراء كانت تتطلب فنانين وكتبة وقد نقول «موظفين كبارا». إن الثورة التي اختصرت الحروف الهجائية بين القرن الرابع عشر والقرن العاشر ق. م قد تبلورت في سوريا بمعناها الواسع. كانت هناك ثورة وشيكة الوقوع: كان الأمر يتعلق بإحلال كتابة سهلة [تكون في متناول] التجار المستعجلين وقادرة على تدوين ألسن مختلفة، محلَّ الكتابة الخاصة بالكتبة والأمراء. وليس من المدهش أن يكون هذا المجهود قد بذل في مدينتين مختلفتين في الآن نفسه، وكلتاهما مدينتان تجاريتان رائعتان: هما مدينة أوغاريت التي اخترعت أبجدية من واحد وثلاثين حرفا وتستعمل الحروف المسمارية، وبيبلوس [التي اخترعت] أبجدية خطية من اثنين وعشرين حرفا ستكون، في النهاية، أبجدية الفنيقيين. وقد علّمها الفنيقيون للإغريق الذين كيفوها مع لسانهم في القرن الثامن قبل الميلاد دون شك.

ربما لا تكون الأبجدية قد ذاعت عبر طرق العالم بشكل أسرع من ذيوع النقد الذي سيقوم، بعد ظهوره في القرن السابع ق. م.، بقلب أوضاع المبادلات. لكن من يجرؤ على أن يرفض وصف أول أبجدية أو أول قطعة نقدية بصفة الثورية التي تستحقها؟

## الغرب الأقصى من البحر الأبيض المتوسط

ومع حلول القرن الثامن ق. م عرف الشرق الأدنى ازدهارا جديدا. فقد عادت الحياة إلى البحر مع موانىء فينيقية النشيطة والمدن الإغريقية. وبفضل هذه الموانىء والمدن وسفنها وبحارتها سيتم انجاز غزو حقيقي لغرب

البحر الأبيض المتوسط. وبعد إتمام هذا الاستعمار سيمتد تاريخ البحر الأبيض المتوسط، دون توقف، من المشرق إلى أعمدة هرقل.

لقد تمت مقارنة هذه الحركة في اتجاه الغرب، ابتداء من القرن الثامن ق. م.، باستعمار القارة الأمريكية انطلاقا من أوروبا بعد 1492م. وهي مقارنة واضحة وضوحا كافيا؛ إذ يتعلق الأمر، في كلتا الحالتين، باستعمار يذهب مسافة طويلة، لملاقاة أراض جديدة غير خالية من السكان. فلأمريكا، قبل أن يكتشفها كولومبوس، مواطنوها الأصليون، وللغرب الأقصى المتوسطي سكانه الذين [دفعتهم] الزراعة، في ذلك الوقت، إلى الاستقرار. وقد تم تأسيس مدن جديدة، بطرق سلمية أو غيرها، على شواطىء تستند إلى بلدان شاسعة فضولية ومهتمة، أو عدوانية وخطيرة حسب الأحوال والمراحل. وإذا تحدثنا عن أمريكا فلأن المعمرين وجدوا على هذه الأراضي النائية شروطا حياتية أفضل بكثير من تلك التي وُجدت في بلاد الاغريق أو في فينيقية، أكثر من أي سبب آخر. ففي الغرب كل شيء أكبر وأغنى. انظروا إلى شريط المدن الاغريقية في صقلية وأغريغنتا وسلينونتا بآثاراتها العظيمة، وقرطاجة، «المدينة الجديدة»، أيام إشراقها ستكون أكبر من صور عاصمتها عشر مرات.

[كانت] هناك ثلاث طرق بحرية تخترق البحر الأبيض المتوسط من أقصاه في اتجاهات توازي خط الاستواء.

فالطريق الأولى اللصيقة بسواحل الشمال وباليونان وجزرها ستمضي إلى أفق كورسيرا (كورفو). ومن هناك تعبر سفينة شراعية خفيفة، إن كانت الرياح ملائمة، قناة أوترانتي في أقل من يوم. وسيقودنا مجرى الشاطىء الايطالي حتى البحر التيريني أي حتى الساحل الصقلي. هذه الطريق هي طريق الملاحة الاغريقية المعترف بها منذ المرحلة الميسينية. والطرق الجنوبية تمتد على طول الساحل الافريقي من مصر الى ليبيا الى إفريقية. وعند نهاية الخط ينفتح مضيق جبل طارق ـ أعمدة هرقل.

أما الطريق الثالثة فتمر عبر وسط البحر مستندة الى سلسلة من الجزر: قبرص وكريت ومالطا وصقلية وسردينيا والبليار. وكان الفينيقيون يستعملون

هذه الطريق الوسطى، رغم أنها تجبرهم على مواجهة أعالي البحر، مثلما كانوا يستعملون الطريق الجنوبية مادامت التنقيبات ربابنة رائعين؟ «كان حكماؤك، يا صور - يقول إيزخيل - على ظهر السفينة ملاحين. . . وفي أعالي البحر [التشديد مني: ف. ب] كان جدافوك يقودونك». لقد كان الفينيقيون روادا وهم يسافرون، ولو ليلا، ويهتدون بفضل نجم الدب الأصغر. فهم الذين فازوا في السباق باتجاه الغرب.

## لن نتحدث عن غير الفينيقيين

كان التاريخ القديم، بالأمس، خاضعا للهوى الاغريقي. وكان يتم، وبإصرار، إنكار، إمكانية أية أولوية لفينيقية. والحال ان فيكتور بيرار (V.Bérard) (1864 - 1931) المدهش الذي اتهمه المدافعون عن التاريخ الرسمي طوال حياته بأنه فينيقي الهوى، كان على حق بل وأكثر مما كان يفترضه. فثلاث وقائع صغيرة، وحدها، تقيم تسلسلا للأحداث يكاد لا يناقش على ما يبدو: أولاها اكتشاف نقش متضرر ظل مختفيا ومؤرخ بالقرن التاسع ق. م في متحف قبرص (1939). وينبغي تقريب كتابته - وهذه هي الواقعة الثانية - من نقش فينيقي شاذ، عثر عليه في سردينيا ويوجد حاليا في متحف كاغلياري. فالكتابة المماثلة تعني تأريخا مماثلا كما يقول أحد علماء الآثار (1941)؛ ومنذئذ تم العثور على بقايا نقوش مماثلة في سردينيا - وهذه هي المجموعة الثالثة من البراهين الجديدة.

حتى أن أطروحة ساباتينو موتشاتي (S.moschati) (1966) تستميلنا بقربها من الحقيقة. إن ثلاثة قرون على الأقل، هي الحادي عشر والعاشر والتاسع، تفصل سقوط مسينا عن أول تحرك إغريقي للتوسع في اتجاه الغرب. «إنه لمن الطبيعي، يقول موتشاتي، أن يدخل التوسع الفينيقي في هذا الفراغ التاريخي». فقد تكون فينيقية استفادت من تخفيف نشاط الملاحة «الإغريقية» لاستغلال البحر النائي. هكذا، في عصر «القرون المظلمة»، وقبل الاغريق، تم أول غزو للغرب لفائدة «الشرقيين». أليس محكوما على فينيقية بطبيعتها، فضلا عن ذلك، أن تستعمل البحر مهما كلف الامر؟

ان فينيقية عبارة عن شريط من الموانىء الصغيرة المستندة الى الجبل، والواقعة على شبه جزر وجزر صغيرة وكأنها أرادت ان تكون غريبة عن القارة العدوانية في معظم الأحيان. فقد كانت صور، المرتبطة اليوم باليابسة بواسطة التطمّي، مشيدة على جزيرة ضيقة. وكانت المدينة تجد في ذلك ما هو جوهري: دفاعا فعالا، ومينايين أحدهما في الشمال ويربط المدينة بصيدون والآخر في الجنوب خاص بالعمليات التجارية في اتجاه مصر، ومنبعا فائرا من الماء الصالح للشرب حُبس في البحر وسط مياهه. أما الباقي: المؤن والزيت والخمر والمواد الأولية، فكان على البحارة أن يجلبوه.

إن مدنا من هذا النوع لا يمكنها أن تعيش الا من التجارة والصناعة. فالمدن الفينيقية مضطرة للاتجار بمنتوجات صناعتها الخاصة وتصديرها كي تشتري من الخارج المؤن التي تنقصها، وكي تعوض اختلال التوازن الدائم المترتب عن ذلك. إنها تتوفر على حرفيين وحدادين وصائغين وبنائي سفن. وأثوابها الصوفية قد ذاع صيتها، ولا تقل عنها ذيوعاً أصباغها المستخرجة من صَدَفة هي المُرّيق، تتنوع من اللون الوردي إلى الأرجواني والبنفسجي. زيادة على أن الفينيقيين، في ملتقى الطرق هذا حيث يوجدون، يحتلون مكانا جيدا لتقليد أساليب الغير وتقنياتهم كلها مثل الخزف الأزرق أو المصنوعات الزجاجية المصرية المتعددة الألوان. وهذا لا يمنعهم من أن يبيعوا، في كل مكان بدون تمييز، المنتوجات الأجنبية.

فتجارتها تمسك في شباكها بالمشرق كله، إذ تصل الى البحر الأحمر وتغوص نحو المحيط الهندي. وعندما يتم اكتشاف الغرب ستمتد الى جبل طارق وستجازف في المحيط الأطلسي. [هناك] فقرة في التوراة تشير، كما يبدو، الى أن سفينة ما جهزها الملك سليمان منضمة إلى الأسطول الفينيقي سترحل الى حد إسبانيا النائية، الى طرتسوس وستعود منها في ظرف ثلاثة أعوام. لقد كانت شجاعة الرجال ومهارتهم عاملين حاسمين في هذه النجاحات البحرية.

لكن التقنية كان لها قسطها [في ذلك]، وخاصة استعمال قار البحر الميت لجلفطة هيكل السفن به، حسب رأي سنتاس (P. Cintas). وكان القار، فضلا

عن ذلك، مستعملا في قرطاجة لتزفيت الجدران الطينية للمنازل من الخارج، وقد تحدث بلين (Pline) عن «السطوح المزفتة» للمدينة. وهذا ما يفسر حريق سنة 146 ق. م المهول. هل كان في إمكان الرومان تدمير المدينة الواسعة عن طريق النار تدميرا تاما دون القار، الوقود المفضل، الذي يعثر المرء قب اليوم على «طبقات صغيرة منه» ضمن طبقات الرماد التي دفنت تحتها المدينة البونيقية؟

## قرطاجة أو فينيقية النفَس الثاني

لم تمثل قرطاجة ضمن الخط الرابط بين صور وإسبانيا، ولمدة طويلة، سوى محطة توقف، إذ كانت فينيقية تحتفظ لنفسها بدور البلد الأصلي. لكن النظام سيختل في القرن السابع [ق. م].

فلم يعد الفينيقيون يصادفون الفراغ المتوسطي، كما كان الامر أيام النجاحات الأولى، بل أصبحوا يلاقون منافسة الأتروريين، زيادة على منافسة الإغريق. إضافة الى أن فينيقية خاضعة لتعسفات الأشوريين المقيمين في قبرص منذ سنة 709 [ق. م]. لقد قاومت [مدن] أرادوس [رواد] وبيبلوس وصيدون وصور، لكن ضاع كل شيء مع احتلال الأشوريين لمصر. ومنذئذ سيستسلم «ملوك» المدن الفينيقية. «لقد أخضعتُ ياكيم لو، ملك أرادوس التي توجد وسط البحر [فأرادوس تحتل فعلا جزيرة .ف. ب]، الذي لم يستسلم إلى الملوك أسلافي، يقول نص لأشور بانيبال، لسلطتي. وقد جاءني هو نفسه بابنته، مع مهر نفيس، إلى نينوى لأجعل منها محظية لي وقبّل قدميّ». وقد أضطر «بعل» مدينة صور أن يسلم، هو الآخر، إحدى بناته وبنات إخوته بل وابنه الـذي رده أشور بانيبال إليه. وفي سنة 574 [ق. م.]، وكانت الامبراطورية الأشورية قد سقطت قبل ذلك بثلاثين سنة، وكان في إمكان كل إنسان أن يتنفس بحرية، استولى نبوخذ نصر البابلي على مدينة صور.

وستدفع هذه الحروب واضطرابات المدن وانقطاعات الروابط التجارية مدينة قرطاجة لتصير مدينة هامة. فقد كانت قرطاجة ، المدينة الجديدة، النامية «على الطريقة الامريكية»، مكان الامتزاجات المفضل. وهي «أمريكية» أيضا بحضارتها العادية التي تفضل المتين على التنميق. وقد جذبت

ديناميتها نحوها، فضلا عن ذلك، بحارة وحرفيين ومرتزقة من كل الأفاق. لقد كانت قرطاجة، بصراحة، مدينة جامعة لمختلف الأجناس.

ورغم ذلك لم تفتأ تعيش، بقوة، على الطريقة الفينيقية. أولا لأنها استمرت في العيش على البحر ومن البحر. بل إنها أدامت تقليد اكتشافات صور البحرية. ولاشك أن الصوريين كانوا قد أنجزوا، عبر البحر الاحمر حوالي سنة 600 [ق. م]، الرحلة البحرية الافريقية تحت أوامر الفرعون نشاعو. لقد تعرفت سفن قرطاجية بقيادة هيميلكون، في بحثها عن القصدير، حوالي سنة 450، على سواحل أوروبا الأطلسية وصولا إلى الجزر البريطانية (الجزر الكسيتيرية). وبعد ذلك بربع قرن كان حنون يتعرف، جنوبا هذه المرة، على سواحل افريقيا الأطلسية، إلى حدود الغابون والكامرون حاليا، بحثاً عن مسحوق الذهب.

إن الفرق هو أن قرطاجة، على عكس مدن فينيقية، لم تكن مؤخراتها مهدَّدة من طرف امبراطوريات مخيفة. لقد صارت مراسي الساحل الإفريقي: كونو وجيجلي والجزائر وشرشل وغورية وتينس، التي سيطرت عليها تدريجيا، قرى كبيرة أو مدنا ـ بعد أن كانت في البداية مجرد وكالات تجارية ومخازن للسلع ـ تقيم علاقات مع داخل البلاد. فهناك، إذن، تكافل متنام بين قرطاجة والمدن البحرية الأخرى وبين إفريقيا الشمالية. إن هذه الأخيرة، بمجرد خروجها من العصر الحجري، ستحصل على كل شيء، تقريبا، من سادتها: [ستحصل على] الأشجار المثمرة (شجرة الزيتون والكرمة وشجرة التين وشجرة اللوز وشجرة الرمان)، وأساليب الحرث وإنتاج الخمور وعدد من التقنيات الحرفية. لقد كانت قرطاجة مربيتها وكان تشبعها بها عميقا، حتى أن الفلاحين الأفارقة، أيام القديس أوغسطين عندما انهارت الامبراطورية الرومانية، كانوا لا يزالون يتكلمون باللغة القرطاجية ويدعون أنهم كنعانيون: «وكان فلاحونا حين يُسألون هل هم قرطاجيون يجيبون بأنهم كنعانيون».

### بين المقايضة والنقد

استفادت قرطاجة، [من موقعها في] تقاطع البحرين المتوسطين الغربي والشرقي، من تغير هائل في المستوى الاقتصادي. فالغرب بربري ومتخلف

وتغترف منه قرطاجة كل شيء بأسعار زهيدة، بما في ذلك المعادن: القصدير من [الجزر] الكسيترية ومن الشمال الغربي الإسباني؛ والرصاص والنحاس وخاصة الفضة من الأندلس وسردينيا، والذهب المسحوق من إفريقيا السوداء - بما في ذلك العبيد، ومن أي مكان يمكن الإمساك بهم ولو في وسط البحر. إن التاجر القرطاجي يحمل إلى الغرب منتوجاته الصناعية ومنتوجات الغير، زيادة على التوابل العقاقير الآتية من الهند عبر البحر الأحمر. وتتم المبادلات عن طريق المقايضة. وفي هذه الشروط لم يظهر النقد إلا متأخرا، في القرن الخامس - لا قبله - في صقلية القرطاجية، وفي القرن الرابع، فقط، في قرطاجة ذاتها. هل ينبغي أن نفرط في الاندهاش من ذلك؟ لا، ذلك أن الأمر لا يمكن أن يتعلق بجهل مطبق، إذ كان لصيدون وصور نقدهما. [هناك] تفسير واحد ممكن: أن قرطاجة لم تحس بالحاجة إليه. وهذا ما سيقع - مع مراعاة تغير الظروف - بالنسبة للصين: فرغم كونها مبدعة في هذا الميدان (إذ عرفت حيلة النقد مبكرا، بل وحيلة الأوراق النقدية) فإنها أبطأت كثيراً في استعماله. ألم تكن محاطة، مثل قرطاجة، في اليابان وأندونيسيا وأرخبيل جنوب شرق آسيا، باقتصادات متعثرة تسهل الهيمنة عليها وتعيش من المقايضة؟

وهذا لا يعني أن غياب النقد، في مواجهة اقتصادات منافسة، لم يكن ضعفا في نهاية الأمر. وإذا كان «ارتقاء» الإغريق الاقتصادي واضحا، منذ القرن الخامس، وفي قرطاجة بالذات التي غزتها صناعة طرف منافسيها، فإن تفوقهم النقدي هو أحد تفسيراته الممكنة.

كما أن بعض المؤلفين يستغربون من التطور الضعيف للصناعة المعدنية القرطاجية في الوقت الذي كانت فيه المدينة تسيطر على عدد كبير من المناجم. ربّما تكون قرطاجة قد أخطأت، في انشغالها بذهاب/إياب ملاحتها المذهل، باختيارها للحلول التي تقدمها لها تسهيلات حياتها التجارية، وبيعها، في غالب الأحيان، للمنتوجات التي صنعها الأخرون. هل يعتبر ذلك ضعفا حقا؟ لن يتصرف الهولنديون الذين يعتبرون، هم أيضا، جوّابي بحار وأسياداً لأوروبا في القرن 17 م، على نحو مختلف، إذ يشترون هنا ويبيعون هناك. وكان القرطاجيون، مثلهم، ناقلين ووسطاء يشترون بيد ويبيعون بالاخرى. وعرفوا، مثلهم، كيف يدافعون عن مواقعهم وخاصة عن احتكارهم لمناجم

إسبانيا (المحظورة على الأترورين والإغريق ثم الرومان)، وكيف يدافعون عن مراسيهم البحرية وصناعاتها الكمالية وعن تجارة قوية بالجملة للقمح.

طبعا لم تعرف حياة المدينة الكبيرة ولا فنها كيف يحميان نفسهما من العدوى الثقافية الهائلة التي تُهلّن البحر الأبيض المتوسط كله. ألم يكن تبني الأسلوب المهيمن (الأسلوب المصري قديما) تقليدا فينيقيا؟ وسنجد تأثير الأشكال الهلينية سواء على الساحل الفينيقي أو في قرطاجة. وقد استوردت هذه الأخيرة البيت الإغريقي، دون تردد، بفنائه الوسطي وأوانيه المزخرفة وإسمنته المائي وتوابيته وآلهة بطبيعة الحال (ديميتر وكوري حوالي سنة 396)، لكنها استوردت الأفكار الفيتاغورية كذلك. فمثال الاسكندر الأكبر هو الذي سيلهم أميلكار، أب هنيبعل، عندما سيشرع في غزو إسبانيا؛ بل إن هنيبعل نفسه معجون بالثقافة الإغريقية، بل حتى استعمال فيلة مغطاة بأثواب مبرقشة، وهي سبب ذعر الجندي الروماني، مستعار من العالم الهليني.

اكتشاف المدينة:

لم يكن موت قرطاجة، التي دمرها الرومان سنة 146 ق. م، موتا عاديا. فقد دُكّت المدينة المحروقة من أسسها. وبعد ذلك بنيت فوقها مدينة رومانية، حتى إن الحفريات لا تسمح أبدا بإعادة إنشاء أي شيء ذي قيمة عن حياة المجتمع القرطاجي.

إننا نتخيل، بالكاد، المدينة ذاتها على هضبة بيرسة (وهي هضبة سان لوي الحالية) بمعابدها ودورها المرتفعة ذات الطوابق المتعددة مثل كل المدن الفينيقية تقريبا، وأحواضها والماء المحبوس فيها والمسمى الماء ذا الألف جرة، والتي تمثل قببها الجميلة، رغم تعديل روماني قوي، الشيء الوحيد المتبقي من الهندسة القرطاجية الأصيلة.

غير أن تنقيبات حديثة قد كشفت حيا من المدينة القرطاجية تحت المدينة الرومانية بثلاثة أو أربعة أمتار. وقد ثبت أن قرطاجة كانت تملك طرقا مستقيمة ذات أدراج موصّلة زيادة على نظام لمجاري المياه شبيهة بمجاري المدن الصقلية.

وعلى شاطىء سالاميو، ها هما الميناءان - الشبيهان بالموانىء المزدوجة القديمة العديدة [مثل] كنيد وديلوس وعشرة موانىء أخرى - الميناء المستطيل الذي ترسو فيه السفن التجارية، والميناء الدائري حيث تُجرّ السفن الحربية خارج الماء في غالب الأحيان، تحت قبب الورشة.

وتحيط بالمدينة المحصنة القائمة على [هضبة] بيرسة وبأحيائها الآهلة بالسكان والمجمعة حول الميناء أسوار ضخمة مزدوجة أو ثلاثية من جهة البر. وفي منتصف الطريق بين الميناء وبيرسة [توجد] ساحة عمومية تذكرنا بنوع من الأغورا [الساحة العمومية الإغريقية]. وشمالا [توجد] ضاحية المغارة التي تتناثر فيها الحدائق والبساتين والفيلات الأرستقراطية. أما عدد السكان فضخم قد يصل إلى مائة ألف نسمة. فإلى جانب بعض الأغنياء الذين يحكمون تتكدس عامة من الحرفيين والعمال والعبيد والبحارة، والجنود المرتزقين عند الحاجة.

و [توجد] حول المدينة حقول رائعة. فهناك، لدى الأغنياء، بداهة، ميل للأراضي المحروثة حرثا جيدا، وللحدائق الجميلة، وللأشجار المطعمة، وللحيوانات المصطفاة. إن عالماً زراعيا قرطاجيا، هو ماغون الذي وصلتنا فقرات من [كتاباته] بطريقة غير مباشرة، يعطينا مائة طريقة حول كيفية غرس الكروم لصيانتها من الجفاف المفرط في الشدة، وحول إنتاج الخمور الممتازة، وزراعة شجر اللوز، وحفظ الرمان في الطين، وحول الصفات المتوخاة في سلالات الثيران، الخ. ويضيف، من أجل الملاك القروي، نصيحة ذات دلالة رغم كل شيء: «من اقتنى أرضا عليه أن يبيع بيته مخافة أن يفضل إقامته المدينية على إقامته في الحقول.»

## تحت علامة طانيت

إن التنقيبات التي أُجريت على موقع قرطاجة لم تكشف سوى عن آلاف الأموات المحروقين أو المدفونين وعن الأشياء التي ترافقهم داخل قبورهم. وتُعدّدُ المئات، بل الآلاف، من شواهد القبور والأنصاب التذكارية أسماء الآلهة بكيفية رتيبة. وهذا لا يكفي للوصول إلى جوهر ديانة أرعبت غرابتها الرومان (لم يكن الرعب متكلفا فقط) ولا نعرف ميثولوجيتها ولا لاهوتها ولا

«رؤيتهـا للعـالم»؛ فضلا عن أننا لا نعرف الديانة الفينيقية التي تنحدر منها الديانة القرطاجية سوى معرفة سيئة.

إن البانثيون الفينيقي يهيمن عليه، عموما، ثالوث يجمع، تحت أسماء تتغير من مدينة لأخرى، ملك الآلهة وإلهة ـ أم للخصوبة وإلها شابا قدره أن يولد كل سنة ويموت ويولد ثانية مثل النباتات أثناء الفصول [الأربعة].

فهذه الديانة تغوص في الكون القديم جداً للخيال السامي القريب من الارض والجبـال والمياه؛ وطقوسها القاسية والبسيطة طقوس كان شعب من الرحّل يقيمها قديما في الهواء الطلق.

إن حياة قرطاجة الدينية تتبع، في الأصل، نموذج صور بهذا القدر أو ذاك. فالإلاه المهيمن هو بعل حامون، والإلهة ـ الام، أخت أستارتي أو عشتار الرافدية، ستكون قريبا هي طانيت التي يطرح اسمها المجهول تقريباً في أماكن أخرى مشكلة لا حل لها؛ والإلاه الشاب، إلاه القرص الشمسي أو النبات، هو إما ملكارت إلاه صور، وأما إشمون، الإلاه الشافي، الذي يُخلط بأبولّو وأسكليبيـوس، كما كان ملكـارت يخلط، تبعا لذلك بهراكليس. ولم يفض التنافس بين الطقسين إلى استبعاد هذا ولا ذاك. وسيكون ملكارت إلاه عائلة البارسيين الكبيرة دون منازع الذي ستنسخ على اسمه الأسماء المألوفة [مثل] بوميلكار وأميلكار. وسيكون معبد إشمون على القسم الأعلى من بيرسة؛ وهو أجل معبد في قرطاجة، المعقل الأخير للمدافعين عنها سنة 146.

إن الخصوصية الكبرى للديانة القرطاجية تكمن في الصعود الكاسح لعبادة طانيت التي أبعدت، ابتداء من القرن الخامس، الإلاه العجوز بعل حامون. ومنذ ذلك الحين وقرطاجة تعيش تحت «علامة طانيت»: مثلث يعلوه قرص وبين الأثنين يوجد خط أفقي. ويستحضر الكل، بسهولة، صورة بشرية خاصة عندما ينتصب حدّاً. الخط الأفقي وكأنهما ذراعان مرفوعتان.

فالمؤكد هو ثقل الديانة القرطاجية المزعج، وهي ديانة رهيبة ومهيمنة. وليست القرابين البشرية ـ وهي تهمة غالبا ما يرويها اللاتينيون ـ سوى [وقائع] مفـرطـة في واقعيتها: فقد كشف «التوفير» (Topher)، محراب سلامبو، عن الآلاف من الأواني الفخارية التي تحتوي على عظام الأطفال المكلسة. وكانت

قرطاجة تقدم لآلهتها أبناء مواطنيها المرموقين قرابين لها عندما كانت تريد تجنب خطر ما. وكانت هذه هي الحالة عندما نقل أغاتوكليس، الذي كان في خدمة سيراكوز، الحرب إلى تراب قرطاجة ذاته؛ إذ اتخذ قرار بتقديم مائتي طفل قرابين تكفيرية من أبناء مواطنين مشهورين ارتكبوا، آنذاك، إثم إبدال أبنائهم بأطفال تمّ شراؤهم.

هل يلطخ دم الضحايا اسم قرطاجة؟ إن الديانات البدائية قد عرفت كلها، عمليا، مثل هذه الممارسات. فقرطاجة تسير، في هذه النقطة، على نهج كنعـانيي بيبلوس أو سامي إسرائيـل: ألم يكن ابـراهيم يتهيأ للتضحية بإسحاق [حسب «التوراة»]؟ بيد أن المدهش هو أن الحياة الاقتصادية، في قرطاجة، تعدو نحو المستقبل في الوقت الذي تتأخر فيه الحياة الدينية قرونا وقرونا إلى الوراء، دون أن تخلصها «ثورات» ها نفسـها ـ ثورة عبادة تانيت في القرن الخامس ـ إطلاقا من الورع اللا إنساني والمرعب. إن المفارقة صارخة مع الانفتاح الإغريقي الذي يوفق بين الإنسان والعالم الخارجي. [أما] هنا فإن حياة الأعمال الباهرة بل ذات الروح «الرأسمالية»، يقول أحد المؤرخين بدون تردد، تتصـالح مع عقلية دينية متخلفة. ماذا كان ماكس فيبر (M.Weber) سيقول في ذلك؟

سيوجد، من الآن، بحران متوسطان

لقد تحدثنا عن الأسباب التي دفعتنا لتوضيح التوسع الفينيقي وإبرازه قبـل إبـراز استعـمار المـدن الإغريقية المعروف على نحو أحسن في الفصول القادمة. لكن هناك سببا آخر [دفعنا لذلك] هو أن التاريخ الفينيقي يشهد، أيضا، على ما بعده هو ذاته.

إنـه، فعلا، فصل من فصول تاريخ البحر الأبيض المتوسط «الآخر لاغير»، تاريخ يتمفصل على طول السـواحل الصحراوية من البحر الداخلي، من الشرق الأدنى إلى أعمدة هرقل. تاريخ لا تمسك القصص العادية دائماً به في قوته الفريدة وفي وحدته، ويعيد النظر في لوحاته الأخرى وفي أنماط أخرى من الواقع البشري غير لوحات وأنماط البحر الأبيض المتوسط الكلاسيكي، أي تاريخ الاغريق والرومان، أي ذاك الذي سيصير هو الغرب، هو بحرنا

الأبيض المتوسط. فالأشوريون يسجلون، باستيلائهم على مصر سنة 671 ق. م، المحاولة الأولى الناجحة لتوحيد الفضاء «الشرقي». أما المحاولة الثانية، وهي أوسع من الأولى، إذ ستستمر لمدة أطول، فتكمن في غزو فارس لمصر سنة 525 ق. م. والحال أننا إذا أضفنا الفضاء القرطاجي إلى «العظمة الفارسية» فسنحصل، بالضبط، على العالم الذي كان، ولا يزال إلى اليوم، هو العالم الإسلامي. فالفضاء الفينيقي يعتبر هوائية بحرية لتوسع الشرق الأدنى.

لقد كان من الممكن، في لحظة معينة، أن تسيطر قوى الشرق المتحالفة على البحر الأبيض المتوسط بكامله. وقد حاربت المدن الإغريقية، وهي المنافس المباشر للفينيقيين على امتداد البحر، ضد خطر هذا الغزو. بيد أن الرومان وحدهم، في سنة 146 ق. م.، كانوا يملكون القوة الضرورية لتكسير المحاولة وهدم قرطاجة بل وللتوجه، أخيرا، نحو الشرق الأدنى كغزاة.

لكن روما لم تولد من الفراغ. فقد أخضعت واحدا واحدا ومن الداخل في الغالب، الشعوب التي لم يقم المحتلون الإغريق والفينيقيون - على السواحل الإيطالية والفرنسية والإيبيرية - إلا بمراقبتها من بعيد. إنها شعوب نعرفها معرفة سيئة، ويعود ذلك، في جزء منه، إلى أن الثقافة الرومانية قد طمستها بسرعة، وفي الجزء الآخر إلى أن التاريخ كان يهتم، عن بعد كاف ولمدة طويلة، بهؤلاء «البربر» الذين كانوا يعرفون الزراعة طبعا، لكنهم لم ينجزوا، في عهد بلاد الرافدين ومصر وطروادة وكريت والكنعانيين والحتيين، ثورتهم المدينية بعد، ولا الثورة الكبرى للمبادلات البحرية للشرق الأدنى ولا ثورة الكتابة.

وأن نعتبر، بسبب ذلك، أن كل ما خلفوه من أشياء رائعة كان مجرد استعارة من الشرق «المتحضر»، أمرٌ لا تفصلنا عنه سوى خطوة واحدة، وقد تم خطوها خطأً كما يدل على ذلك تسلسل الأحداث القائم على تحليل الكربون الإشعاعي. وهكذا فإن معابد مالطا العجيبة ونوراغيات (nourraghi) سردينيا و [جزر] الباليار وأسوار إسبانيا الجنوبية وقبورها المغليثية الضخمة - حتى لا نتحدث عن المغليثات المزروعة على طول الساحل الأطلسي إلى الدانمارك والنرويج - إن كل هذا الذي كان يُنظر إليه باعتباره انعكاسا لـ «تأثير مسيني» أو نتيجة لأول عملية استعمار متفرق قام به الشرق الأدنى في الألف الثانية ق. م.، كل هذا تكشّف اليوم عن أنه أقدم من مسينا بكثير، بل وأحيانا أقدم من

صروح مصر نفسها. فكتاب كولان رنفريو (C.Renfrew) المستفز حول ما قبل الحضارة هذه يقول ذلك بطريقة مقنعة.

إن التنقيبات المتبعة منذ عشر سنوات في سردينيا، هذه الجزيرة التي لا زالت معزولة إلى اليوم عزلة كبيرة، والتي خلق فنها المدهش، دائما، في الألف سنة الأولى قبل الميلاد (وخاصة التماثيل البرونزية الصغيرة المعبرة جدا) مشاكل لعلماء الآثار بسبب فرادته ذاتها. ففي ثاروس، التي كان الفينيقيون يملكون قاعدة هامة فيها، تمّ حديثا اكتشاف توفيت (Tophet) أي محراب [من المحاريب] التي كان يُقدّم فيها الأطفال قرابين، والأسوار الضخمة الفخمة التي تحمي المدينة لا من جهة البحر وإنما من جهة البر. بل تم العثور على سلسلة من الحصون الداخلية التي توضح أن الفينيقيين أرادوا السيطرة على داخل سردينيا ومناجم فضتها وإن لم يتمكنوا من ذلك إلا ببناء نوع من الحدود المحصنة ضد السكان الأصليين. وكان يوجد فعلا، في الجانب الآخر من خط الحصون، شعب ذو ثقافة قديمة جدا كان قد بنى في الماضي النوراغيات الشهيرة، تلك الأبراج التي كان في إمكانهم مراقبة الأفق من أعاليها.

لقد دافع سكان سردينيا، إذن، عن استقلالهم المادي والثقافي. والاكتشافات الحديثة لسلسلة من [المتوجات] البرونزية الفينيقية الصغيرة في سردينيا تشير، بشكل جلي، إلى أن فن سابكي البرونز السرديين الشهير قد وجد أصله في إلهام الفينيقيين والقرطاجيين وربما في تقنياتهم المعدنية. لكنهم امتلكوها وخلقوا منها فناً يترجم، بعيدا عن أي تقليد، ثقافة راسخة ومستقلة في لغته الخاصة به.

نقل النص عن الفرنسية: محمد بولعيش

* عن كتاب بروديل: «البحر الابيض المتوسط. : الفضاء والتاريخ» (La Méditerra- née: l'espace et l'histoire») ، الفصل الثالث، تحت عنوان «الفجر» («L'aube») ، فلاماريون، باريس، 1985، ص ص: 83 ـ 123.

# تاريخ المتوسط

## فرنان بروديل

**يتضمن مجمل تاريخ البحر الأبيض المتوسط (أي [ما يتراوح بين] ستة وعشرة آلاف سنة من التاريخ ضمن عالم ضخم قياساً إلى الناس، عالم مفكك ومتناقض أفاض علماء الآثار والمؤرخون في درسه)، ركاماً من المعارف يتحدّى كل توليف معقول. فماضي البحر الأبيض المتوسط هو، حقاً، تاريخ متراكم على شكل طبقات يماثل سمكها تاريخ الصين البعيد.**

**الأسبقية للحضارات:**

إذا أردنا أن نعطي، مهما كلف الأمر، رؤية شاملة سريعة، فينبغي أن نختار خيطاً هادياً. ومن الأفضل، كي نبتّ في ذلك، أن نسائل، في البداية، البحر الأبيض المتوسط ذاته مساءلة متمعنة، أن نسائل البحر المتوسط [كما هو] اليوم باحثين عما يمكن أن يكون أساس حياته الحاضرة، وتوازنه المرئي، وتوازناته الماضية على سبيل الاحتمال. وسيكون الجواب على هذه النقطة سريعاً لا لبس فيه. إن البحر المتوسط، خارج تقسيماته السياسية الحالية، عبارة عن ثلاث جماعات ثقافية، وثلاث حضارات ضخمة راسخة، وثلاث طرق أساسية في التفكير والاعتقاد والأكل والشرب والعيش... [أي] في الحقيقة [عبارة عن] ثلاثة وحوش على أهبة، دائماً، لابراز أنيابها، وثلاث شخصيات ذات مصير لا ينتهي، تحتل مكانها منذ الأزل، أو منذ قرون وقرون على الأقل. وتتعدّى حدودها حدود الدول التي تعدّ بالنسبة لها [مجرد] أثواب مهرّج خفيفة جداً!

إن هذه الحضارات، عملياً، هي المصائر الوحيدة طويلة النَفَس التي يمكننا تتبعها دون انقطاع عبر انقلابات التاريخ المتوسطي وحوادثه.

ثلاث حضارات هي: الغرب أولاً، وقد يكون من الأحسن أن نقول: المسيحية، هذه الكلمة التي أُفرط في تضخيم معناها؛ أو ربما يكون من

الأفضل أن نقول: الرومانية: [مادامت] روما كانت، ولازالت، مركز هذا الكون اللاتيني القديم، ثم الكاثوليكي الذي يمتد إلى [حدود] العالم البروتستاني، إلى المحيط الأطلسي و بحر الشمال، إلى الراين والدانوب التي غرس الاصلاح ـ المضاد على امتدادها كنائسه الباروكية وكأنها [عدد] من الحراس اليقظين؛ وإلى [حدود] عوالم ما وراء المحيط الأطلسي، وكأن قدر روما الحديث كان يكمن في الاحتفاظ بإمبراطورية شارل الخامس، التي لم تكن الشمس تغرب عنها، تابعة لها.

أما الكون الثاني فهو الاسلام، وهو شساعة أخرى تبدأ من المغرب وتذهب إلى ماوراء المحيط الهندي، إلى أرخبيل جنوب شرق آسيا، الذي فتح قسم منه وأدخل إلى الاسلام في القرن الثالث عشر الميلادي. والاسلام تجاه الغرب هو بمثابة القط تجاه الكلب. قد نقول إنه غرب ـ مضاد، مع الالتباسات التي يقتضيها كل تعارض عميق هو، في الوقت ذاته، مزاحمة وعداوة واقتراض. قد تقول جيرمين تيليون (G.Tillion) . [إنهما]: «عدوان يكمل أحدهما الآخر». لكن: أي عدوين وأي متنافسين هما؟ إن ما يفعله أحدهما، يفعله الآخر. الغرب ابتكر الحروب الصليبية وعاشها؛ والاسلام ابتكر الجهاد وعاشه. المسيحية تفضي إلى روما؛ والاسلام يفضي بعيدا، إلى مكة وإلى قبر الرسول، ذلك المركز غير الزائغ مطلقاً مادام يمثل، هو لوحده، البحر المتوسط «الآخر»، البحر المتوسط المضاد الذي يجد امتداده في الصحراء.

أما الشخصية الثالثة فلا تُسرع، اليوم، بالكشف عن وجهها. إنها الكون الاغريقي، الكون الأرثوذوكسي. [ويضم] على الأقل مجمل شبه جزيرة البلقان الحالية، وومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا كلها تقريباً واليونان ذاتها، المترعة ذكرياتٍ، حيث تستحضر بلاد الإغريق القديمة ذاتها وتبدو وكأنها بعثت حية؛ علاوة على روسيا الأرثوذوكسية، دون منازع. لكن ما هو المركز الذي ينبغي الاقرار به لهذا الكون؟ ستقولون إنه القسطنطينية،روما الثانية، والقديسة صوفيا في القلب منها. لكن القسطنطينية هي اسطمبول، عاصمة تركيا، منذ 1453م، وقد احتفظ الاسلام التركي بقسمه الأوروبي بعد أن كان يملك شبه جزيرة البلقان بكاملها زمن عظمته. ولاشك أن مركزاً آخر قد لعب

دوره، هو موسكو، روما الثالثة . . . لكنه توقف، هو الآخر، عن أن يكون قطباً مشعاً [من أقطاب] الارثوذوكسية. فهل العالم الأرثوذوكسي، اليوم، عالم لا أب له؟

## صعوداً مع مجرى القرون

كيف لا تمثل الحضارات، وبالتأكيد، مرشداً ممتازاً؟ إنها تخترق الزمن، وتتغلب على امتداده. وبينما يجري فيلم التاريخ، تظل هي ثابتة رصينة في عين المكان. وبكيفية معينة، وبنفس الرصانة، تبقى سيدة فضائها؛ وذلك أن المنطقة التي تحتلها يمكن أن تتغيّر في أطرافها، لكن ميدانها ومأواها، في القلب، في المنطقة المركزية، يظلان هما ذاتهما. وأينما كانت زمن قيصر أو أوغست، فإنها ظلت موجودة على زمن مصطفى كمال أو العقيد [جمال] عبد الناصر. ثابتة في المكان والزمان، أو شبه ثابتة.

هذا الثبات يؤصّل الحضارات في ماضٍ أقدم بكثير مما يبدو لأول نظرة، وتلتحم هذه المدّة الطويلة، ضرورةً، بطبيعة تلك الحضارات. إن الرومانية لا تبدأ مع المسيح؛ والاسلام لا يبدأ في القرن السابع [الميلادي] مع محمد؛ كما أن العالم الأرثوذوكسي لا يبدأ مع تأسيس القسطنطينية سنة 330م. ذلك أن حضارة [من الحضارات تمثل] استمراراً - حين تتغير، ولو بكيفية عميقة، كما تفرض ذلك ديانة جديدة - يلتحم بقيم قديمة تستمر عبرها وتظل قوامها. إن الحضارات لا تفنى، مهما يقل عنها ڤاليري. وهي تصمد أمام المصائب والكوارث. وتبعث، عند الاقتضاء، من رمادها. وتنمو، بعد تدميرها أو إتلافها على الأقل، مثل نبتة النجيل.

لنأخذ الحضارة الاغريقية. إن هذه الحضارة ولدت وبدأت خطوطها في التحدّد حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، على إثر تدميرات واجتياحات أعادت الفضاء الإغريقي إلى المستوى الصفر للتاريخ. إلا أنها لاتزال قائمة إلى اليوم. لمدة ثلاثة آلاف سنة على أقل تقدير. . . ما أكثر الحوادث والكوارث والبلايا التي [صادفها] هذا المسار الطويل! لقد سقطت بلاد الإغريق والعالم الهليني أمام الجحافل الرومانية. لكن المهزومين خرجوا من هذه العبودية الطويلة، من هذا السجن الذي دام أربعة أو خمسة قرون، عندما أسّس قسطنطين مدينة

القسطنطينية عام 330 ميلادية. حينئذ بدأت امبراطورية مسيحية على امتداد الامبراطورية الرومانية. وعندما انشطرت هذه الأخيرة، سنة 395م، إلى شطرين: قسم شرقي سيصبح هو الامبراطورية الإغريقية البيزنطية، وقسم غربي سينهار تحت ضربات البرابرة، انبعثت بلاد الاغريق قوية جبارة. اندفاعة ستعيش بعدها قرابة ألف سنة، إلى حدود الغزو التركي سنة 1453 الذي يبدو أنه يعيد، مرة أخرى، وضع كل شيء موضع سؤال، مع ذلك فإن حرباً حقيقية ستحرّر شعوب البلقان المسيحية واحداً بعد الآخر، في القرن التاسع عشر، مدعومة من قبل الروس الأرثوذوكس وأوروبا.

وما قلناه أعلاه عن الكون الأرثوذوكسي يمكن أن يقال، مرة أخرى، مع مراعاة اختلاف الظروف، عن الشخصيتين الأخريَيْن: روما ومكة. إن النقطة الصفر بالنسبة لروما، مبدئياً، هي ميلاد المسيح. والنقطة الصفر بالنسبة للاسلام هي هجرة محمد من مكة إلى المدينة يوم 16 يوليوز 622م. والحال أن الغرب لا يقوم بغير مواصلة العالم اللاتيني الذي تلقى منه لسانه وعقله وقانونه وأشياء أخرى كذلك. كما أن الاسلام هو، في أصله بدون شك، جزيرة عربية صحراوية تعبرها القوافل ووراءها ماض طويل؛ إلا أنه، على وجه الخصوص، هو البلدان التي ستغطيها فتوحات الفرسان والجمّالين العرب بسهولة مفرطة: سوريا ومصر وإيران وإفريقيا الشمالية. إن الاسلام بتأكد، قبل كل شيء، وريثاً للشرق الأدنى، ولسلسلة بأكملها من الثقافات والاقتصادات والعلوم القديمة. وقلب الاسلام هو الفضاء الضيق الممتد بين مكة والقاهرة ودمشق وبغداد. كثيراً ما يقال بأن الاسلام هو الصحراء، وهي صيغة جميلة. لكن ينبغي أن يقال أيضاً، إن الاسلام هو الشرق الأدنى، الشيء الذي يضيف إليه كمية هائلة من التركات، من القرون بالتالي.

## تواريخ بعيدة

ما من شك في أن البحر الداخلي عجنته انبعاثات تاريخية، تواريخ بعيدة، أنوار جاءته من عوالم ميتة في الظاهر لكنها حية دائماً. إني أحبّ هؤلاء المؤرخين الذين يصرون تجاه الكل وضدّهم على أن روما لم تختف في القرن الخامس بفعل صدمة البرابرة. ألم تولد الامبراطورية الرومانية من جديد مع

شارلمان، مع الأثونيين (othons)، ومع ملكية شارل الخامس الكونية التي كان يتمناها عدد كبير من مفكري الغرب الانسانيين؟ ألا يحلم الناس الذين يطمحون، اليوم، إلى أوروبا الشعوب والثقافات، عن وعي أو عن غير وعي، بـ «سلام روماني» (pax romana)؟ أن تكون روما قد طبعت أوروبا بعمق، فهذا هو البداهة بعينها، لكن مع بعض الاستمرارات التي تبعث، مع ذلك، على المفاجأة. ففي اللحظة التي انشطرت فيها المسيحية إلى شطرين في القرن السادس عشر، هل كان من قبيل الصدفة ما جرى من فصل للمعسكرين بمنتهى الدقة على هذا الجانب وذاك من نهري الراين والدانوب، وهما الحدود المزدوجة للامبراطورية الرومانية؟

وهل من قبيل الصدفة، أيضاً، قبول الشرق الأدنى ومنطقة نفوذ قرطاجة المزدوجة: افريقيا الشمالية وقسم من اسبانيا، معاً، وبسهولة، للفتح الاسلامي المذهل؟ لقد سبق أن قلنا بأن العالم القرطاجي كان مهيأً في عمقه لاستقبال حضارة الاسلام أكثر من استعداده لاستيعاب القانون الروماني، وذلك لأن حضارة الاسلام ليست إسهاماً فحسب، وإنما هي استمرار أيضاً. إنها لم تستوعب اليهودية والارث الابراهيمي فحسب، وإنما استوعبت أيضاً ثقافة وآداباً وعاداتٍ كانت قائمة منذ زمن طويل. وفعلاً، فالحضارة ليست مجرد دين فحسب، حتى وإن كان هذا الأخير قائماً في قلب كل نسق ثقافي، وإنما هي فن عيش، وآلاف من الأوضاع التي تتكرر. إن تحية الحاكم، في «ألف ليلة وليلة» هي «تقبيل الأرض أمامه بين يديه». والحال أن هذه كانت هي الحركة المعتادة في بلاط الملك البارثي خسرو (531 ـ 579م). يضاف إلى ذلك أنها هي نفس الحركة التي كان سفراء أوروبا في أسطنبول أو في اصبهان أو في دلهي، خلال القرنين السادس والسابع عشر، بل وبعد ذلك، يسعون لتجنبها، لفرط ما يجدونها مهينة لهم وللأمير الذين يمثلونه. لكن، ألم يكن هيرودوت يعلن سخطه، قبل ذلك، على الآداب المصرية: «إنهم حين يريدون السلام على بعضهم، وإن في وسط الشارع، ينحنون ساجدين لبعضهم بعضا؛ وهم يفعلون فعل الكلاب حين يخفضون أيديهم إلى مستوى الركب». تذكّروا، كذلك، لباس المسلمين التقليدي الذي سيتطوّر بمنتهى البطء. إنه لباس يسهل التعرّف عليه، قبل ذلك، في رداء البابليين القدامى،

كما وصفه هيرودوت نفسه قبل خمسة وعشرين قرناً: «يرتدي البابليون، أولاً، قميصاً من الكتان ينزل إلى أرجلهم [يشبه القندورة، كما يقول كوتيي E.F. Gautier) معقباً]، وفوقه قميص آخر من الصوف [يشبه الجلباب]؛ ثم يلفون أنفسهم بمعطف أبيض صغير [بإمكاننا تشبيهه بسلهام أبيض صغير]؛ ويغطون رؤوسهم بعمامة [شبيهة بالطربوش الفاسي، أوبالطاقية] - إضافات من ف. ب. -.» ويمكننا أن نسترسل [على نفس النهج] فيما يخص الدار (التي هي قبـ - إسلامية)، والغذاء والتطيّرات: إن يد فاطمة، وهي المعادل الاسلامي لـ «ميدالياتنا وكتفياتنا» كانت تزيّن، من قبل، الأنصاب الجنائزية القرطاجية. ويرتبط الاسلام، طبعاً، بأرض الشرق الأدنى التاريخية الكثيفة. إن الحضارة الاسلامية، مثلها مثل الحضارة الغربية، «حضارة مشتقة» من الدرجة الثانية - إذا نحن اقترضنا مصطلحات ألفرد فيبر (A. Weber) ، أخ ماكس فيبر الشهير - ، بل قد يكون بإمكاننا القول إنها حضارة مطعّمة. هل تكون الحضارة الصينية هي الحضارة الوحيدة من الدرجة الأولى؟

وباختصار، فإن كل دراسة للذهنيات الحاضرة تتجّه، بالضرورة نحو ماضي الحضارات الـذي لا ينتهي. هكـذا تشكّلت، على مر القرون، مسيحيتان تعتبران، عملياً، استعادتين لواقعين سابقين دام كل منهما مدة طويلة: أحدهما مركز حول روما والغرب، والثاني حول روما الجديدة، أي القسطنطينية، مثلما هو مركز، كذلك، حول بلاد إغريق ليست جديدة بكل تأكيد.

فيم تختلف هاتان المسيحيتان عن بعضهما بعضاً؟ إنهما تختلفان، جوهرياً، في الآتي: إن إحداهما تتطابق مع العالم الإغريقي الذي أخضعته روما لكن دون أن تستوعبه، في حين تتطابق الأخرى مع المنطقة الغربية التي كانت، وعلى وجه التحديد، منطقة النجاحات الرومانية.

إن المسيحية لم تتوصل إلى إبطال هذا الاختلاف الأولي والضارب في الأعماق. ودون أن نخوض في تفسير للخصومات اللاهوتية التي قام عليها انفصال الكنيستين، بإمكاننا أن نتساءل عن الزمن الحاضر، وهو أمر أكثر ملاءمة، على أي حال. إننا سرعان ما ندرك أن الديانتين الشقيقتين تتباعدان عن بعضهما بعضاً - رغم أنهما معاً مغمورتان بحب المسيح - وأن الكلمات

المفاتيح لا تملك نفس المعنى في هذه وتلك. إن [كلمة] حقيقة تشير في الإغريقية، وفي السلافية أكثر من ذلك، إلى ما هو ثابت وخالد، إلى ما يوجد حقاً، خارج العالم المخلوق كما يدركه عقلنا. هكذا تعني كلمة «برافدا» الحقيقة والعدالة معاً. أما بالنسبة للاتينية فإن كلمة حقيقة تعني دائماً، وعلى العكس من ذلك، يقيناً وواقعاً بالنسبة لعقلنا. إن السرّ المقدس، في الغرب، يستدعي التراتبية الدينية، تلك التراتبية القادرة، وحدها، على منحه طابعه المقدّس؛ أما في الشرق، فذلك السر «لغز» قبل كل شيء، [أي] ما يتجاوز حواسنا ويأتي من الله مباشرة. قد تقولون إنها تلوينات. ومع ذلك فإن المسيح نفسه يأخذ وجهين مختلفين، من عالم لآخر. إن أسبوع الآلام الذي يسبق، في الغرب، عيد الفصح، يقام تحت شارة الحداد والانفعالات والآلام لموت المسيح - الانسان. أما في الشرق فيتم تحت شارة الاستبشار والأناشيد التي تمجّد بعث المسيح - الاله. وإن الصلبان الروسية، على عكس الصلبان الايطالية الأولى، صلبان سيمابوي (Cimabue)، تصوّر مسيحاً هادئاً في موته، لا مخلّصاً معانياً من الآلام [كما هو الحال] في الغرب. . . وقد يكون من الضروري أن نستمر مطوّلاً في تعداد هذه التباينات التي ولدت منذ زمن طويل.

لقد كان جيروم كاركوبينو (J. Carcopino) يأسف، في دروسه بالسوربون، بل ويحزن، لكون روما لم تتجاوز، في غزواتها، نهر الراين وتبلغ نهر الألب شرقاً، على الأقل. الأمر الذي كان سيغير مصير روما - ومصيرنا بالتالي -. لكن لو أن كنيسة روما، لا الكنيسة الإغريقية، هي التي مسّحت موسكوفيا، لكان مصير أوروبا ومصير العالم قد انقلبا بكل تأكيد. هكذا فإن ألعاب الزمن الحاضر الكبرى قد لُعبت، ورُبحت أو خسرت، في الزمن الغابر.

### استيفاءات الحضارات

السمة الأولى، إذن، هي أن الحضارات حقائق واقعية ذات مدة مفرطة الطول. والسمة الثانية هي أنها مرتبطة وثيق الارتباط بفضائها الجغرافي. ومن الأكيد أن أقواها، أي المنتصرة منها، تتغلغل، في غالب الأحيان، إلى أضعفها وتستعمرها وتقيم فيها معسكراتها ومراكز قيادتها. لكن المغامرة تنقلب شر

منقلب على المدى البعيد. والاستثناءات تؤكد القاعدة: فأن تكون روما قد نجحت في بلاد الغال، وأن تكون قرطاجة قد نجحت في إفريقيا خلسة، أو أن تكون أوروبا قد نجحت في أمريكا؛ فإن الأمر يتعلق، في كل من هذه الحالات، بحضارة سيئة التبنين تستسلم للدخيل.الشيء الذي يلزمنا، فيما يخصّ بلاد الغال، القبـ ـ رومانية، بألّا نبالغ في تقدير المستوى الثقافي الذي بلغتـه، لكيلا نحذو، على الأقل، وعن قرب مفرط، حذو الحماس المعدي لكامي جوليان (Camille Jullian) .

إن القاعدة، بين الحضارات الراشدة المبنيّنة (والبحر المتوسط هو المكان المفضّـل للحضـارات الراشـدة الناتجة عن إعدادات طويلة)، هي الاخفاق المنتـظم، حتى وإن كان تحققه، كما سبق القول، بطيئاً جداً، في الغالب. والواقع أن كل حضارة فرضت نفسها لا تخضع إلا في الظاهر، ومن هنا تمتلك، على العموم، وعياً بذاتها، وتسخط وتنمّي نوعة وطنية ثقافية متصلّبة. لقد أنهى الأتـراك بين عامي 1453 و1541 غزو شبه جزيرة البلقان التي تحتل فيها الحضـارة الاغـريقية أو الأرثـوذوكسية معـظم الأرض على نحو تبعي. ولن ينسحب منها الأتراك، ويتراجع الاسلام معه، إلا عام 1918، مع تفاوت وصل في مجموعه إلى أكثر من أربعة قرون. لكن ينبغي ألا ننسى أنه كان ثمة، في بداية النجـاحـات الـتركية، تواطؤ إغـريقي سببه حقدهم على اللاتين. واكتسح الفتح الاسلامي اسبانيا عام 711م ولم يُخلها إلا بعد الاستيلاء على غرناطة، بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ، في سنة 1492. هنا أيضاً ينبغي أخذ التواطؤات الأولية بعين الاعتبار. إلا أن المدهش، في هذه الحالة وتلك، هو أن تلقى الحضارة نفسها ثانية، سليمة، بعد قرون عدة من الاعتقال، كما لو أن شيئاً لم يحصل تقريباً. انظروا، بعيداً باتجاه الشرق، إلى مصير الاسلام في الأرض الايرانية.

هذا ما يؤكده أيضاً، إذا كان ذلك ضرورياً، تاريخ المشرق الإغريقي ـ الروماني، الذي أسّسه غزو الاسكندر للشرق الأدنى من سنة 334 إلى 329 ق.م. إن هذا التاريخ الطويل، كما كتب ذلك إميل فيليكس كوتيي (E. F. Gautier) ، «قد دام حوالي عشرة قرون (إلى حدود الفتوحات العربية خلال سنـوات 634 ـ 636، بل وحـتـى 641م): وهي فترة زمنية طويلة طولاً

شديداً؛ إذ تعادل، تقريباً، مجمل تاريخ فرنسا. في نهاية هذه القرون العشرة، وبين عشية وضحاها، انهار كل شيء وإلى الأبد، عند أول ضربة من السيف العربي، [انهار] اللسان والفكر الاغريقيان، والأطر الغربية؛ كل شيء تلاشى إلى دخان، وصارت هذه الألف سنة من التاريخ، محلياً، وكأنها لم تكن.»

بالمقارنة مع ذلك فإن التراكيات التي تستمر لمدّة قرن تكتسي هيئة حلقات: فالقدس التي استولى عليها الصليبيون عام 1099م كفّت عن أن تكون مسيحية عام 1187م؛ ولم تعد افريقيا الشمالية الفرنسية التي بدأت سنة 1830، موجودة في سنة 1962.

إن كل هذه السيرورات، الطويلة جداً منها والأقل طولاً، تنطرح على أنظارنا وكأنها مشاكل من نفس الفصيلة. وهذا، بإيجاز، هو الدليل على القيمة التفسيرية لمفهوم حضارة، مهما بدا معقداً وهشاً. إنه يفتح، ضمن الماضي الكثيف للبحر، الطرق الوحيدة السهلة التي يملك المسافر المستعجل أن يسلكها.

ألا نحتفظ بغير صراعات الحضارات

هكذا أكّدنا على أن صراعات الحضارات يمكن الاحتفاظ بها لوحدها، وأنها [تمثل] التخوم العسكرية لكل قصة سريعة: معركة الماراتون (1490). [حيث كان هناك]، من جهة، العالم الاغريقي المنقسم على نفسه والمشتت من سواحل آسيا الصغرى إلى صقلية، ومن جهة أخرى، الامبراطورية الفارسية، «تلك المساحة الشاسعة الممتدة من بحر إيجه إلى الهند». وصراع روما ضد قرطاجة، إلى حدود سنة 146 ق. م.، صراع «شعب بحري وتجاري أساساً، مع شعب بري ومحارب وفلاح بالأساس». من البديهي أننا سنحاول، دائماً، تصوّر ما قد يصبح عليه البحر الأبيض المتوسط لو أن قرطاجة هي التي انتصرت، ناشرة حضارتها على امتداد البحر وكاشفة، في هذه اللعبة، كينونتها العميقة المثقوبة بالمهاوي دون شك. لكن قرطاجة لم تنتصر... [ثم] الحروب الصليبية: [حيث] أن أسطول الرابطة المقدسة (البندقية والبابوية وإسبانيا)، تحت قيادة دون خوان ملك النمسا، سحق يوم 7 أكتوبر 1571، في ليبانت، الأسطول التركي بمدخل خليج كورنثه، وبالضبط في خليج نوباكت، أثناء

أكبر معركة للسفن الشراعية الحربية (les galères) عرفها التاريخ؛ تلك المعركة الهائلة لكن القصيرة: «التي بدأت مع الشروق وانتهت قبل الزوال» (روبير مانتران R. Mantran).

وتوضح هذه الصراعات - التي كان بعضها قصيراً (الماراتون، وليبانت) وبعضها الآخر طويلا (الحروب البونيقية الثلاث والحروب الصليبية) - الصدمات المكتومة والعنيفة والمتكرِّرة التي توجهها الحيوانات القوية، التي هي الحضارات، لبعضها بعضاً. إلى حدِّ أنَّ هذه الحروب وهذه المعارك، وحروباً ومعارك أخرى كان بإمكاننا الاحتفاظ بفصولها الدّالة (معركة خيريس سنة 711م، حيث سحق طارق القوطيين؛ ومعركة بواتيي، سنة 735م، أو الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1453م...)، تتجاوز فاعليها والمواقع التي تخصّهم. فهناك الغرب كله من جهة (إغريقاً ولاتين)، والشرق كله من جهة ثانية. وتهوّل سعة الصراع الصدمة وتوسِّعها. إن الاغريق ينقذون، في ماراتون، غرباً مهدّداً بالدمار. وتضرب روما الشرق بقتلها لقرطاجة. وتسير الحروب الصليبية في نفس الاتجاه العنيد. ويعتبر الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453 هجوماً مضاداً هائلاً من طرف الاسلام. [كما أن معركة] ليبانت، بعد ذلك التاريخ (سنة 1571)، عرّضت للخطر، مرة أخرى، سلامة البحر الأبيض المتوسط بأسرها، وقد أرهقته الأساطيل التركية وقراصنة بربارِيا (افريقيا الشمالية).

كل هذا أكثر من مفهوم: كيف كان للحضارات ألا تتصادم وهي التي احتلت مكانها باكراً؟ إنها تجد في حربها مبرِّر وجودها. فروما، التي يطابق انتصارها القرون الوحيدة التي كان البحر فيها موحّداً، لم تقم حتى بمحو [أثر] الجماعات المعادية لها والموجودة قبلها بعين المكان؛ لقد أوقفتها عند حدّها وفي الوقت نفسه قامت بتقويم حضارتها هي بالذات ولسانها وفنها ودفعها إلى الامام. إلا أن الصراعات استمرت تحت غطاء وستار السلام الروماني الذي لم يُحسن إخفاءها.

تعني الحضارة، إذن، الحرب والحقد، وتقرضها رقعة هائلة من الظلال إلى نصفها تقريباً. [أما] الحقد، فتصنعه ومنه تتغذى وتعيش. اليوناني يكره الفارسي أكثر مما يكره الفارسي (الذي نعرفه متسامحاً) اليوناني. ويحقد الروماني

حتى الموت على القرطاجي الذي يبادله نفس الحقد، وليس لدى المسيحية والاسلام ما يتحاسدان عليه. وفي محكمة التاريخ قد يدان المتهمان معاً، ويطردان دون أن يُحكم لصالح أي منهما. لكن، هل نعرف دائماً من المذنب ومن البريء؟ هكذا فإن القرطاجيين بالنسبة لساباتينو موشاتي (S. Moschati)، كانوا، ودون منازع، شعوباً مسالمة، تدافع عن نفسها، طبعاً، وبشجاعة، لكن ضد ما يوجّه ضدها من هجمات فحسب. بل إن بعض المؤرخين يزعمون أن بيزنطة، التي استمرت في الوجود بعد الامبراطورية الرومانية إلى حين سقوط القسطنطينية، كانت عاجزة، فيما يخصها، عن افتعال حرب مقدسة على مقاسها (أو حرب صليبية، إذا شئنا). وإذا صحت الملاحظة، فسنكون ميّالين إلى الابتهاج لهذا التقصير. لكن، ألم تؤدّ بيزنطة في النهاية ثمن غياب الحقد البنّاء هذا في يوم من الأيام؟ الشيء الذي يعني أن المستقبل لا يملكه إلا أولئك الذين يعرفون الحقد. وفعلاً، فإن الحضارات لم تكن في أغلب الأحيان سوى إنكار للغير واحتقار وكراهية له. لكنها ليست هذا وحسب، وإنما هي، أيضاً، تضحية وإشعاعٌ وتراكمٌ للخبرات الثقافية وإرث الذكاء. وإذا كان البحر مديناً لحضاراته بحروبه، فإنه مدين لها كذلك بمبادلاته المتعددة (التقنيات والأفكار، بل والمعتقدات) وبالبرقشات والمشاهد المختلطة التي يقدّمها لنا اليوم. إن البحر الأبيض المتوسط عبارة عن فسيفساء من كل الألوان. لهذا يمكننا أن نرى، دون أن نسخط لذلك (ليس الأمر أمر سخط)، وقد مرّت القرون، هذا القدر من الآثار التي كانت مدنسات، وحدوداً تعين التقدمات والتراجعات في الزمن الغابر: القديسة صوفيا، محروسة بصوامعها العالية؛ القديس جيوفاني ديلي إيرميتي بباليرمو، الذي يأوي ديره بين القبب الحمراء أو شبه الحمراء لمسجد قديم، وكنيسة القديسة كروز القوطية، الفتّانة الصغيرة، التي بنيت، بأمر من شارل الخامس، في قرطبة، وسط غابة من أقواس وأعمدة أجمل مسجد في العالم.

الحضارة لا تشكّل التاريخ بأكمله.

ـ لكن الحضارة، أخيراً، ومهما اتسع ميدانها وانعكاساتها ومددها، لا تمثل لوحدها مجمل تاريخ البشر، ولا تمثل، في الحالة التي تشغلنا، مجمل تاريخ البحر الداخلي.

أن تقول السياسة كلمتها، إلى ما لا نهاية له، فتلك واقعة واضحة للعيان. ألم تفرض إرادتها مرات عديدة، مبعدة كل قوى التاريخ وأشكاله الأخرى إلى المقام الثاني؟ هذا ما حدث طوال قرون، إبّان تفوق روما التي كانت، ولمدة طويلة، [تمثّل] العنف في خدمة السياسة: ولم تهدأ نزعتها التوسعية إلا بعد إخضاع العالم المتوسطي بكامله لطاعتها. قبل ذلك، كانت روما تضرب بلا شفقة: فعام 146 (ق.م) عرف التدمير المزدوج لقرطاجة وكورنثه... فكّروا أيضاً في الغزو الدامي لبلاد الغال، الذي استمر حوالي ست سنوات، من 59 إلى 53 (ق.م). ولن يصنع الأوروبيون في أمريكا أفضل [مما فعلته روما]. إن روما، وقبل أن تكون صانعة «السلام الروماني»، قد فرضت الحرب الدائمة.

لقد كان على الحضارات أن تنحني في نفس الوقت الذي انحنت فيه الشعوب المهزومة. وعن طريق معركة أكسيوم العظمى (2 سبتمبر 31 ق.م.) ـ العظمى لأنه كانت لها عواقب هائلة ـ ترسّخ مصير البحر الأبيض المتوسط «الأخر» لمدة قرون. فهذه المعركة التي خيضت تقريباً في نفس المكان الذي ستقع فيه معركة البريفيسا (انتصار الأتراك على أساطيل الرابطة المسيحية المقدسة الأولى، عام 1538) بالضبط، ستشهد فرار سفن كليوباتره وهزيمة أنطونيو ومصر، وانتصار أوكتافيو. ومن هنا تبدأ الامبراطورية الرومانية عملياً.

لكن روما، بفرضها لإرادتها وللوحدة السياسية على مجموع العالم المتوسطي، لم تمح، مع ذلك، الاختلافات والتفاوتات والانقلابات والصراعات الثقافية. بل إن قضاءها عليها كان أقل من إصابتها هي نفسها وتأثرها بهذه الثقافات الأرهف من ثقافتها: [ثقافة] اليونان التي ستكون مربيتها (سيجري الحديث باليونانية في الأوساط المثقفة بالعاصمة)، وأديان وعبادات الشرق الأدنى الكاسحة. لكنها فرضت على البحر الأبيض المتوسط بمجمله، اللغة العليا لسياستها ومؤسساتها.

### مكانة الاقتصاد

لقد لعب الاقتصاد أيضاً دوره ضمن جوقة التاريخ المتوسطي، وهو دور حاسم في أغلب الأحيان. إذ لا قيمة للمجتمع بدون الاستغلال الاقتصادي

الذي يقيم توازنه، وبدونه تصير الدول أجسادا هامدة. أما الحضارات، فلا تدوم وتزْهِر إلا بفضله. فالازدهارات مصاريف وتبذيرات. ما أن تبرز أزمات اقتصادية قاسية نوعاً ما، حتى توقف ورشة القديسة ماريا ديل فيوري بفلورانسا أشغالها، وتبقى كاتدرائية بولونيا (Bologne) أو سيين (Sienne) غير تامة إلى الأبد.

إن البحر ـ مساحة التنقلات ـ هو الذي يجلب الثروة من بين الثروات. والذي يسود على البحر، يسود على الثروات. والحال أن البحر، مهما بلغت سعته، لا يقبل، في هذا اليوم أو ذاك، سوى سيد واحد، ليس من الضروري أن يكون سيداً سياسياً كما أعطت روما صورته الأولى، وإنما سيداً لمبادلات الحياة التجارية وتفاوتاتها واختلاف مستوياتها.

ومثل هذه الممالك، قليلة الصخب، لا تنبني في يوم واحد؛ بل تسبقها وترافقها صراعات. لقد سيطر الاسلام في القرنين التاسع والعاشر، بكامل عنفوان حضارته، على البحر المتوسط بلا نزاع. و«بالكاد كان» المسيحي «يستطيع تعويم خشبة فيه». إلا أن الوضع بدأ ينقلب ابتداءً من القرن الحادي عشر، لصالح الحروب الصليبية وحركتها المتواصلة. وستصير سفن المدن الايطالية سيدة كل مساحة البحر دون نزاع. حيث قضي على السفن البيزنطية، وطُردت السفن الإسلامية، وتم الاستيلاء على البحر، بالمعنى الضيق للكلمة، من قِبل العالم المسيحي وسفنه الحربية ومراكبه المقرصِنة وحملاته الحربية، كما [تم الاستيلاء عليه]، وراء هذه التحركات الحامية، من قبل مراكبه التجارية المتزايد عددها أكثر فأكثر. وفي هذه اللعبة المربحة والتي تتكرر كثيرا صارت إيطاليا، شمال خط فلورنسا ـ أنكون، أنشط وأغنى منطقة في البحر المتوسط برمته. ونكاد نقول إنه بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر حظي الاقتصاد بالأولوية، ولصالح المدن بانتظام ـ وقد تدهورت الدول الاقليمية، مع أزمة القرن الرابع عشر العميقة، بعدما ارتسمت حدودها للحظة.

بيد أن هذه المدن أخذت تتنازع عوائد البحر الأبيض المتوسط. (تُعتبر خصومات جنوة والبندقية المتواصلة تعاقباً من الانقلابات لا يمكن تصديقه. ولم تنتصر البندقية وتصبح مركزاً للمبادلات المتوسطية إلا غداة حرب تشيودجيا

(Chioggia) (1378 ـ 1381) فحسب؛ وهـو أمر سيدوم إلى حدود بداية الحروب المسماة حروب إيطاليا (1494). مع نهاية القرن الخامس عشر استرجعت الدول الاقليمية، دون شك، عافيتها أو اكتسبت قوى جديدة. فاستقر الأتراك في أوترانتي (1480 ـ 1482)، وعبر شارل الثامن جبال الألب في شهر سبتمبر من عام 1494، وشارك [العالم] الأراكوني في الحرب المندلعة. ولم يعـد للمـدن، بداهـة، بما في ذلـك البنـدقية، وزن تجاه هؤلاء الخصوم المهولين. هكذا كانت السياسة تثأر لنفسـها.

## غزو الشماليين للبحر الأبيض المتوسط

ومع ذلك فإن قلبَ الأسس الاقتصادية للتفوق المتوسطي لم يتم على يد الأساطيل التركية ولا الجيوش الفرنسية أو الجنود الاسبان، مهما كان وزنها في مصير إيطاليا ومدنها. لقد عرّض الصعود العدواني للدول الكبيرة توازنات شبه الجزيرة الايطالية للخطر، أو دمّرها، لكن هذه سوف تستعيد سلامها وتستفيد منه غداة معاهدة كاتو ـ كامبريسيس (cateau-Cambrésis) سنة 1559، التي سلّمت قسماً منهـا إلى إسبانيا. إلا أنها لن تصعد المنحدر ثانية أبداً، لكن لأسباب أخرى.

إن السـيرورة التي هدّدت البحـر المتوسط، والتي ستخضعه إخضاعاً نهائياً، لن تكون سوى انتقال مركز العالم من هذا البحر إلى المحيط الأطلسي. ويقع اكتشاف أمريكا سنة 1492، ومعبر رأس الرجاء الصالح سنتي 1497 ـ 1498، في مقدمة هذه السيرورة. بيد أن هذه الأحداث لا تكتسب أهميتها الكاملة بين عشية وضحاها. فالفلفل والتوابل [صارت] تصل إلى لشبونة، ومنها تذهب إلى أنفير (Anvers)، ولكن طريق السويس والخليج الفارسي لم تمت، وكان بإمكانها منافسة الطواف البحريّ الطويل حول القارة الافريقية: بل إن الحديث صار يجري عن قنال للسويس، فضلاً عن أن الفلفل والتوابل لا تصـل إلى أوروبـا إلّا مقابل المعدن الأبيض. فمن يملك المال، المعدن الأبيض، يستطيع التحكم عن بُعدٍ في منتجي الفلفل والتوابل والمتاجرين فيها وناقليها. أكيد أن المعدن الأبيض الذي صار يأتي، انطلاقاً من سنة 1530، من أمريكا وحدها تقريباً، عن طريق إشبيلية، مملوك لاسبانيا. لكنه، بسبب حروب شارل الخامس، والقروض الاجبارية للحكومة القشتالية ـ التي سرعان

ما سيساهم فيها التجار وأصحاب الأبناك الايطاليون، وسكان جنوة منهم على الخصوص ـ سوف يشرع المعدن الأبيض الاسباني في التوجه، انطلاقاً من سنة 1550، نحو إيطاليا. حيث كانت صناديق من الريالات ومن «قطع الثمانية» تنقل بانتظام عن طريق السفن الحربية من برشلونة إلى جنوة. وعندما أخذ القراصنة الانجليز، ثم الهولنديون، يقطعون على اسبانيا، ابتداء من سنة 1568، طرق المحيط الأطلسي و بحر الشمال، المباشرة، صعوداً إلى حدود الأراضي المنخفضة المتمرّدة، كادت الارسالات المالية انطلاقاً من اسبانيا تقتصر على الطريق المتوسطية وحدها، من برشلونة إلى جنوة: وصارت مدينة سان جورج المركز المالي لأوروبا بأكملها ـ إنه انتقام جيل يقوم به البحر الأبيض المتوسط! وتأتي حظوة جنوة هذه من الضرورة التي تثقل كاهل حكومة الملك الكاثوليكي، [ضرورة] أداء أجور ونفقات جنود الجيش الاسباني الذي يحارب في الأراضي المنخفضة أداءً منتظماً. وستستمر هذه الضرورة طويلاً. ويأخذ نظام جنوي للأداءات مكاناً له مع [ظهور] معارض الفرجة التي أنشئت ابتداءً من سنة 1579؛ حتى أن المؤرخين اعتادوا أن يتحدثوا عن «قرن الجنويين» الذي يبدأ من سنة 1557 وينتهي حوالي 1622 ـ 1627.

إن إيطاليا، بعد أن أعادت تنظيم تزوّدها بالمعدن الأبيض، استعادت، في نفس الوقت، وحوالي سنة 1560، تموينها من الفلفل والتوابل عبر طرق المشرق القديمة. وسيعادل معدل المرور على هذه الطرق معدل المرور عن طريق رأس الرجاء الصالح، وبما أن الاستهلاك الأوروبي قد ارتفع بشكل ملحوظ (تضاعف تقريباً) فإن البندقية استعارت، بوجه الاجمال، أسس تجارتها القديمة. وسيكون من السابق لأوانه أن نتحدث، وإلى غاية نهاية القرن السادس عشر، عن انحطاط البحر المتوسط وإيطاليا ومدنها الرائدة. ينبغي علينا أن نتخلى عن التفسير القديم الذي يقدِّم البحر المتوسط باعتباره بحراً أسقطت الاكتشافات البرتغالية مرتبته توّاً، فضلاً عن أن هذه الاكتشافات في المحيط الهندي لم توقف طرق الخليج الفارسي ولا طرق البحر الأحمر.

ماذا حدث إذن؟ ذلك أنه من المؤكد أن تخفيفاً في تجارات ومبادلات البحر المتوسط البعيدة قد حصل في العشرين سنة الأولى من القرن السابع

عشر. ومؤخراً، أعطى مؤرخ شاب، هو ريشار راب (R. Rapp) أفضل تفسير لذلك. فهو يرى أن غزواً للبحر المتوسط قد حصل من طرف الشماليين ـ المقصود بهم، أساساً، الانجليز والهولنديين، والأوائل منهم أكثر من الأواخر ـ عن طريق الحيلة والقوة والعنف، وبواسطة لعبة الاختلافات الاقتصادية. لقد سبق للانجليز أن أوصلوا تدخلهم التجاري إلى داخل البحر المتوسط، في العشريات الأخيرة من القرن الخامس عشر، وإلى غاية السنوات 1530، 1550 تقريباً؛ إلا أن هذا الاجتياح الأول سيتوقف، بغتة، من سنة 1550 إلى 1570. ليُستأنف، في موجة ثانية، سنة 1570، ستكون أوسع من الموجة الأولى وأثبت.

وشيئاً فشيئاً ستتحكم السفن البروتستانية في بحر متوسط توقف الاسلام والمسيحية فيه عن القتال بعد الجهود الخارقة التي بذلت في ليبانت سنة 1571. إن سفن البروتستانيين أجود تسليحاً، ومزودة بالمعدات على نحو أفضل، وبأحسن الحمالين، وأكثرهم انتظاماً، والقابلين لأجور أزهد من أجور السفن الشراعية المتوسطية. وشيئاً فشيئاً أمسكت بالتجارات الهامة: هكذا صارت السفن الهولندية تنقل، من إسبانيا إلى ليفورن، حُزَمَ الصوف التي تُنقل براً بعد ذلك إلى البندقية فتزوِّد «فنها الصوفي» الذي كان في أوج توسّعه آنذاك. بل إن بعض هذه السفن كان يذهب مباشرة من اسبانيا إلى البندقية. [كما] ستتم استيلاءات أخرى على تجارة الخمور والزبيب، وعلى زيوت جربة أو بوي، مثلها في ذلك مثل تجارة المشرق. وأخذ الشماليون يجلبون [إلى البحر المتوسط] الخشب والزفت والألواح والروافد والقمح والشلت ودنان الرنكات والقصدير والرصاص، لكي يجلبوا بعدها منتوجاتهم المصنّعة، التي كانت في الغالب الأعمّ مجرد نسخ مقلّدة لمنتوجات البندقية أو مدن إيطاليا أخرى، [أي] بضاعة رديئة تحمل علامات إيطالية مزوّرة، تبدو أصيلة في الظاهر، تضاف إلى ذلك أعمال القرصنة، والاتفاقات الودية مع الجزائر وتركيا. مما أدّى إلى سلسلة من أعمال العنف والفظاظات والتواطؤات (في ليفورن خاصة). هكذا تغذّت تجارة انجلترا والأراضي المنخفضة وصناعتها من غنائم البحر الأبيض المتوسط الشائخ وثرواته المكدّسة. لقد جرى غزوٌ ونهبٌ وسلبٌ، بل وحصارٌ، من بعيد، عندما حلّ الهولنديون محلّ البرتغاليين في أرخبيل جنوب شرقي آسيا وفي المحيط الهندي. لقد كان البرتغاليون يتركون البضائع تمرّ نحو البحر المتوسط،

وكان الهولنديون يلعبون دور الحارس اليقظ، إن لم يكن للحرير الذي سيصل دائماً إلى المشرق، فللفلفل والتوابل على الأقل. ولن يصل الفلفل والتوابل، حوالي سنة 1620 وبشهادة سكان مارسيليا، إلى البحر الأبيض عبر طرق البحر الأحمر القديمة، بل ستصل إليه عبر المحيط الأطلسي وجبل طارق على متن السفن الهولندية. فمن جهة، هوجم البحر الأبيض المتوسط في قعر داره، ومن جهة أخرى جرى تحويله لكي يتم اختلاس أكثر تجاراته مردودية من سكان شطآنه الذين لم يَعُد البحر إليهم أبداً منذ ذلك الحين.

## قبل فتح قنال السويس وبعده (1869)

لم يعد البحر الأبيض المتوسط، بعد 1620 أو 1650، يقع في مركز العالم. فقد ولجت تجارة الآخرين وحرب الآخرين إلى عقر داره. واقتصر سكان البحر الأبيض المتوسط، ضمن هذه المبادلات وهذه الحروب، على لعب أدوار صغيرة. صاروا بيادق على رقعة شطرنج يتم تحريكها حسب مشيئة القوى والإرادات النائية، مشيئة هولندا في القرن السابع عشر، [ثم] انجلترا التي ستعلن تفوقها، في مطلع القرن الثامن عشر، بواسطة عمل رائع؛ إذ استولى الأمير الانجليزي جورج روك (G. Rooke) أثناء حرب الخلافة الاسبانية، على جبل طارق يوم 25 غشت 1704 بطريقة مفاجئة؛ وعبثاً سيحاول الفرنسيون والإسبان استرجاع الموقع خلال أعوام 1704 و1727 و1779 و1782. لقد استعمل المهاجمون، أثناء هذه المحاولة الأخيرة، الكريات المحماة بالنار والمدافع العائمة التي اخترعها دارسون (D'arçon)، لكن دون نجاح تام. هكذا حُدِّد مصير [من المصائر]: فالانجليز لازالوا إلى اليوم في جبل طارق. هكذا صاروا، منذ أكثر من قرنين، بوابيْ البحر المتوسط الذي غدا في القرن الثامن عشر بحيرة محروسة من جهة الغرب، ولا منفذ سهلاً لها، منذ القرن السابع عشر، من جهة المشرق.

والحال أن المنطقة الخطيرة ومحط الأطماع في البحر المتوسط توجد جهة المشرق أكثر مما توجد جهة جبل طارق. لقد كان المشرق، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هو الامبراطورية التركية التي تمتد على البلقان وآسيا الصغرى بمعناها الواسع وافريقيا الشمالية ومصر إلى الحدود الشرقية للمغرب، أي [كان المشرق] سوقاً واسعة، خاصة وأنه ظل مرتبطاً ببلاد فارس

وبالحرير الذي يعبر إلى سميرن التي صارت أكبر «مرفأ» ؛ بل رهانَ تجارة المشرق الذي صارت فيه فرنسا ، نصف المتوسطية ، الفاعل المحظوظ في القرن الثامن عشر.

إلا أن الرهان الرئيسي، فيما وراء التجارة وبلدان المشرق، كان على الهند القصية التي احتلّت انجلترا فيها، غداة معركة بلاسي (Plassey) (1757)، المكانة الأولى التي لن يعود ممكناً سلبها منها. ويعتبر المشرق أقصر طريق من أوروبا إلى الهند، طريق الأخبار السريعة والقرارات والأوامر دون منازع. فضلاً عن أنّ البحر الأحمر قد انتعش من جديد، مع تجارة البنّ، وصارت الأسكندرية، مجدّداً، ميناءً يَرتاده [الناس والسفن] كما كان زمن التوابل والفلفل. بل إن السياسة الفرنسية اهتمت عشية ثورة 1789، وبإلحاح، ببرزخ السويس، [مما جعلها] تثير قلق شركة الهند الشرقية الانجليزية. إن ما كانت تخشاه انجلترا هو أن ينفتح البحر الأبيض المتوسط جهة المحيط الهندي في وجه منافسيها وخصومها، من أكبرهم (وفرنسا على رأسهم) إلى أكثرهم تواضعاً (جنوة والبندقية) أو الموجودين منهم في أسوأ وضع، مثل روسيا، التي كان يجتذبها، هي أيضاً، سراب الهند وحقائقها. وفي هذا السياق تندرج، أيضاً، حملة مصر التي قادها بونابارت سنة 1798. فلو كللت هذه الحملة بالنجاح لقسّمت الامبراطورية التركية إلى قسمين: الأناضول والبلقان شمالاً، وإيّالات طرابلس وتونس والجزائر، صعبة المراس، غرباً، وصارت الطريق مفتوحة على نحو واسع باتجاه المحيط الهندي. ويعتقد المؤرّخون، المفرطون في تسرعهم لاعادة صنع التاريخ، أن بونابارت لو كان قد استولى على سان جان ـ داكر لتمكّن من إعادة تنظيم جيشه على هضاب لبنان وجباله، ومن تكسير الامبراطورية البريطانية التي كانت لاتزال في بداياتها.

غير أن العملية العظيمة فشلت، واستولت انجلترا سنة 1800 على مالطا التي كان قد احتلها الأسطول الفرنسي قبل ذلك بسنتين، في طريقه إلى مصر. وكان ينبغي إرجاع الجزيرة، بناءً على اتفاقية أميانس (Amiens) سنة 1801، لكنها بقيت تحت المراقبة الانجليزية حتى الأمس [القريب]. ورغم مساحتها المتواضعة فإنها كانت تؤمّن (باعتبارها جبل طارق آخر) الهيمنة الانجليزية على وسط البحر بالذات. وقد أتمّت إقامة الانجليز، فيما بعد،

بقبرص (1878) و بمصر (1882) سيطرة لندن، ومنذ ذلك الحين صارت الطريق إلى الهند بين يديها من أقصاها إلى أقصاها، وفرض «السلم البريطاني» نفسه فرضاً ثقيل الوطأة على البحر الأبيض المتوسط. ومرة أخرى، ساد النظام السياسي على البحر [تكفي] كلمة من مكتب سان جيمس (Saint-James) لتلتحق السفن بمالطا ويستتبّ النظام، عند الحاجة.

مع ذلك فإن فرنسا هاجت، وبدأت في الاستقرار بإفريقيا الشمالية، فاحتلت الجزائر سنة 1830. لكن إفريقيا الشمالية ليست هي البحر الأبيض المتوسط الخطير على مصالح لندن. وأن ينقر الديك الفرنسي رمل الصحراء، ذاك أمر حريٌ بالابتسام. أما الضربة المباشرة الوحيدة التي وجهتها فرنسا [إلى انجلترا] فكانت هي حفر قنال السويس الذي انتهى منه سنة 1869.

كان الأمر يتطلب، حتى يتم المشروع على أحسن وجه، عشر سنوات من الأشغال وضراوة رجل، هو فردينان دي ليسيب (F. de Lesseps). وكان يتطلب، أيضاً، المراهنة على الملاحة البخارية التي كانت قيد تعديل الشروط العامة للملاحة عبر بحار الكرة الأرضية ومحيطاتها. وعلى كل حال، كانت تلك هي نهاية البحيرة المتوسطية، وتحويل البحر المتوسط إلى طريق تمتد، أساساً، باتجاه المحيط الهندي. ولن يكف المسافرون في اتجاه الهند، قريباً، عن تسجيل انطباعاتهم [حول] القنال والبحر الأحمر الملتهب وتأرجح المحيط الهندي وتلاطم أمواجه، مادام البحر الأبيض المتوسط قد صار مجرد مرحلة أولى وجيزة لا نكاد نحس بها ضمن مسافة بالغة الطول.

لقد أتاح هذا النجاح الفرنسي الفرصة لتدشين احتفال، تحت رئاسة الامبراطورة أوجيني - فلكل مقام مقال - بحضور رؤوس أوروبا المتوّجة كلها. لكن ينبغي ألّا ننخدع بهذه الأبّهات. ذلك أن اللعبة السياسية لا تجري في باريس، ولا يتعلق الأمر هنا بالثأر لحملة مصر؛ إذ أن مصر، المستقلة منذ 1811، لم تعد هي نفسها، عملياً، سوى بيدق على رقعة شطرنج البحر الأبيض المتوسط. حيث اشترت الحكومة الانجليزية، التي أقامت سلسلة كاملة من العوائق في وجه بناء القنال، مائة وسبعة عشر ألف سهم، عام 1875، هي كل أسهم الخديوي المثقل بالديون؛ ثم احتلّت مصر سنة 1882؛ ووقّعت لندن مع فرنسا معاهدة تقضي بتحييد القنال. وأخيراً، كانت

انجلترا هي المستفيد الأكبر من مشروع فردينان دي ليسيب. أما محاولة الفاشودة على النيل الأبيض، التي وصل إليها طابور المقدم مارشان (Marchand يوم 10 يوليوز 1898، فليست سوى حادث مأساوي لا أهمية له فيما يخص تقاسم مفترق طرق المشرق.

لم تكن فرنسا الخاسرة الوحيدة عقب هذه التسويات. وكان موريس أيمار (M. Aymard) على حق حين قال بأن «قنال السويس كان رمزاً للإنحطاط السياسي الذي شمل العالم المتوسطي». إن القنال الذي أنشأه الفرنسيون، هم نصف متوسطيين فحسب، صار ـ علاوة على البحر الأبيض المتوسط ـ طريقاً إنجليزية. هكذا واصل البحر المتوسط استلابه. ومنذ ذلك الحين تواصل نفس التاريخ، تاريخ نزع الملكية. وحين قام جمال عبد الناصر بتأميم القنال يوم 26 يوليوز 1956، اتحدت فرنسا وانجلترا [ضده]، وكان اخفاقهما بالنسبة لهما [شبيهاً] بإخفاق حرب «الأيام الستة». ومع ذلك فإن فرنسا وانجلترا، قبل هذا التاريخ ذاته، لم تعودا تسيطران على البحر المتوسط وعلى البلدان المطلة عليه. «إن الحضور الواضح لحاملات الطائرات الأمريكية وحاملات الطائرات العمودية السوفياتية تشير إلى الهيمنتين المتواجهتين للقوتين العظميين العالميتين»، اللتين يعتبر البحر الأبيض المتوسط، على الأكثر، مجالهما المغلق؛ أو بالأحرى سيركهما الذي يتعارك فيه ـ لغاية امتاعهما أو إزعاجهما ـ المصارعون الذين لم يكونوا ليتصارعوا بالضراوة والوحشية اللتين نعرفهما فيهم لولا أن كبار هذا العالم يهتمون بمجازرهم.

وأكيد أن البحر المتوسط يواصل حياته، أمام أبصارنا، [كما يواصل] الدخول في معاركه الخاصة ومتابعة تصنيعه وتحسين مستوى عيشه ومحو آثار الاستعمار الذي تم تكسيره في نهاية المطاف. وفي جنوب البحر، يجهد الأبيض المتوسط الآخر نفسه ـ من المغرب إلى تركيا والعراق ـ ليستدرك الزمن الضائع الذي يتراكم هو الآخر.

نقل النصّ عن الفرنسية: **محمد بولعيش**

---

* العنوان الأصلي للنص: «التاريخ» (L'histoire)، ضمن كتاب «البحر الأبيض المتوسط: الفضاء والتاريخ» (LA MEDITERRANNÉE: L'ESPACE ET L'HISTOIRE) سلسلة «مجالات» (Champs)، فلاماريون، باريس، 1985، ص ص: 157 ـ 188.

# مدخل إلى السيمياء

## ترنس هوكس

«يمكن لنا تصور علم يدرس حياة العلامات ضمن المجتمع، علم قد يكون فرعا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي فرعا من فروع علم النفس العام. وسوف أسمّيه السيمياء (من اليونانية Sèmeion أي علامة). سترينا السيمياء ممّ تتشكل العلامات والقوانين التي تتحكم فيها. ومادام هذا العلم غير موجود بعد، فلا أحد يستطيع أن يقول ما ستكون حاله، ولكن حقه في الوجود قائم، وموقعه محدّد بصورة مسبقة. وما اللسانيات سوى فرع من علم السيمياء العام. وستكون القوانين التي ستكشفها السيمياء قابلة للتطبيق على اللسانيات، كما سترسم هذه الأخيرة [لنفسها] موقعا واضح المعالم ضمن كتلة المعطيات الانثروبولوجية».

فردينان دي سوسير
(دروس في اللسانيات العامة، ص ١٦)

«ليس المنطق، في معناه العام، وكما أعتقد أنني أظهرت، سوى اسم آخر من أسماء السيمياء (Semiotic)، إنها مذهب العلامات «شبه الضروري»، أو مذهبها الصوري. عندما أنعت المذهب بأنه «شبه ضروري»، أو صوري، أعني أننا [عندما] نلاحظ خصائص بعض العلامات المعروفة لدينا، فإننا نتوصل، انطلاقا من نفس الملاحظة، وبتبعنا لعملية لن أمانع في تسميتها التجريد، إلى بعض التعابير ذات الخطإ الجلي. ومن ثم، فإنها، وبمعنى ما، تعابير غير ضرورية البتّة، بالنظر إلى ما ينبغي أن تكون عليه خصائص العلامات التي يستعملها ذكاء «علمي» ما، أي ذكاء قادر على التعلم عبر التجربة.»

ش - س - بيرس
(الأوراق المختارة، المجلد الثاني، فقرة 227)

أصبح مفهوم «علم من علوم العلامات»، الذي تصوّره بعض المنظّرين الذين عاشوا على جانبي المحيط الأطلسي، وباستقلال عن بعضهم بعضا،

وفي نفس الوقت، [. . .] واحداً من أخصب المفاهيم المشتقة من المهمّة البنيوية في العقدين الاخيرين، [بل إنه] لم يعد من اليسير تمييزه عنها. إن كلمتي سيميولوجيا وسيميوطيقا تستعملان كلتاهما للإحالة على هذا العلم. ويكمن الفرق الوحيد بينهما في كون الأوروبيين يفضلون مصطلح سيميولوجيا بدافع احترامهم لإبداع سوسير لهذه الكلمة، في الوقت الذي يميل فيه الناطقون بالانجليزية إلى تفضيل مصطلح سيميوطيقا بدافع احترامهم للأمريكي بيرس[1] إن حقل السيمياء حقل شاسع بالطبع، بحيث يشمل دراسة سلوك الحيوانات التواصلي (zoosemiotics) وتحليل بعض الأنساق الدّالة، مثل التواصل الجسدي لدى الانسان (Kinesics) و (Proxemics)، والعلامات الشمية («ترميز الروائح»)، والنظرية الجمالية والبلاغة [2]. بصورة عامة، إن له حدودا (إذا ما كان لها وجودٌ ما) مشتركة مع البنيوية: أي أن مصالح الجانبين ليست منفصلة أساساً. ويحتمل أن فرعاً معرفياً ثالثاً سيحتويهما، على المدى البعيد، احتواءاً مناسباً ضمن منطقة خاصّة. إننا سنسمّي هذا الفرع المعرفي، وببساطة، **التواصل**. ونحتمل أن البنيوية نفسها ستظهر، في مثل هذا السياق، بوصفها منهجا تحليليا يربط حقل اللسانيات بحقلي الانثروبولوجيا والسيمياء [3] ومن ثم، سأحاول تقديم عرض مختصر جداً للسيمياء هنا فحسب، قبل حصر النقاش في تناول بعض تضميناتها بالنسبة إلى طالب الأدب.

ثبت الآن أن اللغة تلعب، في المجتمعات الإنسانية، وبوضوح، دوراً قوياً، وأنها تعتبر عموما وسيلة التواصل المهيمنة. ومن الواضح كذلك أن البشر يتواصلون بوسائل غير لفظية، وبطرق ينبغي نعتها، من ثم، بأنها وسائل غير لغوية، (رغم أن الصيغة اللغوية لاتزال مُشكِّلة ومهيمنة)، أو وسائل ذات مفعول «يمدّد مفهومنا للغة ليحتوي مناطق غير لفظية. والواقع أن «تمديداً» [بهذا الحجم] هو بالضبط إنجاز السيمياء العظيم. تقول جوليا كريستيفا (J. Kristeva): «ما اكتشفَتْه السيمياء هو أن القانون الذي يحكم، أو إذا

1) انظر عرض بيير غيرو (P. Guiraud)، «السيمياء»، ص ص 1 ـ 14.

2) انظر المسح الذي قام به أومبرتو ايكو (U. Eco) في: «نظرية السيمياء»، وهو مسح به ما يكفي لتبيط الهمم. ص ص 9 ـ 14.

3) قارن مع اقتراح بارت لقلب تراتب سوسير، وتعيين السيمياء جزءا من اللسانيات، مبادىء في السيمياء، ص 11.

شيئا، أن الإكراه الرئيس الذي يؤثر في أيّة ممارسة اجتماعية يكمن في كونه ذا دلالة، يعني أنه متمفصل مثلما تتمفصل لغة ما [4]. وبتعبير آخر، لا أحد يتكلم فحسب. إن أيّ حدث ـ كلامي يتضمّن نقل بعض الرسائل عن طريق «لغات» الإيماءة، والحالة النفسية، والزي، وتصفيف الشعر، والعطر، واللكنة، والسياق الاجتماعي الخ . . . إنها لغات فوق الكلمات وأعلى منها، تحتها وأدنى مرتبة منها، بل وحتى متعارضة مع ما تقوله الكلمات فعلا. وحتى عندما لا نتكلم، أو يوجّه لنا الخطاب، فإن الرسائل القادمة من «لغات أخرى» تزدحم حولنا: ومنبّهات السيارات تزمّر، والأضواء تلتمع، والقوانين تكبح، ولوحات الاعلانات الضخمة تصرّح، تثيرنا بعض الروائح أو تنفّرنا، تعجبنا بعض المذاقات أو تغثينا، بل وحتى «ملمس» بعض الأشياء ينقل لنا شيئا ذا دلالة نقلا منهجياً. إن دور الإنسان في العالم، وكما توحي به هذه الوضعية، دور تواصلي في الجوهر. إنه يتلقى الرسائل ويرسلها، كما أثبت ذلك كريماس (Greimas): بل هو يجمع المعلومات ويوزّعها. وبتعبير سابير (E. S. apir): «إن أي نموذج ثقافي، وأي فعل من أفعال السلوك الاجتماعي يتضمن التواصل، سواء أكان ذلك بالمعنى الظاهر أم بالمعنى الضمني» [5].

يوحي رومان ياكبسون (R. Jakobson) بمقاربة لهذا الحشد من الأنساق العلامية، حيث يشرع في تأمل بعض المبادىء العلامة:

«ما من رسالة إلا وتتكوّن من علامات. وبالتطابق، فإن علم العلامات الذي ننعته بمصطلح السيمياء يبحث في تلك المبادىء العامة التي تؤسس بنية جميع العلامات، مهما تكن هذه العلامات، ويبحث في خصائص استعمالها ضمن رسائل، كما يبحث في مواصفات أنساق العلامات المختلفة ومواصفات الرسائل المختلفة التي تستعمل هذه الأنواع المختلفة من العلامات»

(«اللغة في علاقتها مع أنساق التواصل الاخرى»، المؤلفات المختارة. م 2، ص 698)

---

4) جوليا كريستيفا (J. Kristeva)، «النسق والفاعل المتكلم»، الملحق الثقافي لجريدة التايمز، 12 أكتوبر 1973، ص 1249.

5) «كتابات مختارة في اللغة والثقافة والشخصية». ص 104.

ويضيف ياكبسون بأن دراسة أنساق العلامات مشتقة من إدراكنا البدئي والقديم جداً بأن للعلامة مظهرين: «[مظهر] المشير (Signans) وهو القابل للادراك مباشرة، و[مظهر] المشار إليه (Signatum) (ن. م ص 699)، الذي يمكن استنتاجه وفهمه». هذا لا يختلف جوهريا عن التمييز الذي سجّله سوسير بين الدال والمدلول: فالعنصران يوظفان كلاهما كمظهرين من مظاهر «وحدة العلامة التي لا تنفصم». إن العلاقات المختلفة والممكنة بينها تشكل قاعدة البنيات السيميائية.

والواقع أن مؤسس السيمياء الامريكي، الفيلسوف ش. س. بيرس (C.S. Peirce) (1839 ـ 1914) اقترح تصنيفاً معقداً للعلامات، وبالتحديد بلغة العلاقة المختلفة التي تظهرها [كل علامة] بين المشير والمشار إليه، أو الدال والمدلول. وأثبت، خلال عمله هذا، بأنه لم يكن يتعرّض لأقل من أسس المنطق نفسه.

إن المنطق موجود، من وجهة نظر بيرس، باستقلال عن التفكير والواقعة كليهما. وليست مبادئه الاساس هي المسلمات، وإنما هي «التعريفات والتقسيمات» (الأوراق المختارة . م. 3 فقرة 149)، وتشتق هذه الاخيرة، في نهاية المطاف من طبيعة العلامات ووظائفها [6]. وكنتيجة، بإمكاننا النظر إلى المنطق بوصفه «علم القوانين العامة والضرورية للعلامات» (ن. م، م 2، فقرة 227)؛ ومعناه أن المنطق علم العلامات.

إن العلامة أو الممثِّل (representamen) «شيء يرمز إلى شيء ما بالنسبة إلى شخص ما، في نقطة من النقاط أو صفة من الصفات» (ن م، م 2، فقرة 228). إنها «أي شيء يجعل شيئا آخر (أي مؤوِّله interprétant) يحيل على

6) إننا نحيل على الأوراق المختارة لـ ش. س. بيرس في ثمانية مجلدات، ط. تشالز هرتشورن (C. Hartsthorne) ،وبول فايس (P. Weis) وآرثر و. بركس (A.W.Burks) ، كمبريدج، ماساشوستس، مطابع جامعة هارفرد، 1931 ـ 1958). وثمة طبعة شاملة لأعمال بيرس قيد الانجاز [. . .]. كما أن كتاب جيمس ك. فيلمان (J.K.Feibleman) : «مدخل إلى فلسفة بيرس» (لندن: آلن وآنوين 1960) يعطينا تعليقا وترتيبا منهجيا لعمل بيرس مفيدين جدا. انظر على الخصوص ص ص 81 ـ 95 وص 197 وما يتلوها.

موضـوع، يحيل هو نفسـه عليه (أي موضـوعه objet)» (ن م، م 2، فقرة 303). فالعلامة ترمز إلى شيء ما (أي موضوعها)، وترمز إلى شيء ما بالنسبة إلى شخص ما (أي مؤوِّلها)، وترمز أخيرا إلى شيء ما بالنسبة إلى شخص ما في نقطة من النقاط (وتسمّى النقطة الأرضية ground). ومن ثم، بإمكاننا النظر إلى هذه التعابير: الممثل، والموضوع، والمؤوِّل، والأرضية، باعتبارها تحيلنا على الوسائل التي تستعملها العلامة للدلالة. إن العلاقة بينها تحدد الطبيعة الدقيقة للعملية السيميائية (Semiosis).

ويستخلص بيرس أن العلامة تتضمن، عادة، العناصر الثلاثة التالية: الممثل (أو العلامة)، و الموضوع والأرضية، داخل بنيات «ثلاثية الشكل» أو «ثالوثات» (Trichotomies)، حيث يقوم العنصر الرابع، أي المؤوِّل، بالادراك عبر حدودها. وثمة ثلاثة أنواع من البنيات، وهي كالتالي:

أ ـ «علاقات المقارنة الثلاثية»:

أو الإمكـانـات المـنطقية المؤسَّسة على نوع العلامة. إنها [من جهة] العلامة الكيفية (qualisign). وهي «خاصية» تعمل كعلامة بمجرد أن يتم إدماجها. وهي [من جهة أخرى] العلامة الفردية (Sinsign)، أي شيء فعلي أو حدث يعمل، وببساطة، كعلامة فردية (وكما يظهر من السـابقة Sin)، وهي [من جهة ثالثة] العلامة القانونية (legisign)، أي قانون يعمل بوصفه علامة (لا باعتباره موضوعا مفردا، بل باعتباره العمل المجرّد لمجموعة من القوانين والمبادىء: فالنحو يعمل كعلامة قانونية متواترة ضمن اللغة).

ب ـ «علاقات الإنجاز الثلاثية»:

وتتضمن كينـونات فعلية في العالم الواقعي، الذي يتأسس على نوعية الأرضيـة. إنها [من جهـة] الأيقونة، أي شيء ما يعمل كعلامة من خلال ملامح يملكها وتشبه موضوعه. وهي [من جهة أخرى] الاشارة (Index)، أي شيء ما يعمل كعلامة بحكم علاقة حقيقية أو سببية تجمعه بموضوعه. وهي [من جهة ثالثة] الرمز، أي شيء ما يعمل كعلامة بسبب «قانون» ما من قوانين الربط الاصطلاحي أو الاعتيادي بينه وبين موضوعه.

ج ـ «علاقات الفكر الثلاثية»:

وتتأسس على طبيعة الموضوع. إنها [من جهة] التعليق (rheme) أو الوحدة المعنوية (Seme)، أي علامة تشير بالنسبة إلى المؤوِّل إلى الإمكانية المفهومة لموضوع ما، في حالة ما إذا أتيحت له مناسبة تنشيطها أو استدعائها، وهي [من جهة أخرى] المقول (أي dicent أو dicisign أو pheme)، الذي ينقل معلومات ما عن موضوعه، في مقابل علامة يمكننا اشتقاق معلومات منها، وهي [من جهة ثالثة] العلّة (argument)، أي علامة موضوعُها ليس شيئاً مفرداً بالأساس، بل هو قانون ما.

يقترح بيرس، فضلا عن ذلك، تركيبات ممكنة ومتنوعة بين النماذج التسعة المثبتة أعلاه، قد تنتج لنا عشرة أصناف من العلامات: فهناك مثلا العلامة القانونية المقولة الرمزية (أو القضية)، والعلامة الفردية الإشارية التعليقية (أو الصرّخة العفوية)، والعلامة الفردية الإشارية المقولة (أو دوّارة الهواء)، الخ. [وإذا] أجرينا تركيبات، بين أصناف العلاقات العشرة الأساس، حصلنا، في النهاية، على ستة وستين صنفا من أصناف العلامات أكثر اكتمالا، تحمل مجموعات متنوعة من بينها أهمية بالغة في تحليل بيرس للمنطق وترتيبه له ترتيبا منهجيا [7].

إذا أخذنا منطق بيرس بعين الاعتبار، لاحظنا أن تعقيد نسقه ناتج عن واقع أن أي شيء يمكن لنا عزله ثم ربطه بشيء آخر فـ«تأويله»ـه، هو [شيء] بإمكانه أن يعمل كعلامة. ومعنى هذا أن مفهومه للعلامات سيكون ذا نفع في أحد أهم المجالات: مجال الابيستيمولوجيا، أي تحليل عملية «المعرفة نفسها»، أو تحليل امكانية المعرفة. وقصد التبسيط [من جهة]، «اعتبارا لكون [نظرية] بيرس مركزية في تجربتنا للعالم الواقعي [من جهة أخرى]، فإن معظم مؤوِّلي بيرس قد مالوا، لحدّ الآن، إلى حصر اهتمامهم في تطبيق نظرياته ضمن هذا المجال. إن الإطار الصالح لوجود المعرفة، حسب بيرس، مشتق من توكيد القضايا عبر «ثلاثية» العلامات الثانية، أي عبر الايقونة والإشارة والرمز. ومن ثم، تتطلب أهمية [هذه العلامات] فحصاً أدق.

7) للوقوف على نقد شامل لمقولات بيرس، انظر أومبرتو إيكو، ن. م. ص 178 وما يتلوها.

تتمّ العلاقة بين العلامة والموضوع، أو بين الدال والمدلول، في الايقونة، حسب تعبير بيرس، عن «تشارك في خاصية ما»، أي عن تشابه أو «تلازم» في الشبه تقترحه العلامة، وينبغي لمتلقيه التعرف عليه. وبالتالي، ثمة علاقة أيقونية تجمع رسما بيانيا أو لوحة ما بموضوعها في حدود مشابهتها له: إنها علاقة الدال بمدلول موضوعه في الصّيغة الأيقونية.

أما في الإشارة، فالعلامة ملموسة، وفعلية، ومن نمط تعاقبي وسببي. إن الإصبع الذي يشير دال، وعلاقته بمدلوله ذات صيغة إشارية. والقرع على الباب إشارة إلى وجود شخص ما، والصوت الصادر عن منبّه السيارة علامة على وجود السيارة بنفس الصيغة. كما أن الدخان إشارة إلى النار، ودوّارة الهواء إشارة إلى اتجاه الريح.

«وتكون العلاقة، في الرّمز، بين الدال والمدلول، علاقة اعتباطية وتتطلب من المؤوّل حضورا فعّالا لإنجاز الربط الدّال. نستطيع القول طبعا، واستنادا إلى سوسير، إن أهم تجلٍّ منهجي للعلامات يتم، بهذه الطريقة، في اللغة. فبينما يكون بمقدورنا القول إن إصبعي المشير، أو ملاحظتي لورقة ما، إشارة إلى شجرة ما، وبينما تشكل لوحتي أو رسمي البياني أيقونة لشجرة ما، فإن تلفّظي بكلمة «شجرة» (أو arbre أو Baum أو arbor) رمز للشجرة، لأنه لا وجود لأية خاصية داخلية وضرورية «وشبه شجرية» داخل هذا الدال: فعلاقته بشجرة فعلية تظل علاقة اعتباطية بالأساس (أو علاقة «منسوبة» بلغة بيرس). ولا يسندها سوى بنية اللغة التي ترد فيها، أي لغة مفهومة من طرف مؤوّلها، من دون إحالة على أي مجال من مجالات التجربة التي تتجاوزها.

ومن الهام أن نسجّل هنا أن هذه «الثلاثية» لا تتضمن أنواعا من العلامات تقصي بعضها بعضاً، وإنما تتضمّن ثلاث صيغ من العلاقات بين العلامة والموضوع، أو بين الدّال والمدلول، صيغ تتواجد على شكل تراتب، وسيكون لاحداها السيطرة على الصيغتين الأخريين لا محالة. وبإمكاننا، كما لاحظ ياكبسون، الحصول على أيقونات رمزية، ورموز أيقونية، الخ. إن طبيعة الصيغة التي ستسيطر على علامة ما، في نهاية المطاف، ستكون رهينة، في الاخير، بسياقها (كاستعمال منبّه سيارة في شريط سينمائي، للإشارة إلى الفرَج والأمان، بدل إشارته إلى الخطر والكارثة، الخ). ومن ثم، يمكن لنا

القول، وبلغة الايبستيمولوجيا، إن إشارة المرور تمزج بين الاشارة (أي أنها تشير إلى وضع معيّن، وتطالب بفعل مباشر ومرتبط سببيا) والرمز (فالأحمر يشير، في مجتمعنا، إلى «الخطر»، و«الوقوف»، بينما يشير الأخضر إلى العكس. لقد أصبح هذان اللونان، اللذان تم ربطهما بصورة اعتباطية، متعارضين تعارضا ثنائيا، وعبر نسق المرور الإشاري، باعتبارهما رمزين).

إن تحليل بيرس يقول لنا الكثير عن أنواع العلامات الموجودة، والطريقة التي تعمل بها، والطرائق التي تتحكّم في استعمالنا لها. إن الأهمية الكبرى التي تكتسيها نظرياته، وتشعّب كتاباته ومداها في هذا الموضوع، [كلها أمور] تعني وجوب الاعتراف بأهمية مساهمته في النظرية السيميائية اعترافا واسعا. إننا نرجح أن موجة الاهتمام الحديثة بهذا الموضوع، وسرعة نموّها، ستؤدّيان، في نهاية المطاف، إلى الاعتراف بموقعه الحقيقي.

بإمكاننا سماع أكثر من صوت واحد [8]، في هذه الفترة، وفي غياب نظرية سيميائية يقبلها الجميع، وبإمكاننا الحصول على بعض التبصّرات الكفيلة بمساعدتنا أكثر من غيرها، إذا عدنا من أمريكا إلى أوروبا، وتركنا أحد «الأبوين المؤسّسين» لنلتقي بالآخر: أي بنموذج التواصل اللغوي الذي أوحى به سوسير.

إن رولان بارت (R. Barthes) واحد من أقوى مؤوّلي سوسير في ميدان السيمياء. فهو يعبر، في مقالته «الأسطورة اليوم» [9]، على أنه ينبغي لأي تحليل سيميائي افتراض علاقة ما بين الحدّين، الدّال والمدلول، لا تكون علاقة «مساواة» بل علاقة «تكافوء». إن ما ندركه ضمن العلاقة ليس الترتيب التتابعي، حيث يقودنا أحد الحدّين إلى الحد الآخر، وإنما الترابط الذي

---

8) بإمكاننا أخذ فكرة جيدة عن المدى الذي وصله البحث الحديث من الإصدارين اللذين كرسهما الملحق الثقافي لجريدة التايمز للموضوع تحت عنوان «العلامة الواشية: مسح للسيمياء» بتاريخ 5 و12 أكتوبر 1973. ويعطينا كتاب أومبرتو إيكو الحديث: «نظرية للسيمياء» عرضا جيدا «لحالة اللعبة» في الوقت الراهن، ولو أنه عرض مجرد. كما أن كتاب غيرو، «السيمياء»، يعالج القضايا المركزية بصورة مفيدة رغم تقادم عهده.

9) يشكل هذا القسم الأخير من «الميثولوجيات» ص ص 109 ـ 159.

يجمعهما. هذه «العلاقة البنيوية» (كما أسميتها أعلاه) بين الصوت والصورة (الدال) والمفهوم (المدلول) تشكل، بالنظر إلى اللغة، ما يسميه سوسير العلامة اللغوية. ويقول بارت إن هذا «الجمع التشاركي» (associative total) بين الدال والمدلول يشكل، بالنظر إلى الانساق غير اللغوية، العلامة فحسب.

ومثاله على ذلك باقة من الورد. فهي قد تستعمل للدلالة على الهيام. فإذا كان الامر كذلك، كانت باقة الورد هي الدّال، والهيام هو المدلول. إن العلاقة بين الإثنين («الجمع التشاركي») تنتج لنا الحدّ الثالث، أي باقة الورد باعتبارها علامة. ومن الهام أن نفهم بأن باقة الورد، بوصفها علامة، مختلفة اختلافا كبيرا عن باقة الورد بوصفها دالا: أي باعتبارها كيانا جنانيا. إن باقة الورد، كدالّ، فارغة، أما كعلامة فهي مليئة. وما ملأها (بالدلالة) هو التركيب بين قصدي وبين طبيعة صيغ المجتمع المألوفة وقنواته التي توفر لي سلسلة من وسائل النقل لهذا الغرض. هي سلسلة واسعة، ولكنها أخضعت للعادة، وأصبحت متناهية تعطينا نسقا معقدا من الطرق الدلالية.

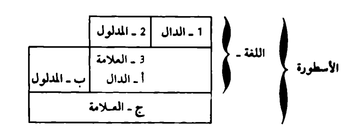
«.. خذ حصاة سوداء: بإمكاني جعلها تدلّ بأكثر من طريقة. إنها مجرّد دالّ. ولكنني إذا وزنتها بمدلول محدّد (كالحكم بالإعدام في تصويت سري مثلا)، أصبحت علامة» (الميثولوجيات، ص 113).

ومع ذلك، فعملية الدلالة لا تتوقف هناك. إن بارت ينتقل إلى تناول الطرق التي تدلّ بها الاسطورة داخل المجتمع (هو لا يعني بكلمة «أسطورة» الأسطورة «الكلاسيكية»، كما رأينا سابقا، بقدر ما يعني [ذلك] النسق المعقّد من الصّور والمعتقدات التي يبنيها مجتمع ما بغرض تدعيم وتأصيل صورة وجوده الذاتي، أي نسيج نسقه «الدلالي»).

ويستخلص بارت أننا، في حالة الأسطورة، نجد، ثانية، العملية الدلالية الثلاثية المتناولة أعلاه: الدال والمدلول ونتاجهما، أي العلامة. والحال أن خصوصية العلامة تكمن في كونها تشتغل اشتغالا ثابتا، بوصفها نسقا سيميائيا من الدرجة الثانية، بُني على قاعدة سلسلة سيميائية سابقة له. إن ما كان يتمتّع بمرتبة العلامة في النسق الأول أي «الجمع التشاركي» بين الدال

والمدلول) أصبح مجرّد دالّ في النسق الثاني. ومن ثم، وحيث تزوّدنا اللغة بنموذج لما قد نسمّيه الدلالة الأولية (في حالة باقة الورد مثلا)، [نجد أن] نموذج الدلالة الثانوية (أو الأسطورية) أعقد:

إن الأمور تسير [هنا] كما لو أن الأسطورة طرحت النسق الشكلي للدلالات الأولى جانبا. ومادام هذا الطرح الجانبي جوهريا بالنسبة إلى تحليل الأسطورة، فسأمثّل له بالطريقة التالية، على أن يكون مفهوما، بالطبع، بأن إضفاء البعد المكاني (spacialization) على هذا النموذج، ما هو، هنا، سوى استعارة:




(الميثولوجيات: ص 115)

بتعبير آخر، تمارس الأسطورة فعلها عبر تناولها لعلامة («مليئة» بالدلالة) سبق إثباتها، و«استنزافها» حتى أصبحت دالا «فارغا». وهذا أحد أمثلة بارت المعروفة جدا:

«أنا عند الحلاق، [وبين يدي] نسخة من [مجلة] باري ماتش تم تقديمها لي. على الغلاف شاب زنجي يرتدي بذلة عسكرية فرنسية ويحيي العلم رافعاً عينيه. لعله يحدّق في ثنية من ثنايا العلم الفرنسي - كل هذا هو معنى الصورة. ولكنني أرى جيّدا، سواء أكان ذلك بسذاجة أم لا، ماذا تعني الصورة بالنسبة إليّ: إن فرنسا أمبراطورية كبيرة، وأن أبناءها يخدمون كلهم، دون ميز عنصري، وبوفاء، تحت

رايتها، وأنه لا ردّ على منتقدي [سياستها] الاستعمارية المزعومة أفضل من الحماس الذي يبديه هذا الزنجي في خدمة مضطهديه المزعومين. ومن ثم، أجدني في مواجهة نسق سيميائي أكبر: هناك دالّ سبق له أن تشكل عبر نسق سابق (أي جندي زنجي يؤدي التحية الفرنسية)، ومدلول (وهو هنا مزيج مقصود من الفرنسة والطابع العسكري)، وهناك، أخيرا، حضور المدلول عبر الدال»
(الميثولوجيات، ص 116)

يقترح بارت، فضلا عن ذلك، أن نسمي هذا الحدّ الثالث للأسطورة (التي سنسميها العلامة في ميدان اللغة) **الدلالة**، ونسمي الحدّ الأول (أي الدال) **الشكل**، والحدّ الثاني (أي المدلول) **المفهوم**. ومن ثم، وحيث تتولّد **العلامة** من علاقة **الدال بالمدلول** في المرتبة الدلالية الأولى، أي مرتبة اللغة، تتولّد **الدلالة** من علاقة **الشكل** (أي علامة المرتبة الاولى) **بالمفهوم** في المرتبة الدلالية الثانية، أي مرتبة الاسطورة.

صادفنا في الدلالة، بالطبع، مُنتجا قويا جداً (بسبب خفائه) للمعنى، في مستوى يهيمن فيه انطباع بواقع «طبيعي» أو «صادر عن الله».ويرجع ذلك أساسا إلى كوننا نعجز عادة عن إدراك العمليات المتّبعة في صنعه. إن تحليل بارت للعملية السيميائية (semiosis)، بانتقاله إلى هذا المستوى، ومرورا بسوسير، بدأ يأخذنا «خلف كواليس» تبدو كأنها كواليس بنائنا الخاص للعالم.

وبإمكاننا الوقوف على غنى هذا التصوّر عندما يطبقه بارت على العمليات الدلالية التي ننعتها عادة بلفظي «التعيين» (denotation) و«التضمين» (connotation). إن معنى «التعيين» بالنسبة إلينا هو عادة استعمال اللغة بطريقة تدلّ بها على ما تقوله، بينما معنى «التضمين» هو استعمالها بطريقة تدلّ بها على غير ما تقوله. إن «التضمين»، بالطبع، من المميزات المركزية لاستعمال اللغة استعمالا «أدبيا» أو «جماليا». والتضمين، في رأي بارت، يمثّل، في ابتعاده السريع عن التعيين، ابتعاد الاسطورة عن الدلالة العادية. ومن ثم، يحدث التضمين عندما تغدو العلامة، الناتجة عن علاقة سابقة بين الدال والمدلول، [هي نفسها] دالا على علامة أبعد.

«من ثم، يكون النسق الأول هو مستوى التعيين، والنسق الثاني [. . .] هو مستوى التضمين، وسنقول بالتالي، إن نسقا تضمينيا هو نسق تمّ تشكيل مستوى تعبيره نفسه (أي الدّال) من طرف نسق دالّ: وستشمل حالات التضمين الشائعة، بالطبع، أنساقا معقدة، تكون اللغة هي أوّلها (هذه هي حال الأدب مثلا)» [9].

باختصار، إن دوالّ التضمين تتكوّن من علامات (أي من دوالّ مرتبطة بمدلولات) النسق المتعينّ. هذا ما ينتج لنا التضمين، وبالتالي، هو ذا ما ينتج لنا الأدب عموما، أي أحد «الأنساق الدّالة المصنّفة في المرتبة الثانية»، وهي أنساق نضعها فوق نسق «المرتبة الأولى» اللغوي وضعا متميزا.

إن لدينا كذلك وضعا عكسيا تصبح فيه العلامة، الدّالة على علاقة سابقة بين الدال والمدلول، مدلولا لعلاقة أبعد. ويصبح نسق «المرتبة الثانية»، في هذه الحالة، ورالغة (metalanguage). هو ذا وضع السيمياء نفسها. إنها تعمل بوصفها ورالغة للعملية السيميائية (semiosis) الخاضعة لدراستها.

إن أي تفسير للبنيات السيميائية يبرز الكائنات البشرية بوصفها منتجة عنيدة وغير مميِّزة للعلامات. وكما أظهرت أعمال ليفي ستروس وآخرين، فإن أي مظهر من مظاهر النشاط الانساني يحمل إمكانية استعماله كعلامة، أو إمكانية أن يصبح كذلك. وما علينا سوى «تنشيطه» بانسجام مع إحدى العمليات أعلاه. إن العلامة، كما قال أومبرتو إيكو (U. Eco)، هي أي شيء يمكن اعتباره «بديلا دلاليا عن شيء آخر» [10]. وبالتالي، لا وجود، في عالم الانسان، لأي شيء له طابع نفعي فحسب: فحتى العمارات العادية جدّا تنظّم الفضاء بطرق متنوعة. إنها تدلّ بفعلها هذا، وتصدر رسالة ما حول أسبقيات المجتمع ومستلزماته بخصوص الطبيعة البشرية، والسياسة والاقتصاد. [إنها تفعل هذا]، فوق وبعد اهتمامها الصريح بتوفير الوقاية والتسلية والعناية الطبية أو غيرها. كذلك الحواس الخمس كلها (الشم، واللمس، والذوق، والسمع، والبصر) صالحة للعملية السيميائية: أي صالحة لإنتاج العلامات وتلقّيها. إن استعمالاتنا للعطور، ولمادة النسيج قصد اللبس،

9) مبادىء في السيمياء ص ص 89 ـ 90، إن القوس الأول من صنيعي.
10) ن. م. ص 7

والطرق التي تشير بها الأذواق الناتجة عن الطبخ إلى المرتبة الاجتماعية، والموقع، و«الهوية»، و«الغرابة»، استعمالات متعددة. فما من حاسة من هذه الحواس إلا وتستجيب، بالاضافة إلى ذلك، وبانسجام مع الحواس الاخرى، إلى أنساق العلامات المصمَّمة قصد استغلالها في تراتبات مختلفة. وبإمكاننا أن نتصوّر وجود لسان للطبخ، تُشكِّل كل وجبة كلامه، وتكون الحاسة الأكثر استغلالا، بارتباط معه، هي حاسة الذوق، رغم أن لكل من البصر والشم دوره كذلك. ولا شك أيضا في وجود لسان للعطر، [بل] لسان «للزي»، والكتابة حول الزي، على وجه العموم، كما برهن بارت على ذلك (مع بعض التعقيدات في مقالته: «نسق الازياء» برهنة مفصّلة [11]. مع ذلك، إنه لجليّ، كما قال ياكبسون، أن تكون «أكثر أنساق العلامات جمعنة ووفرة وملاءمة، ضمن المجتمع البشري، مؤسسة على السمع والبصر». (ن. م. ص 701)

تختلف العلامات السمعية، من حيث الخصائص، اختلافا جوهريا عن العلامات البصرية، فالأولى تستعمل الزمان، بدل المكان، كعامل رئيس من عوامل البنية. أما الثانية فتستعمل المكان بدل الزمان. وفي حين تميل العلامات السمعية «الزمنية» إلى أن تكون رمزية الخصائص، تميل العلامات البصرية «المكانية» إلى أن تكون أيقونية الخصائص. وتعطينا الاولى، لدى تبلورها تبلورا تاما، الأشكال الرئيسية للغة المتكلَّمة والموسيقى، [مترجمة إلى] لغة الفنّ. أما الثانية فتعطينا الأشكال الفنية الخاصة بالرسم والنحت والهندسة المعمارية، الخ. بالطبع، إننا نجد، خارج إطار هذه التعميمات العريضة، أشكالا فنية تدمج كلتا العلامتين: كالدراما، والاوبرا، والشريط السينمائي والتلفزة، الخ.

بإمكاننا إنتاج العلامات إما عضويا، أي بجسمنا، أو أدواتيا، أي عبر تمديد تكنولوجي للجسد. إن اللغة «أصفى» نسق عضوي سيميائي. فكل مظهر من مظاهرها ذو دلالة، ولا نفعل أكثر من إنتاجه عبر أجسادنا. وحين يتسبب «تمديد» الجسد، الذي نسمّيه التوسط، في هيمنة عامل من العوامل العضوية على العوامل الأخرى (إن للتلفون هذا المفعول على الصوت، كما أن

11) انظر تناول بارت لـ «الأنساق الدّالة» [الخاصة] باللباس والغذاء، والسيارات والأثاث ضمن: «مبادىء في السيمياء»، ص ص 25 ـ 30.

للفيلم الصامت نفس المفعول على الإيماءة الجسدية)، فسيؤثر لا محالة في طبيعة الخطاب، أي أن التوسّط سيشرع في التأثير على الرّسالة، وحين يتخذ هذا الأمر شكله الأقصى، فإننا لا نجد أنفسنا في مواجهة توسُّط ينقل لنا رسالة مرزومة قبليا فحسب، وإنما في مواجهة نسق سيميائي مستقل ذاتيا، ومتمتّع بـ «حياة» (أي برسائل) خاصّة به.

[ونجد] أحد أهمّ الأمثلة المجسِّدة لهذه العملية في النسق الكتابي الخاص بلغة ما. ولا يخامرنا شك، رغم أننا تعوّدنا، عبر تجربتنا الطويلة، على نسقنا الكتابي الخاص، في كونه لا يقتصر على تسجيل لغتنا فحسب. وكما يقول ياكبسون:

«تميل اللغة المكتوبة إلى تطوير خصائصها البنيوية المميِّزة لدرجة أن تاريخ نوعين رئيسيين من الأنواع اللغوية، أي الحديث والرسائل، غنيٌ بالتوترات الجدلية، و[مظاهر] التناوب بين التنافرات والتجاذبات المتبادلة». (ن. م.: ص 706)

لهذا، عندما نتناول ما يمكن للسيمياء أن تساهم به في دراسة الأدب، فإن «الخصائص البنائية المميِّزة» المتعلقة بالكتابة تصبح، بجلاء، مصيرية، مادامت تشكل، سيميائيا، جزءاً كبيرا مما توصلنا به قطعة مكتوبة.

إن الكتابة تمزج، في آخر المطاف، نوعين من العلامات. [هكذا] تصبح اللغة، ذات الصيغة السمعية عادة، بصرية عندما تكتب أو تأخذ شكلا طباعيا. إن التزام العلامة السمعية بالزمان، باعتباره عامل تبنينها، ينضاف (وهذه العملية هي، بمعنى ما، عملية اختزالية أيضا) إلى التزام العلامة البصرية بالمكان. ومن ثم، تفرض الكتابة على اللغة خطّية وتتابعا ووجود فيزيقيا في المكان، [وهي خصائص] لا يملكها الحديث. بل إن العلامات السمعية «الزمانية» تميل، كما لاحظنا أعلاه، إلى أن تكون رمزية الخصائص (بلغة بيرس)، بينما تميل العلامات البصرية «المكانية» إلى أن تكون أيقونية الخصائص. ومن ثم، ستكون كلتا العلامتين، ضمن الكتابة، دائمتي الحضور، وقادرتين على الدلالة.

هكذا يُصدر جنسا اللغة، اللذان يتميزان حين تأخذ شكلا مكتوبا، أي الشعر والنثر، رسائل أيقونية حول طبيعتها عبر الوسائل البصرية الطباعية

فوق وبعد (أو تحت ودون) الرسائل الرمزية لمحتواهما. إن القصيدة «تتخذ» شكلا مغايرا لقطعة نثرية كما أن الرواية «تشبه» الرواية، ولا تشبه كتاباً مدرسيا. وبإمكان الكاتب أن يختار التصعيد من حدّة رسالته الأيقونية، أو التخفيف منها، [وذلك] في علاقة مع الرسالة الرمزية الصادرة عن «محتوى» الكتابة، ويتعلق الأمر بطبيعة الرسالة الكلية التي يريد [إيصالها].

إن مؤلف رواية بوليسية، مثلا، يهتمّ عادة بالمحتوى أساسا، ولن يرى في أية رسالة أيقونية تتجاوز [هذا التعبير]: «هذه رواية بوليسية» سوى تداخل [طارىء]. من جهة أخرى، قد يرغب روائي مثل جُويْس (Joyce) في الرفع من المستوى الأيقوني للرسالة الكلية قصد التوتر، والتهكم، والتعليق الاجتماعي إلخ . . . ومن ثم، نرى أن الرسالة الأيقونية [التالية]: «هذه رواية» تتغيّر فجأة، في هذا المقطع من رواية يوليسيز:

عيون المحار. لا تبال. سيأسف كثيرا عندما<br>سيتضح له ذلك. إنك ستؤثّر عليه بهذه الطريقة<br>شكرا. حالتنا جيدة جدا هذا الصباح<br>في قلب المدينة الايرلندية الكبيرة<br>أمام نصب نلسون التذكاري، تمهّلت عربات الترام<br>غيرت الخط والعربة، وقصدت بلاكروك، وكنزتاون<br>ودالكي، كلونسكي، ورائغار، وتيرينور<br>حامل التاج.<br>نادى ماسحو الأحذية، تحت رواق مكتب البريد<br>الرئيس، ومسحوا. .

(يوليسيز، ص ص107 ـ 108).

وتتحوّل إلى [هذه الصيغة]: «هذه جريدة».

وبالمثل، إن المقطع المأخوذ من رواية كريستين بروكروز (C. Brooke-Rose) : «عبر» (Thru) ، يستعمل درجة عالية من درجات التواصل الايقوني:

ما لم تُنقل المرآة إلى

العزلة الفجائية

حيث لا ترى أي شيء في

خلفية

الـ

دماغ

و

لا

راوي قط، رغم أنها ليست سوى طريقة من طرق الكلام، مادام النص قد خرج، بطريقة ما، إلى الوجود، ولكن بدرجات متفاوتة من الحضور، تنحني على، أو تحدق في، الفضاء التعامني (diasynchronic) أو

في سلسلة الدوال الصوتية

مثل علي نور الدين الأمرد

[أو] ماركس الذي لا يأخذ نقاطا ويحملق

بعينين جذابتين تميلان الى

السلسلة شتاتا بنظرة مصغية

ولكنها في حاجة إلى التعديل» (ص 32)

أما في القصيدتين التاليتين، فإن كلًّا من إ. إ. كامنز (EE Cummings) ووليام كارلوس وليامز (W.C. Williams) يعتمد على بعض العلامات الأيقونية البصرية باعتبارها مقومات هامة [لتدخل] في الرسالة الكلية:

«بعد الربّ طبعا إنّي يا أمريكا

أحبّك يا أرض الحجّاج وهلم جرًا أوه

قولوا لي هل ترون في الصّباح الباكر

بلدي هي ذي القرون تأتي وتمضي

وتذهب ريحها وهل لنا أن نقلق

في كلّ لغة وحتّى في الأطرشأبكمية

ها أبناؤك يحيّون اسمك المجيد بحق السماء
بحق المسيح والواقع، بحق الاله وقسما
لِمَ الكلام عن الجمال وهل هناك أجـ
مَلُ من هؤلاء الأبطال السعداء الموتى
من هرعوا مثل الليوث نحو المذبحة الهادرة
لِمَ يتوقفوا ليفكروا بل ماتوا عوضاً
وهل سيُخرس صوت الحرية؟»
قالها. وبسرعة تجرّع كأسا من الماء.

إ. إ. كامنز (e.e. cummings)

مجرد كلام:

«أكلت
الخوخ
الذي كان
في الثلاجة

والذي
ربّما كنت
تدّخرينه
للفطور

فلتغفري لي
كان لذيذا
وحلو جدّا
وباردا أجدّا»

وليام كارلوس وليامز

إن قصيدة كامنز تستعمل وسائل بصرية لتنقل إلينا الرسالة التالية: «إن هذا المقطع المكتوب لا شكل له»، (تمثّل عادة الشاعر في كتابة اسمه e.e cummings) [أي بالحروف الصغيرة] محاولة بصرية مماثلة لمحو أيّ أنا

متطفّل). لكن شكل القصيدة «الشعري» يمثّل، على المستوى السّمعي، وفي نفس الوقت طبعا، ذلك التّنظيم المبنين تبنيناً عاليا من القوافي والأوزان، أي التّنظيم الذي نتعرف عليه عادة في السّونيتة (sonnet). ومن ثمّ، إننا نرى فعلا الرّسالة [التالية]: «هذه سونيتة»، الصّادرة في صيغة رمزية، خاضعة للرّسالة المتعلّقة بفقدان الشّكل (أي «ليست هذه سونيتة») الصّادرة في صيغة أيقونية مثلما [نرى] - وهذه في اعتقادي، الرسالة «الكلّية» للقصيدة - الأشكال الاجتماعية الموروثة خاضعة لتشذّقات السّياسي، ومكبوتة من طرفها. يبدو أن آخر تفسّخ أحدثته الحرب يكمن في تشظّي القوى الشكلية للّغة: فالهيكل الذي يضمّ محتوى القصيدة يتكوّن من حطام الأغاني والشعارات الوطنية.

أما في قصيدة وليام كارلوس وليامز، فإننا نرى العملية معكوسة تقريبا. إن فرض مرتبة جديدة ومزعجة على ما كان سيظلّ، بخلاف ذلك، قطعة كتابية عادية وعائلية، يتأتّى عن طريق الرسالة الأيقونية البصرية القائلة: «يؤلف هذا المقطع المكتوب قصيدة». أي: «إن لهذه الكلمات دلالة تتجاوز معناها الصريح». أما العلامات الرمزية [التي تصلنا] فتنقصها جميع الاشارات إلى «الطّابع الشّعري» الذي تدفعنا ثقافتنا إلى البحث عنه وتوقّعه. إن القصيدة قادرة، عبر هذه الأدوات، على جعلنا نفكّر فيما تكونه حقّا تلك التوقّعات، وفي تبنّينا لها تبنّياً حقيقيا أو لا. بل إنها تجعلنا نفكّر في طبيعة المواضعات الاجتماعية التي تمنح «القصائد» «دلالتها»، في حين تنكرها على غيرها من أشكال القول. ومن ثم، تبرهن القصيدتان، باستعمالهما لهذه الوسائل الأيقونية، قصد تخريب توقّعاتنا، على أنّهما قصيدتان مزعجتان أساسا [12].

هذا لا يعني، بالطبع، أن هاتين القصيدتين، بإحالتهما على نفسهما بهذا القدر أو ذاك من المباشرة، قصيدتان غير عاديتين بأي حال من الأحوال. لقد

12) قارن مع مناقشة كلر (Culler) المفيدة لقصيدة وليامز (ن. م. ص 175 - 176)، التي يشكل العرض أعلاه تجاوبا حقيقيا معها. وسيتضح أنه رغم موافقتي على أنه «عندما يكتب [النص] على الورق باعتباره قصيدة، فإن مُواضعة الدلالة تفعل فعلها»، فإنني لا أقبل خلاصة كلر القاضية بأنه «ينبغي لنا، بالتالي، إضافة وظيفة جديدة لتبرير القصيدة». ويبدو لي أن «تبرير» القصيدة يكمن في طعنها الضمني في «مواضعة الدلالة». فالقصيدة تدور حول مرتبتها والسيرورات الاجتماعية التي تحدد تجاوبنا مع لغتها.

ثبت، أكثر من مرّة، أن جميع الأعمال الأدبية الفنية تحيل على نفسها إلى حدّ ما. ومن ثمّ، يبدو أن ما يصحّ على «الوظيفة الجمالية» اللغوية، يصحّ كذلك، واعتبارا لهيمنة النموذج اللغوي، على «الوظيفة الجمالية» لأنساق العلامات عموما. وكما يقول ياكبسون:

«إن العملية السيميائية ذات الاتجاه الانطوائي، أي رسالة دالة على نفسها، لا تنفصم عن الوظيفة الجمالية لأنساق العلامات» (ن. م، ص 704)

وبتعبير آخر، إذا كان الأدب يشتمل جزئيا على بعض العلامات التي لا تدل دلالة «عادية»، بسبب دلالتها على نفسها، فلربّما أمكننا القول، إذن، إن «الوظيفة الجمالية» هي التي تتضمن، من بين جميع أنساق العلامات الأخرى، خرقاً «لقوانين» الدلالة خرقا منهجيا، وبالطريقة نفسها. وفضلا عن ذلك، إن القواعد لا تتطلب دالا، أو مشيرا (Signans) فحسب، قصد الاحالة على مدلول أو مشار إليه (Signatum) يتجاوزه، بل إنها تريد منه أن يقوم بذلك بطريقة لا لبس فيها. ومع ذلك، تبدي الدّول، خلال استعمالها استعمالا فنّيا ضمن اللّغة، وكما رأينا، درجة عالية من درجات «التعدّد»، أي درجة عالية من درجات اللبس. ويعقّب أومبرتو إيكو: «ينبغي أن نعرّف اللّبس، من الناحية السيميائية، باعتباره صيغة من صيغ خرق قواعد الترميز». [13]

قد نستنتج، من هذا الأمر، بأنه ينبغي على أي تحليل سيميائي يتناول جميع «الوظائف الجمالية» أن يرى فيها، ترسيخا (Institutionalization) بمعنى ما، لخرق القواعد (علينا أن نتذكّر أنّه مفهوم غير بعيد جدّا عن الرأي الذي عبّر عنه ياكبسون حين قال: إن الشّعر يمثّل «عنفا منظّما نمارسه على الحديث العادي». ومن ثم، يظهر الفنّ، من هذا المنظور، كطريقة من طرق ربط «الرسالة» بعضها ببعض، قصد إنتاج «نصوص» تعزّز ضمنها أدوار اللّبس والإحالة الذاتية (أي الأدوار التي تخرق القواعد) و«تنتظم»، لدرجة (كما يرى أومبرتو إيكو) أن:

أ ـ كثيرا من الرسائل في مستويات مختلفة تصبح منظّمة تنظيما ملتبسا.
ب ـ الالتباسات تتبع مخطّطا دقيقا.

13) أومبرتو إيكو، ن. م. ص 262.

ج ـ الأدوات العادية والملتبسة، الموجودة ضمن أية رسالة، تمارس ضغطا سياقيا على الأدوات العادية والملتبسة الموجودة ضمن جميع الرسائل الأخرى.

د ـ الطريقة التي تخرق بها رسالة ما «قواعد» نسق معيّن تكون هي نفس الطريقة التي تخرق بها رسائل أخرى قواعد أنساقها [١٩].

والنتيجة هي خلق «لهجة فردية جمالية» (aesthetic idiolect)، أي «لغة خاصة» تميّز [ذلك] العمل الفنيّ الذي يثير في جمهوره الشعور بـ «الكونية cos-micity» ـ أي الشعور بتجاوز كل مستوى راسخ للمعنى، أثناء اللحظة التي يترسّخ فيها، تجاوزا لا نهائيا، والشعور بتحويل «تعييناته إلى تضمينات جديدة» تحويلا لا منقطعا. والواقع أن لهذه العملية شبها كبيرا بالعملية التي ذكرها بارت لدى تعرضه للأسطورة، حيث يغدو بإمكاننا «إفراغ» ما تمّ ترسيخه في مستوى من مستويات الدلالة، بوصفه علامة، ليصبح دالا في مستوى آخر، كما أنها تؤكد بجلاء تناول بارت للتضمين باعتباره نسقاً دلاليا من «الدرجة الثانية» يتأسس على التعيين. إن إيكو يبدو وكأنه يوحي لنا باعتبار الرسالة الجمالية، خلال عملها، نسقا دلاليا، لا منقطعا، و«متعدّد الدرجات»، ينتقل من مستوى إلى آخر، وتتحوّل تعييناته إلى تضمينات في صورة شبيهة بمتوالية لا نهائية. والنتيجة هي أننا لا نتوصّل إلى أي فكّ «نهائي» لترميز الرسالة الجمالية أو أية «قراءة نهائية» لها. والسبب هو أن ما من لبس إلاّ ويولّد «خرقا» مماثلا وأعمق «للقواعد»، ويدعونا دوما إلى تفكيك مايبدو أن العمل الفني «يقوله»، في أية نقطة من النّقاط، ثم جمعه من جديد:

«إن التّجربة الفنيّة المشتركة تعلّمنا أيضا أن الفنّ لا يسمح بالعواطف فحسب، بل إنه ينتج معرفة أعمق كذلك. ففي اللحظة التي تبدأ فيها لعبة التأويلات المتشابكة، يفرض النصّ علينا مراجعة الترميزات المعهودة وإمكانياتها.» (ص 274).

إن لهذه العملية صلات بتلك التي استعملها بارت في كتابه (S/Z). وكنتيجة، سينمو لدى القارىء وعي مضطرد بـ «الامكانيات السيميائية» المتاحة ضمن الترميزات. ومن ثم، سيضطرّ إلى «إعادة التّفكير» في تنظيمها

14) ن. م. ص 271.

الكلّي، بل إنه سيعيد التّفكير، في نهاية المطاف، في تنظيم «الواقع» الذي ترمّزه (encode) له. وبالتالي، سنقول، بلغة بارت، إن القارىء لا يقتصر، من خلال قدرته المكتشفة حديثا، أي قدرته ككاتب، على الشروع في «رؤية العالم» رؤية مغايرة فحسب، بل إنه يتعلّم كيف يخلق عالما آخر: «إن الرسالة الجمالية تغيّر، عبر تنميّتها لمعرفتنا بالتّرميزات (codes)، نظرتنا إلى تاريخها، وتجر وراءها، من ثم، العملية السيميائية (ص 274). هكذا تبدي الرسالة الجمالية نفس الوظيفة المزدوجة التي تبديها أية لغة: إنها وظيفة ذات صيغة عاطفية أو انفعالية) ومعرفية [15]. وها نحن عدنا، بمعنى ما، إلى ڤيكو (Vico) وليڤي ستروس. إن الفن، مثله مثل الأسطورة، لا يمثل مجرّد «تطريز» للواقع، بل يمثّل طريقة لـ«معرفته»، والتغلّب عليه، وتغييره.

هذا لا يعني إنكارنا بأن صيغ الفنّ الرئيسة ستبدو وكأنّها تتضمّن التزاما قارا، وصريحا صراحة ظاهرة، بعالم لا متغير «يتجاوزها». [كذلك] سيبدو لنا، على الدّوام، أن كتابا من نوع معين عبارة عن نافذة نرى من خلالها عالما مثل هذا رؤية واضحة. إن الدوال تبدو، ضمنه، وكأنها تشير إلى المدلولات إشارة مباشرة وواثقة. ولكن، وكما رأينا، ثمة معتقد مركزي في البنيوية والسيمياء مضمونه أنه، حتى في الحالات التي يكون فيها هدف العمل الأدبي هو الواقعية المطلقة (مثل الرواية البوليسية، أو سارازين بلزاك)، فإن هذه «الشفافية» في الكتابة [أي] هذه «البراءة» في الأدب، تظل وهماً. إن الناقد الشكلاني الروسي ڤيكتور شكلوڤسكي يفرض، من خلال كتابته لعمل أدبي (وهو رواية «رسائلية» عنوانها: «حديقة الحيوان؛ أو رسالة لا تتكلم عن الحب»، في سنة 1923)، على عمله أن يكشف كشفا نموذجيا افتقاده للبراءة أو الشفافية، وذلك بجعله البطل (أي رجلا يكتب رسائل إلى حبيبته) يحيل إلى الطابع الاستبطاني والضروري لجميع الفنون إحالة دائمة:

15) انظر خلاصة غيرو (Guiraud) القائلة بانتشار الصيغ الخاصة بمدى التجربة التي تمرّ بها أية ثقافة، انتشارا يتوزّع، بلغة السيمياء، حسب «قطبين»: أي الصيغة المعرفية، والصيغة العاطفية. وتتناسب علاقتهما تناسبا عكسيا (أي بقدر ما تميل التجربة إلى صيغة منهما، تميل إلى الابتعاد عن الأخرى). ولكن إحداهما لا تستثني الأخرى. إنهما تتمظهران أساسا في بعض الأنساق الدالة، وعبر وظيفتين تعبيريتين مرتبطتين ارتباطا متماثلا: أي الوظيفة الإحالية (أو المعرفية) والوظيفة الانفعالية (أو العاطفية). غيرو في كتابه: «السيمياء» (ص ص 9 ـ 18).

**هناك موقفان تجاه الفن.**
**أحدهما يرى أن العمل الفني عبارة عن نافذة [مفتوحة] على العالم.**
**هؤلاء الفنانون يريدون التعبير، بالكلمات والصور، عما يوجد خلف الكلمات والصور. إن فنانين من هذا الصنف جديرون بأن ندعوهم مترجمين.**
**أما الموقف الثاني فيرى الفن كعالم من الأشياء الموجودة وجودا مستقلا. فالكلمات، والعلاقات الموجودة بينها، والأفكار، سخريتها واختلافها، هي محتوى الفن. وإذا ما أمكننا مقارنة الفن بنافذة، قلنا إنه نافذة مجملة (sketched).**
**«حديقة الحيوان: أو رسائل لا تتكلم عن الحب» (ص 80)**

إن للإحالة على «نافذة» الفن «المجملة» نتيجة سيميائية هامة، بالطبع، حين ترد ضمن تلك الأشكال الفنية «الشبيهة بالنافذة» أي ضمن الرواية الرسائلية: إنها، في هذه الحالة، رسائل فعلية ظاهريا، كان **شكلوفسكي** قد تبادلها مع امرأة معينة، بل إن إحداها ترد (كمثال خالص من أمثلة اللبس «الذي يخرق القواعد») مشطوبة - رغم أنها تظل مقروءة تمام القراءة - وينصح القارىء بـ«القفز» عليها. إن عملا مثل هذا يصرّح بأن ما من كتابة بمقدورها أن تكون شفّافة: بل إن الكتابة كلها تدلّ (حتى حين تكون «مطموسة»). فما أن تدلّ، حتى تصبح قوة (agency) مشكّلة ومتوسّطة، وتتحول الرسائل الفعلية، خلال هذه العملية، إلى «أدب»، كما تتحوّل الحقيقة إلى خيال، و«الحياة الواقعية» إلى جزء من رواية. ومن ثم، بإمكان البطل أن يشكو شكوى يائسة:

**«لكم أرغب في وصف الأشياء وصفا بسيطا كما لو أن الأدب لم يوجد قط؛ بهذه الطريقة، يمكن للمرء أن يكتب بصورة أدبية.» (ص 84).**

ولكن ذلك النوع الأصلي من «الأدبية» لم يعد متاحاً لنا بالطبع. إننا لم نعد قادرين على استعمال الكلمات، كما لو أن الأدب لم يوجد قط.

[ومن ثم]، ينبغي لنا النظر، على هذا الضوء المستنزف إلى ادّعاءات أدب معين حول الأصالة والواقعية ودقّة الوصف الفيزيقية، في نهاية المطاف.

فبالنسبة للسيميائي، تحيل جلّ الأعمال الأدبية، خلال إصدارها لرسائل تحيل على نفسهـا، إحالة دائمة على بعض الأعمال الأدبية الأخرى أيضا، إذ لا يمكن، كما أشارت جوليا كريستيڤا، لأي «نصّ» أن يكون «حرّا» تمام الحرية إزاء النصوص الأخرى، بل إنه سيندمج ضمن ما أسمته تناصّ الكتابة كلّها.

يقودنا هذا إلى أحد أهمّ التبصّرات التي زوّدتنا بها السيمياء حول طبيعة الأدب. ذلك أن الكتب تبدو، في نهاية المطاف، وكأنها لا ترسم العالم الواقعي الفيزيقي وتعكسه لنا، بل عالم اختزل إلى أبعاد أخرى، أي إلى شكل النشاط الكتابي وبنياته: أي العالم بوصفه نصّا. ومع ذلك، يبقى الأدب، بصورة مثيرة للعجب، في الغرب على الأقل، شكلا دلاليا يحظى بـ «امتياز» مركزي. إن نظامنا التعليمي (قد يضيف البعض النظام السياسي الذي يضفي الشرعية عليه كما يتدعّم به) نظام لا يزال ينشىء رواية (version) «أدبية» عن العالم، تعتبر رواية «واقعية»، وتحظى بمركز مهيمن ومشكّل، يطالب جميع الروايات الأخرى الممكنة للعالم بالتلاؤم مع شكل [هذه الرواية]. وبالنتيجة، نميل إلى إضفاء الطابع الأدبي على تجاربنا كلها، واختزالها في «كتاب» من الكتب: وهي سيرورة ثبت أنها لازمتنـا منـذ عصر النهضـة وصـاحبت تطوّر صناعـة الكتب [16]. ولكن إذا كان كل شيء قادرا على الدلالة، لماذا ينبغي أن تكون الصيغة الأدبية هي المهيمنة؟ وما هي طبيعة هيمنتها؟ ما هي النتائج المترتبة عمّا سمّاه ياكبسون «الخصائص البنائية الخاصة بالعلامة المكتوبة»؟

لقد أعطى جاك ديريدا (J. Derrida) إحدى أهمّ الخلاصات المتعلقة بهذا الجـانب من جوانب سيمياء الكتـابـة، إذ يقترح علينا «علما» [يتناول] العلامة المكتوبة سمّاه «علم الكتابة» (Grammatology). إن كتبه الثلاثة: «في علم الكتـابة»، «الكتابة والاختلاف»، «الصوت والظاهرة» (الصادرة كلّها سنة 1967) تمثّل، في الواقع، حجة (argument) قوية لإعادة تقويم طبيعة الكتابة ومركزها: إنه يلتمس منّا ألا ننظر إلى الكتابة باعتبارها «رداء» خارجيا للحديث، حسب النظرة التقليدية، أي باعتبارها رواية مُرَمَّزَة (coded) ومختزلة للصوت، الذي يحظى حضوره «المحض» في مظهره السمعي ـ الشفهي عادة

16) انظر مارشال ماكلوهان (M. Mcluhan): «مجرّة غوتنبرغ» (لندن: روتلدج 1962)، وما يتلوها.

بالسبق (كما يوحي بذلك أفلاطون في كتابه : فيدروس مثلا)، ولكن باعتبارها وجودا في ذاته.

إن التزامنا التقليدي بالصوت، واعتبارنا أنه الوسيلة التواصلية الأولى، يدفعنا، في نظر ديريدا، إلى الالتزام بـ «ميتافيزيقا مزورة للحضور»، ومؤسسة على توهمنا بأننا قادرون، في نهاية المطاف، على «مواجهة الموضوعات مرة وإلى الأبد»[17]، أي أن هناك «عالما واقعيا» ونهائيا، موضوعيا وغير متوسط، عالما بامكاننا الحصول على معرفة ملموسة حوله. يرى ديريدا أن هذا الاعتقاد في «الحضور» هو العامل الأساس الذي يحدّ من إدراكنا للعالم : أي أنه إلحاح مشوه على وجود كمال ما، يعوض ويبرر، رغم تجربتنا المتشظية، كمال بإمكاننا موضعته فينا بوصفه مفهوم الانسان، وخارجنا بوصفه مفهوم الواقع. إن هذا الاشتياق يذيّل اعتقادنا ويكفله بوجود علاقات ضرورية بين الدال والمدلول، وبتشابكهما النهائي، ضمن وحدة «ذات دلالة»، لا منكسرة أبدا، ومولّدة - للعالم - الواقعي[18].

ومع ذلك، يقول ديريدا فإن هذه النظرة «الانسانية» للعالم، بمركزها «الانسان»، بل، وعلاوة على ذلك، الإنسان الأوروبي، قد بلغت خلاصتها النهائية في قرننا هذا. لقد نتج عن تحطّم هذا العالم، في الواقع، تحطّم النسق المتشكل من الروابط القائمة بين الدال والمدلول، [أي النسق] الذي ورثه الإنسان الأوروبي. وذلك أنه ينبغي في غياب أي مدلول متعال ونهائي، وبالتالي مهيمن - ونقصد «الطبيعة البشرية» - توسيع دنيا الدلالة برمّتها توسيعا كبيرا. لن يبقى العالم محدودا ومحدّدا من طرف نموذج موروث من الدلالات،

17) جيمسن (Jamesn) : «البيت - السجن للغة»، ص 173. إن مناقشة جيمسن لديريدا (ص ص 173 - 186)، مثلها في ذلك مثل مناقشة كلر (ن. م ص، ص 131 - 133، 243 - 245، 247 - 249)، مناقشة ذات قيمة كبيرة. انظر كذلك جان ماري بينوا (J.M. Benoist) «نهاية البنيوية»، ضمن: دراسات القرن العشرين، العدد 3، ماي 1970، ص ص 31 - 53، وتحتوي مقالة ديريدا القصيرة: «الاختلاف - الإرجاء» ضمن مجلة Tel Quel : «النظرية الجامعة» (باريس: سوي، 1968) ص ص 41 - 66، بعضا من أفكاره المركزية في صورة مختزلة.

18) انظر «الكتابة والاختلاف»، ص ص 41 - 44 و409 - 411.

أي من طرف «لوحة متسامتة» من الكلمة / المعنى . ومعناه أنه لن يبقى مركزيا صوتيا (phonocentric) . إننا، بتحليلنا لـ «الكتابة» قادرون على تعزيز هذا التحطّم وتشجيعه، وقادرون على التوسيع اللاحق لإمكانيات المعنى وتشجيعه.

من ثم، بإمكاننا ربط عمل ديريدا بعمل بارت، باعتبارهما يشيران إلى نوع الأهمية التي توليها السيمياء إلى طابع الكتابة المميّز وحديث الانتشار. فبمجرد أن يبرهن «علم من علوم العلامات» على أن نسق علامات الكتابة لا يعمل باعتباره نافذة شفافة على «واقع» مترسّخ فحسب، يمكننا تعريفه باعتباره نسق علامات قائما بذاته، له مميّزاته الخاصّة وطابعه المتميّز الخاصّ.

ولهذا الأمر نتائج متنوعة. إنه يزيد، أولا، من مستوى «وعـ»نا بطبيعة الكلمة المكتوبة أو المطبوعة. إننا نبدأ بالتعرّف، مثلا، على المدى الذي تتوزع فيه جميع الكلمات إلى صور من عملية الكتابة، صور صريحة أو ضمنية، وتحتويها (ولدينا مثال جيد في قصيدة وليام كارلوس وليامز المذكورة أعلاه: «مجرد كلام»، ولكن أسرع نظرة نلقيها على بعض «المواضعات» الروائية التقليدية ستمنحنا نفس القناعة: أي أن الصيغة «الرسائلية» أو «إقحام» الكاتب، أو استعمال الكاتب «كلّي المعرفة»، أو الأدوات التي يقدمها ستيرن (Stern) ويسخر منها في ترسترام شاندي (Tristram Shandy) ، كلها تؤكد ذلك). إننا نبدأ، كذلك، بالتعرف على المدى الذي تجذّر فيه، وإلى يومنا هذا، مركز الكلمة المكتوبة من شعور الثقافة الأوروبية بنفسها أنها، حقا، الدور النهائي للانسان في العالم. إن التزام النظم التعليمية الأوروبية، على العموم، بمعرفة القراءة والكتابة، باعتبارها مهارة أوّلية ـ وهي المهارة الوحيدة التي حظيت بالتعزيز والتشجيع خلال فترة طويلة من تاريخ [هذه النظم] ـ يكشف عن مسلمة ذات نسب ضخمة. بل ونستنتج منه، وهذا أهمّ، أن الكتابة في غير حاجة لتعتبر بديلا عن شيء آخر يتجاوزها: أي دالاّ يبحث عن مدلول معلّق بين قطبي: «العاطفي» و«المعرفي»، «الانفعالي» و«الإحالي»، «الخيال» و«الواقع»، أو عنصرا ثانويا يعمل دائما باعتباره «رداء» لـ «حضور» أولي.

يُدخل ديريدا عوض مفهوم الكلمة المكتوبة الذي أصبح الآن متآكلا، مفهوماً مشتقا من التماهي الحاصل بين ما يسميه différence (الاختلاف) و différance (الإرجاء).

يمثل الاختلاف المبدأ الذي تعمل اللغة بموجبه: أي أنه تلك السيرورة التي قلنا عنها إنها «التعارض الثنائي»، أو هو إدراك الاختلافات الفونيمية بين الأصوات. وكما يقول سوسير: «لا توجد في اللغة سوى الاختلافات». أن يختلف الشيء أو يتميّز، يقول ديريدا، معناه أن يرجيء (to defer)، أن يكبح، وأن يقترح تمييزا بين كيانين بصورة تمكّن أحدهما من الإحالة على الآخر، أو التميّز عنه، أي أنه يمثّل اندماجا في سيرورة تبنين ما.

ويثبت ديريدا أن سيرورة «الإرجاء»، التي يبدو أنها تشمل الكتابة - حيث تقوم الكلمة المكتوبة مقام الكلمة المنطوقة - تنطبق، في الواقع، على الكلمة المنظومة نفسها، أي أن تأسيس اللغة على الاختلاف أو التمايزات يتضمن كذلك التزاما بالإرجاء. ومن ثم، لا يمكن للحديث أن يلعب دور الواقع لظل الكتابة، لأنه يبدو وكأنه، نفسه، ظل لفعل دلالي سابق يبدي «أثره»، وهلم جرّا في تراجع لانهائي. في الواقع، لا شيء يملك «صفاء» الحضور المطلق. إن الحديث، مثله في ذلك مثل أي نسق من العلامات، «ملوّث، وبه آثار، وثانوي». ومن ثم، عندما أقول «شجرة»، فأنا بعيد عن الكيان الفيزيقي الفعلي الذي ينبت في الأرض بُعدي عنه عندما أكتب «شجرة».

إنني، بتحليلي للكتابة، قادر، فضلا عن ذلك، على تحليل السيرورة التي تمارس اللغة فعلها عبرها، لأن الكتابة بعيدة عن أن تكون ظلا للحديث، وإنما هي تأسر ماهية اللغة. إن الكتابة، بموجب وجودها على مسافة واحدة من أي «واقع» خارجي (رغم أنها تومىء بوضوح إلى جهة ذلك الواقع)، تمنحنا نموذجا لطبيعة اللغة.

أخيرا، إن طابع الكتابة يولّد أيضا فجوة بين النصّ وأي «معنى» موحّد. فإذا لم يكن النّصّ و«معناه» نفس الشيء (وطبيعة الكتابة «الإرجائية»، كما يراها ديريدا، تجعل ذاك أمرا مستحيلا) لا يمكن أن يكون للنص، إذن، أي معنى

نهائي وأخير: والواقع أن الكتابة من طبيعتها، بل من طبيعة اللغة، ألا تظل محصورة في بعض البنيات المعنوية الخصوصية [19]. وبالطبع، هذا يفتح الباب ليس في وجه ذلك النوع من التحليل الذي برهن ضمنه بارت على مهارته، فحسب، بل يفتحه كذلك في وجه بعض المحلّلين الواعين سياسيا (أي الذين يكتبون لمجلة Tel Quel ) ليدّعوا مع فيليب سوليرس (Ph. Sollers) بأن كل كتابة، في مجتمع فرض شكل اللغة المكتوب ورسّخه، باعتباره ميزة من مزايا طريقته في الحياة، كتابة «سياسية». «إن الكتابة استمرار للسياسة، [لكن] بوسائل أخرى» [20].

ولكن دلالتها الكاملة تكمن في واقع أن هذه النظرة للكتابة واللغة تحرّر العلامة من خضوعها إلى ذلك «الواقع» (أو الحضور) الذي كان يفترض فيها خدمته. من هذه الزاوية، تبرز الكتابة باعتبارها ظاهرة فريدة (Sui generis). إنها «موضوعة» لذاتها، ولم تُخلق لواقع أغنى منها. إن الكتابة، باختصار، لا «تعيد إنتاج» واقع يتجاوزها، ولا «تختزلـ»ـه كذلك. وبإمكاننا أن نرى أنها، في حريتها الجديدة، تتسبّب في ظهور واقع جديد [21].

يقول ديريدا إن بإمكان علم الكتابة أن يصبح علم العلامة المكتوبة المنظور إليها بهذه الطريقة: أي بالطريقة التي كان [الناس] يتصوّرون بها الكتابة دائما في المجتمعات الشرقية (هذا زعمه). إن ألفاظها وشروطها ومسلماتها ليست ألفاظ الرواية اللغوية الشفوية المهيمنة وشروطها ومسلماتها، بل هي ألفاظ الكتابة نفسها وشروطها ومسلماتها. إنها تقوم بعملية التواصل ليس باعتبارها بديلا عن الصوت، أي شفويا، وإنما بصريا وقرائيا، وبالطريقة التي تقرأ بها رواية كريستين بروك روز: «عبر»، كما رأينا. إن كتابة من هذا النوع (وهنا تطرق بالنا أعمال كتاب من أمثال جويس، وبيكيت، ومالارمي، وروب كرييي، وستيرن قبلهم) تطالب بنقد يتناسب تناسبا أصيلا مع طبيعتها.

19) انظر «الكتابة والاختلاف»، ص 411، و «في علم الكتابة»، ص 74 وما يتلوها.
20) ف. سوليرس: «الكتابة والثورة»، ضمن مجلة Tel Quel : «النظرية الجامعة» (باريس: سوي 1968). ص 78.
21) بإمكانها حسب ف. سوليرس أن تتوحّد مع الثورة باعتبارها نوعا من أنواع «النص الأحمر» المثالي، النظرية الجامعة ص 79.

إن الاستجابات الصادرة عن النقد التقليدي ليست بذات نفع كبير. وما يحتاجه العرض السيميائي الذي يطال أية كتابة، بل وما تتطلّبه بكل تأكيد كتابة أخضعت لهذا التصور، شيء يشبه كتاب بارت (S/Z)، ربما كان، كما قال عنه جورج بولي (G. Poulet) يتطلب فهما قرائيا خاصا:

«إن العمل الأدبي يعيش حياته الخاصة بداخلي. إنه يفكر نفسه بمعنى ما، بل هو، داخلي، يمنح نفسه معنى.»[22]

إنه فهم يضع في حسبانه واقع أن العمل الادبي يقرأنا، بقدر ما نقرأه. ويتطلب هذا الوضع، بجلاء، نوعا من النقد مغايرا مغايرة تامة، أي نقدا من النوع الذي يسميه بولي:

فعلا نقديا شاملا: أي أنه استكشاف لذلك الترابط الغامض الذي يترسّخ، عبر توسّط القراءة واللغة، بين العمل الادبي المقروء وبيني، لما فيه رضانا المتبادل[23].

نقل النص عن الانجليزية: **مصطفى كمال**

---

(*) العنوان الاصلي للنص: «A Science of Signs»: عن كتاب:
Terence Hawks: Structuralism and Semiotics «البنيوية والسيميائيات»،
الطبعة الثالثة، مثيون، 1983، لندن. (ص ص: 122 ـ 150)

22) ج. بولي، «النقد وتجربة السرّية»، ضمن ريتشارد ماكسي وأوجنيو دوناتو (R. Macksey and E. Donato): الجدال البنيوي، 62.
23) ن. م. ص 67.

# نحو سيمياء الخطاب السلطوي

## آلن غولدشليغر

ارتبطت اللسانيات، باعتبارها دراسة لأنظمة التواصل، ومنذ ولادتها، بالمسلمة القائلة إن على الشكل أن يعبر عن موضوع يتحكم فيه المرسل تحكما معقولا، ويفهمه المرسَل إليه فهما احتماليا على الأقل. إن الوضوح يخلق تبادلا في اتجاهين يمنح المتكلمَين نفس القدرة على التحكّم في الرسالة، أي في مضمونها وتعبيرها.

وتفسر لنا مسلمة الارسال هذه لماذا تركز اهتمام الباحثين أساسا على استقامة وسائل التواصل والرسالة المبثوثة، على حساب الدور الخاص بالتعبير وأثره.

وأحبّ البرهنة هنا على أنه بإمكاننا اعتبار شكل الخطاب بمثابة خطاب آخر يمكن أن يُقرأ في إطار مرجعي مغاير، وعلى أن بإمكانه حمل رسالة قوية لا تعبر عنها الكلمات نفسها، وقد تقوي هذه الرسالة الموازية الكلمات، أو تعارضها، أو تتخذ مسارا مغايرا [لها] كلية. هكذا، قد نحصل على «خطاب للبنية» مناقض لـ «خطاب الكلمات»، أي خطاب له مفعوله الخاص على العلاقات الانسانية.

ولكي نمثل لـ «خطاب البنية» هذا، سوف نتناول مقتطفات مأخوذة من لغة السياسة السلطوية ـ ونحن نستعمل [هنا] كلمة سياسة بمفهومها الواسع ـ التي يكون هدفها الشمولي هو توجيه حياة المرسَل إليه وسلوكه الاجتماعي، ووضعه تحت تأثير المرسل وسلطته.

إن أجلى مثال نحوي لهذا النوع من التعبير هو استعمال صيغة الأمر التي تشير إلى وضع سلطوي مباشر. [ذلك أن] استعمالها يقيم علاقة اجتماعية بين المتكلمَين: يُصدر الأول الأوامر، وينصاع لها الثاني. ولا تُغيِّر الصيغة المهذبة

أو الأدوات الأسلوبية من موقع الاثنين: فالأول يمتلك السلطة، وينسحق الثاني ككائن مفكر. إن الرابطة الاجتماعية في هذا المثال يقيمها شكل نحوي يمضي في اتجاه واحد ولا يقبل التبادل اللغوي. [ومن ثم] لا علاقة للرسالة نفسها بالموضوع، كما أن الجواب الوحيد المقبول هو الفعل المطلوب.

وإذا تعمقنا في الموضوع، لاحظنا أن صيغة الأمر في جل اللغات تجد قالبها في صيغة الفعل الدلالية (indicative)، التي تعبر وظيفتها عن واقع لا يرقى الشك إليه. وبالتالي، إن صيغة الأمر تدعمها قيمة خاصة بصيغة أخرى من صيغ إدراك الواقع. حقا، إن المتكلم لا يطرح نفسه كرسام للحاضر فحسب، وإنما للمستقبل أيضا، مادام قادرا على جعل المستقبل - وهو ميدان ما لا يمكن توقعه - حاضرا حقيقيا. إنه يحوّل لا واقعية المستقبل إلى واقعية الحاضر. أن تستولي على الزمان معناه السيطرة على الحياة. ومن يتحكم في الحياة له الحق في توجيه الآخرين.

يرينا هذا المثال التحكم الماكر الذي يمكن للشكل أن يفرضه على المضمون. وإن قصدي هو البرهنة على أن هذا اللاتوازن ليس وليد الصدفة، وإنما يمكن خلقه عمدا، واستعماله لمصلحة المتكلم المباشرة. فالخطابات الدينية والسياسية تميل إلى خلق هذه الصيغ اللغوية، لا لأنها تهدف إلى الإقناع عن طريق العقل، وإنما لأنها ترمي - وكما تحقق سبينورا من ذلك منذ قرون خلت - إلى الحصول على الطاعة العمياء لصالح المتكلم. إن خطاب الإيمان لا يقيم اهتماما لمعنى الكلمة المقدمة المباشر، بل إنه سيستعمل، وعلى العكس من ذلك، الصيغ اللغوية قصد تعتيم الرسالة، حيث ينتج عن ذلك خلق اللبس وقطع الطريق على أية مناقشة عقلانية أو أية معارضة تالية. [ومن ثم]، إذا حصل المتلقي على علامة ناقصة، أو محدودة، أو غير قابلة للتأويل، فإنه لا يقوى على المناقشة. هكذا، كلما تقلّصت قيمة الرسالة الدلالية، إلا وزادت قوتها وقدرتها على الإقناع. إن السلطة مؤسسة على السكوت، لا على الحوار، كما أن كل نظام سلطوي مؤسس على بنيات اجتماعية وسياسية ذات معنى واحد، أي أنها تتحدّر من الأعلى إلى الأسفل، ولا تسمح بأية حركة في الاتجاه المعاكس.

وتقدُّم البلاغة، في الميدان السياسي، باعتبارها أداة للمحاججة، بيد أنها تنكشف كوسيلة للمراقبة والاضطهاد، لأنها تؤدي إلى الطاعة العمياء. إنها سلاح مطلوب جدا لا لمراقبة أفعال الناس فحسب، وبل ولمراقبة أفكارهم وإرادتهم أيضا. وما البلاغة إلا مرآة تعكس رغبة أيديولوجية ما في لسلطة، أيديولوجية تخلق خطابا أنويا وذا مرجع ذاتي. ولا يُفرض هذا الخطاب عن طريق النقاش المفتوح، وإنما عن طريق تقنيات الخوف والترهيب والتضليل.

وتختفي استقامة الخطاب الأخلاقي خلف فعالية البراغماتية المباشرة. وتكشف البلاغة، أكثر من أية أخلاقيات، الانتماء إلى فئة ممتازة تحاول احتكار، أو احتكرت، الحق في الكلام، وبالتالي الحق في إصدار الأوامر. ويحصل [البعض] على الحق في الكلام بعد تدريب يُصفّي كل من لا ينضبط لرغبات السلطة. ويرى أولئك الذين وقع عليهم الاختيار أن حظوتهم وسلطتهم مرتبطتان ارتباطاً وثيقا بالحفاظ على البنيات الاجتماعية والسياسية [القائمة]. ولهذا كان من مصلحتهم، على المدى القريب والبعيد، الدفاع عن الأيديولوجيا وحمايتها. إن الارتباط المتزايد بالشكل السائد للخطاب الأيديولوجي يضعف حرية التفكير والحركة لدى المُدرَّبين: فثمن التمرد هو الطرد من وسائل السلطة. هكذا يظل كل أعضاء الطائفة سجناء داخل لغة طائفتهم، كما يفرض الحق في استعمال لغة الطائفة المسيطرة واجب السكوت على غير أعضائها.

[ومادامت] المجموعة المقهورة غير قادرة على التكلم بلغة مضطهديها، فهي مدعوة حتما إلى خلق لغتها الخاصة بها، ولهذا لم يكن من المدهش أن تقوم جميع الثورات، الأخلاقية والسياسية والدينية، على مفارقات تُقلب فيها الكلمات والقيم المقبولة وتُرفض.

إن أول ما يتميز به الخطاب الأيديولوجي السلطوي هو كونه خطابا نهائيا وشاملا، ويكشف، بهذه الطريقة، عن طبيعته ذات المرجع الذاتي. إنه مكان تُردَّد فيه المبادىء القائمة وتُمجَّد، وتنطلق كل كلمة سياسية، ضمن أي خطاب، من حقها في الوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها، كما يعتمد نجاحها على معطيات وأحداث خارجية ـ سواء أكان الحدث تحركا سياسيا أم عسكريا، وضعا اقتصاديا أم اجتماعيا ـ، ولا يعتمد على قيمتها الأخلاقية. إن هذه

الحاجة إلى الاستبداد تفسّر التنحية الفورية التي تطال جميع الأمور والأشخاص الذين لا يدخلون في القالب [الذي وَضَعته].

ويُقام الخطاب الايديولوجي بحركة محددة تناقض الخطاب والقيم التي تقبلها السلطة السائدة. هكذا نرى الخطاب المسيحي يقوم بمواجهة الخطاب اليهودي، كما يواجه الخطاب الشيوعي المبادىء الرأسمالية. ويمكننا أن ندرك، في هذا الفصل التقديمي (presentatory) الأول، شكلا أول من أشكال التلاعب: فلا يمكن تحديد أي شيء من الخارج إلا بصيغة النفي، بمعنى أن الأجانب لا يعرفون إلا ما هو مغاير للايديولوجية، ولكنهم لا يستطيعون تصورها. وينبغي للمرء أن يكون داخلها لكي يستطيع فهمها فعلا، ويغدو بالتالي مقيدا بحدودها وأضرارها وقوانين خطابها. وحده الشيوعي يستطيع الكلام بشكل صحيح عن ماركس ولينين، وحده المومن يستطيع الكلام عن الايمان بإطناب ودراية، ووحده النازي يستطيع تحديد شخص آري بشكل مناسب.

إن جميع أشكال السلطة تخلق بنية هرمية قصد السيادة على الفئة الاجتماعية. كما أن أي تراتب يتضمن قمة مقلصة [تحتكر] السلطة، وقوة كبيرة ومطيعة في القاعدة. وبالمثل، يستلزم الخطاب السلطوي بنية هرمية لفهم معناه. [ومن ثم]، وحدها قمة الهرم تحصل على المعنى الحقيقي والكامل، ولا تحصل القاعدة سوى على انعكاس باهت له. وهكذا، لا يبقى أمام الجماهير سوى أن تقنع بالعلامة المحدودة التي تصلها. إن بنية السلطة تفترض صعود المعرفة الهرمي، على عكس الهرم السكاني. فكلما صعدنا نحو القمة إلا وتقلّص عدد العارفين، وزادت المعرفة. وبالنتيجة، يمارس كل فرد سلطة ونفوذا يناسبان موقعه في سلم المعرفة. فقمة الهرم هي قمة السلطة والمعرفة. كما أن أعلى سلطة ـ سواء أسميناها فوهرر، أم أبا للشعب أم الله ـ هي التي تحدّد لكل عضو من أعضاء الطائفة سلطته النسبية.

ومن ثم، فإن الفهم الشامل للخطاب سوف يُنجز عبر سيرورة تدريبية لا يمكن أن تتم إلا ضمن بنية السلطة. هكذا سينعكس الفهم الأفضل المفترض لخطاب السلطة، في كل خطوة، في المزيد من السلطة السياسية. إن فهم العلامة يعني امتلاك السلطة.

وتخلق كل أيديولوجية عددا من اللهجات سيطيع فهمها، أو فهمها المفترض، مستويات التدريب المختلفة، ولكن وحده القائد يملك فهمها الكامل. ولا يبقى قاموس الأيديولوجية، من هذا المنظور، علامة غنية ومتنازعا عليها دلاليا، بل يبقى دليلا (Tekmerion) فارغا لا يمكن مهاجمته. إنه الراية التي يتحلّق حولها أعضاء الزمرة والتي تصلح لاستنفار الجنود. فوحدهم العارفون قادرون على حملها. وليست الكلمة سوى إشارة تومىء إلى الأيديولوجية كمجموع، وتفقد، من ثم، أية قيمة خاصة بها. هي لا تستطيع الوقوف وحدها خارج الخطاب الشامل غير المنطوق، إذ لايمكن مناقشة الكلمة [مادامت] فارغة من الدلالة. فإذا تناولنا بعض الكلمات والعبارات مثل «الثالوث المقدس» أو «الصراع الطبقي» أو «الدولة الكلية» أو «العمل والعائلة والوطن» خارج إطاراتها المسيحية والنازية والبيتينية (Petainist)، فقدت الاحالات كل دلالة. إن تنحية السياق تعني الكشف عن فراغ المفاهيم. وتفترض هذه العلامات مرجعية مخالفة تتطلب من المستمع أن يتقبّل الخطاب كاملا.

وكما يكتب بيير كلاستر (P. Clastres) : «تتضمن ممارسة السلطة السيطرة على الكلمات. وحده السيد يستطيع الكلام [. . .] وثمة علاقة [تربط] الكلمة بالسلطة لدرجة أن رغبة إحديهما تتحقق في الاستيلاء على الأخرى». من ثم، يكون كل خطاب سلطوي محافظا وحريصا على امتيازاته بصورة آلية، لأن أي تغيير يفترض اقتسام هذه الامتيازات مع أعضاء جدد، ويعني ذلك بالطبع مراقبة ونفوذا أقل. وبالتالي، يصعب علينا كثيرا أن نتصور وجوداً لخطاب إصلاحي عفوي ضمن الأيديولوجية السائدة، بل تأتي التغيرات [كنتيجة] للّقاء الصدامي مع خطاب آخر يبحث عن السلطة. ومادام الخطاب لا يحمل مضمونا عقلانيا، أو أنه يحمل مضمونا عقلانيا ثانويا ومحدودا جدا، فلا يبقى أمام النقاش سوى المواجهة المادية. فهل باستطاعتنا تصور خطاب توفيقي يقبله المومنون المتعصبون والملحدون، يقبله الرأسماليون والشيوعيون، ويقبله النازيون والانسانيون؟ ينبغي للقائد أن يتكلم لغة، وينبغي له البرهنة على سيطرته على الكلمات، ولا ينبغي لسلطته أن تكون متذبذبة أو مفتوحة أمام تأويلات متصارعة. [بل] ينبغي له توحيد الزمرة التي يقودها. فجميع الأنظمة السياسية مؤسسة على نصّ ما، أكان شفويا أم مكتوبا، يسجّل كلمات القائد

وبطولاته ويجعله نقطة لقاء. هذه حال: «التوراة»، «كفاحي»، «الرأسمال»، «الكتاب الأحمر»، «الكتاب الأخضر».

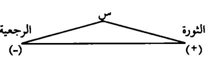
أصبحت حماية الكلمة مهمة جوهرية للحفاظ على السلطة. وقد يملك هذا النظام الدفاعي تحصينات عدة. أوّلها بالطبع هو فرض السكوت بالقوة المادية، أو بمختلف أنواع الرقابة. وتمارس كل الأنظمة الكليانية فرض السكوت بهذا القدر أو ذاك، ولكن ذلك يتطلب إهدارا كبيرا للطاقة وقوى بوليسية كبيرة. إن النظام، في هذه الحالة، يكشف عن وجهه القمعي القبيح، ويسلم صراحة بأن كلمته لا تقوى على مواجهة الحجة. أو أنها لا تستطيع الاقناع بطريقة عقلانية. إن كل معارضة تقمع ماديا. ولكن هناك طرقا أخرى أكثر دهاء لفرض السكوت على مستمعين غير مدرّبين. وترمي هذه التقنيات إلى خلق إحساس بالاندهاش والخطر غير المضبوط. ومعناه أن المستمع سيسلّم بأن للعلامات دلالة، وبأن هذه الدلالة تتجاوز إدراكه بينما يفهمها المتكلم، وما عليه، إذن، سوى وضع الثقة في هذا المتكلم حتى ولو لم يفهم كلماته ولا أغراضه، ولا حتى وسائله. أو عليه أن يسلم، على الأقل، بأن فهمه لا يمكن أن يرقى إلى فهم المتكلم من حيث الشمولية والدقة. فالمطلوب هو الاذعان لمعرفة العارف ومقدرته. إن العلامة تطرح باعتبارها قابلة للتأويل على مستويات تراتبية مختلفة. أما المستوى الأول، الذي يقدّم لغير العارف، فهو المستوى الصفر في التأويلية (interprativity)، ولا يمثل سوى دليل سيحصل على قيمته الحقيقية عبر التدريب. *إن هذا الموقف النخبوي يتأسس بوضوح عبر* المسلسل البلاغي القديم للأساليب المرتّبة في علاقة مباشرة مع جمهور المستمعين. ففعالية الخطاب ذات علاقة مباشرة مع قدرته على السيطرة على عقول الجمهور وتوجيه تحركه.

ولنأخذ كمثال الخطاب النازي الذي يقول: «الفاشية ثورية كلية»، وفي نفس الوقت: «الفاشية محافظة كلية». ولا ينتج هذا اللبس عن تحكم ضعيف في الجدل، وإنما هو علامة واضحة على محاولة مبيّتة هدفها تضليل المستمع عن جذور الفاشية وأهدافها. ويمكننا العثور على الرغبة في خلق اللبس في ابتكار سلسلة من الإردافات الخُلفية (Oxymora) غير المفهومة. هكذا نعثر على تعابير مثل: الثورة المحافظة، المحافظ الثوري، الثورات الرجعية، بل إن غورنغ (Goring) سيلقي خطابا محافظا ـ ثوريا.

ولا تخلو السياسة من هذا النوع من الإرداف الخُلفي. ولنستشهد بأمثلة من نوع دكتاتورية البروليتاريا، والحزب الكندي «التقدمي - المحافظ». لقد كان جورج أورويل (G. Orwell) أحسن من مثّل لتعتيم القيمة الدلالية في كتابه «1984» عبر شعارات الأخ الكبير: «الحرب هي السلم»، «الحرية هي العبودية»، «الجهل هو القوة». إن هذه الشعارات تذكرنا بعبارة «العمل يحرّر [الناس]» المكتوبة بحروف فولاذية على بوابة أوشفّيتز (Auschwitz).

ومن الواضح أنه لا يمكن لأي فهم دلالي تعييني (dénotative) [مباشر] إلا أن يؤدي إلى السقوط في العبث. هكذا يجد المستمع نفسه في موقع يتعين عليه فيه رفض الخطاب رفضا كاملا، وإما افتراض أن له دلالة، وقبول كون المتكلم يحمل دلالة معقولة له في ذهنه. ويفترض الاتجاه الأول التمرد ضد المجهول، وهذا أمر مرعب؛ أما الاتجاه الثاني، فيجلب الحماية والتوجيه. إن هذا الوضع الذي قد يربح فيه المرء كل شيء أو يخسره، سيسبّب إما التمرّد المطلق أو القبول الشامل.

وتمارس الإردافات الخُلفية فعلها على افتراض أن التعارضات المستعصية قابلة للربط من جديد في مستوى أعلى من مستويات التضمين (connotation)، شأنها في ذلك شأن خطوط متوازية توهمنا بالتلاقي في اللانهاية. وبإمكاننا تقديم وصف لذلك في المنطق عبر المعادلتين التاليتين: / س = س/1 / أو / س + (- س) = 1 /، وهذا أمر مستحيل. إن الفكرة، القائلة بإمكانية إعادة توحيد جميع الأشياء في واقع أعلى، مشتقّة مباشرة من المنظور الديني الذي يعتبر أن الله شامل لكل شيء، وأن جميع التناقضات قد تجد فيه حلها. وقد يمحو القائد، بنفس الطريقة، كل تناقضات حياتنا. ولا يستطيع المتكلم الذي تواجهه إردافات خُلفية مثل هذه، وأكثر من أي شكل بلاغي آخر، إدراك المدلول إدراكا مباشرا، بل ينبغي له أن يفترض، بصورة غير يقينية، أن مدلولا ما يناظر الدوال المزدوجة والمتناقضة التي يصادفها. هكذا قد يكون لنا هرم على هذا الشكل:



إن تبنّي هذا الحل مسألة عاطفية بحتة، لأن (س) تظل دائماً منطوقة، وهي ملك مطلق للقائد.

ويحلو لي أن أقترح كتسمية لهذه العملية مسلسلا لـ «انعدام الاثبات الدلالي»، أي مسلسلا لغويا يهدف إلى إلغاء جميع القيم الدلالية والمراجع التي يمكن أن يعتمد عليها المستمع. إلا أن هذا المسلسل يمارس فعله دون تحطيم البنية التركيبية أو تقويض تماسكها. وقد يستطيع المتكلم، عبر هذه العملية، أن يُدخل احتمالياً أية قيمة أو رغبة في الكلمة التي أصبحت وعاء فارغا، ويستعملها لتبرير جميع التحركات أو الاجراءات التي يعتبرها ضرورية لتأمين سلطته أو تعزيزها. إن تأويلية المستمع تقف في الدرجة الصفر مقارنة مع المتكلم الذي يتوفر على إمكانيات لا نهائية للتأويل، كلها صحيحة. وبقدر ما يكون المتكلم نفسه خاضعا لسلطة عليا، تُقبل كلماته باعتبارها تحمل قيمة دلالية أدنى من كلمات [تلك] السلطة العليا، و[هي كلمات] تحمل إمكانيات أكبر من حيث تضميناتها. وتبقى الطاقات المجازية للنصوص في يد أعلى سلطة، حيث تستطيع التلاعب بها لصالحها. بل، أكثر من ذلك، سيصبح من غير الوارد، في هذه المرحلة من اللعبة، [التساؤل عن] استعمال قوة الكلمة المجازية بتاتا، مادامت هذه القوة ستُفهم، في جميع الأحوال، بوصفها فراغا. هذا ما يفسّر لماذا تبقى الكلمات، بغض النظر عن التغيرات الاجتماعية والسياسية، قائمة، رغم أنها تبدو في تعارض تام مع واقع المستمع المعيش. وكم عدد «عمليات التهدئة» التي كانت تفوح منها رائحة الحرب ذاتها؟.

وبالطبع، إن نسق اللا إثبات هذا يولّد صيغا مباشرة يسهل التعرّف عليها. إن نداء الحرب والشعار والصيغ السرية تشكل علامات لحشد الجنود، لا مجرد تنميقات خطابية. وتصبح هذه جوهرية للتعرف عى خطاب السلطة، لأنها تشير، بمجرد ظهورها، إلى السياسة، وتثير، من ثم، أو يفترض فيها أن تثير، تغيرا في موقف المستمع. إن كلمات مثل هذه تشير إلى ضرورة فهم الخطاب برمته في إطار مرجعي مخالف، بوصفه غير قابل للطعن. وينبغي للمستمع، لدى سماعه نداء هذا النفير، [ألا يبقى] كائنا عاقلا، وأن يتحوّل إلى خادم مطيع وخاضع لنزوات المتكلم.

إن الكلمة رمز السلطة، ويتقمّص ممثل الطائفة العليا سجايا يمكن تعيينها في الطائفة كلها، وذلك عبر التكافل (symbiosis) . لهذا سيحيل الشعار، في أغلب الأحيان، على سلطة عليا ـ الله أو الحاكم أو الشعب ـ قصد التأكيد على طبيعة الخطاب المقول. هذه الاحالة الأخيرة على القائد هي التي تمنح الكلمة سلطتها. هكذا كلما بدا المثال الأعلى أسطورياً، اتخذت كلمته طابعاً لا واقعيا، مما يبرّر قراءتها بدورها بمفتاح آخر. ينبغي أن تظل كلمة الرئيس مجهولة. هذا ما يفسّر أيضا خلو كلام القائد من الحماقة. فكيف يمكن للقائد التفوّه بكلام العامة: إنه لا ينتمي إلى الجماعة وإنما يقودها. إنه ينظر إلى أبعد، ويعرف أكثر.

إن مسلسلات اللا إثبات عمليات متعدّدة. ومع ذلك، فإن بعضها أوضح وأكثر شيوعا. ويمكن لنا أن نسمي أحدها «مسلسل اللا إثبات عبر التلاعب اللغوي»، أي عبر إخضاع الكلمة نفسها إلى عملية ما. إن وجود كلمة ما، كمثال، في سياقات مختلفة ومتشعبة يدخل المستمع في متاهة دلالية لا يستطيع أن يعثر خلالها على أية وحدة منطقية للمعنى بمقدورها تغطية جميع الحالات التي ترد فيها الكلمة. ولنتناول كمثال كلمة «كلّي» في الخطاب النازي. إن باستطاعتنا إرجاع أصلها إلى مفهوم «الدولة الكلية» (totaler Staat) الذي نقل إلى الانجليزية خطأً بصيغة (totalitarian State) والفرنسية (Etat totali-taire) أي «الدولة الكليانية»، وأصبح المفهوم نقطة تجمّع بالنسبة إلى الايديولوجية النازية، حيث ظهر في تعبير «الحرب الكلية» (totaler Krieg) ، و«الثورة الكلية» (totale Revolution) و«المسؤولية الكلية» (totale Verantwor-tung) ، وأخيرا، هي «قواعد الحياة الكلية»، التي قد تكون إمّا «كلية كمّا» أو «كلية كيفا». ويزيد وجود مشتقات من صنف كلياني (totalitär) وكليانية (Totali-tät) الأمور تعقيدا وتشوشا، مادام ثمة طبع كلياني (totalitärer Charakter) ، وكليانية شعبية (eine völkische Totalität) وكليانية دولتية (eine staatlische Totali-tät) . ولا حاجة بنا إلى القول إنه ما من سبيل إلى ربط جميع الحالات التي وردت فيها الكلمة بقاعدة منطقية ذات معنى، وقادرة على تفسيرها كلها. فالعلاقة الوحيدة القائمة بينها تنحصر في كونها التعبير الرسمي عن النازية.

لقد خضعت بعض الكلمات لنفس التطوّر، وأصبحت دلائل (Tekme-ria) على أيديولوجيات معينة. ولنتأمّل، كمثال، كلمة «الامبريالية». إنها يافطة

تلصص، في المصطلح الاشتراكي، بكل تحرّك غربي يناوىء أي تغلغل سوفياتي داخـل حركـة تحرّر ما. أما [مسألة]: التحرر من ماذا؟ فغالبا ما تظل غير واضحة. أو [لنتأمل] كلمة «المحبة»، وهي فضيلة يفترض أن المسيحية تتميّز بها، حتى ولو تضمن ذلك إحراق بعض الهراطقة لصالح خلاصهم الروحي. فكم عدد الجرائم المرتكبة باسم الشعب أو الاشتراكية أو الوطن؟

ومنطقيا، ينبغي أن يؤدي استعمال كلمة ما في سياقات متزايدة التنافر إلى [ظهور] تعريف جديد [لها]، ولكن هذا مناف لما يشهد به الواقع. وقد تكـون الـطريقة الوحيدة لمحاولة فهم نص مثل هذا هي البحث عن تأويل مجازي قد يشكل حدسا يحظى بقدر من المعقولية، إلا أنه سيظل دون التأويل الـرسمي للمتكلم أو القائد. وحده القائد يعرف، في نهاية المطاف، معنى الكلمة الحقيقي مادام هو خالقها.

وتصبح السلطة، في حالة انتشار الكلمة، هي منظّمة الخطاب الذي تملي وتاثره، وتصبح خالقة لخطاب ينزع إلى الامبريالية اللغوية ـ بالمعنى الأصلي للكلمة ـ أي خطاب يحاول تغطية جميع الأمثلة اللغوية وتوجيهها. ودون أن تغيّر الكلمة اللامثبتة من بنية أي تعبير، بل إنها قد تصبح بديلا عن أي تعبير ذي قيمـة دلالية معينـة، فإنها تضع ختمها على مجموع اللغة التي تصبح، بالتـالي، الملكية السياسية للسلطة المتكلمة. فلا يمكن أن تقـوم معـارضة لغوية. ومن منا على استعداد لمحاربة كلمات مثل: «الاجتماعي» أو «المحبة» أو «الحرية»؟

يمكن التـوصل إلى نفس النتيجة عبر التلاعب بأنساق متناقضة. إن التوحيد اللامنطقي بين تناقضات متناحرة يخلق صيغة لا معنى لها. ولقد سبق لنا تأمل إردافات خلفية مثل هذه. وكما قال رومان ياكبسون: «إن الرسالة الغامضة تجعل المرسَل إليه غامضا». ويبقى هذا الغموض واحدا من أقوى أسلحـة السلطة، لأن الغمـوض يتضمن الغـرابـة والخطر والخوف. ويظهر المتكلم بوضوح، بوصفه الخالق الواعي للصيغة الخطرة، أنه يسيطر على الخطر الموحى به، وأنه قادر على جلب السلام بنفس الطريقة التي جلب بها الخطر. إنه قادر على التلاعب بالخطر مادام قد أخضعه.

والنتيجة الجوهرية لهذا هو الوهم [الذي يعتقد] أن بمقدور المتكلم التعالي فوق الملكات وتعارضها، والوصول إلى ذلك المستوى الأعلى من الفهم، حيث يوجد تجانس جديد، وتهيمن الوحدة. فكل شيء يعزّز العلاقة السلطوية القائمة بين المرسِل ذي المعرفة الكلية والمرسل إليه الجاهل. ولا يسعنا، بالنظر إلى هذه العلاقة المعرفية، سوى توقّع الطاعة، مادامت المشاكل الدنيوية غير قابلة للحل ظاهريا إلا بارتباط مع رؤيا أوسع. إن محو التعارضات اللغوية لا يعني إلغاء السلبيات والتناقضات، [مع أنها] جزء من حياتنا اليومية. ومن ثم، تخلق السلطة منظورا للكون إيجابيا وموحَّدا وإجماليا. [هكذا] تبدو سلبيات حياتنا وكأنها حقا بدون أساس، مادام الخطاب السلطوي يحتويها ويحلّها جميعا. بل إن التفكير السلبي يغدو عملا تجديفيا (blasphemous)، لأنه يتضمّن الشك في قدرة السلطة على فرض السلام والنظام.

وتعطينا المسيحية أحسن مثال على هذا المسلسل بمفهوم الثالوث الأقدس. فما أن يسلّم المومن حقيقةً، وخلافاً لكل تجربة منطقية، بأن الواحد يساوي ثلاثة، وبأن ثلاثة تساوي واحدا، حتى يكون قد قطع شوطا كبيرا على طريق التسليم بعقائد الدين وأوامر الكنيسة جميعها.

وثمة طريقة أخرى للا إثبات الخطاب، وتتم عبر التلاعب بالتعارضات، وهو تنويع معقد يجرى على الإرداف الخُلفي، حيث يبلغ نفس الهدف في تعمية الجمهور من خلال تقديم كلمة ما، باعتبارها وحدة ما، في تعارض مع كلمات أخرى، هي نفسها متعارضة فيما بينها. ففي الخطب النازية، مثلا، تتحدد كلمة شعبي (völkisch) المستعارة من القاموس الاشتراكي، في تعارض مع اليهودي والكاثوليكي والبلشفي، بل وكذلك مع الرجعي والمسيحي والملحد. أما كلمة الفاشية فتعارَض بالرأسمالية والشيوعية في آن معا. إنها تسجّل التغيير، إلا أنها مغروسة في الماضي السحيق.

ويدخل الغموض عن طريق حدّ ثالث يحطّم الجدل المقبول بين قطبين، ويُقدّم كل ما سبقه باعتباره غير متجانس، ويدّعي، من ثم، أن طريقته الخاصة، أي الحل الجديد، لا تمتّ للماضي بصلة. ويوحي هذا الطرح الجديد

للمشاكل، آليا، بحلّ يقتضي أن يكون المتكلم دائما هو القائد أو الناطق باسم القائد.

إن المستمع ينفي هذا اللا إثبات للخطاب كما وصفناه هنا. فهو مشدود بحكم العادة، إلى أن يتوقع من العلامة أن تحمل دلالات ما، رغم كونه مشدودا إلى البنية اللغوية فحسب، لا إلى مضمون [ها] العقلاني، كما لاحظ إريك بويسنز (E. Buyssens) ذلك. ويعاني المتلقي صعوبات جمة حينما يتأمل كلمة فارغة، إلا إذا كان قادرا على اعتبار المتكلم أحمق. ولقد تناول فوكو هذه الحالة بالدرس (1971) خلال تعرضه لخطاب الحمق. فهو يظهر أن كلمات الأحمق فارغة، إلا أنها قد تملك قوى غريبة: قوة اكتشاف حقيقة دفينة، وقوة التنبؤ بالمستقبل. وبإمكان الكلمة السياسية الحصول على هذه القوة الأسرة (charismatic) في التعالي على الشواهد الدنيوية وتحديد المستقبل. إن هذه الأمر كله ـ وهو أمر محيّر ويصعب قبوله ـ لا ينشأ سوى عن رغبة المستمع اللاواعية في العثور على معنى ما ضمن النص. إننا هنا، حقا، أمام حاجة تمتزج برغبة في منح الثقة.

والحال أن هذه الثقة لا توضع في الكلمات ودلالتها المفترضة، وإنما توضع في شخص القائد نفسه. إن هذا التحويل يفسّر لنا لماذا كانت البلاغة القديمة تولي أهمية أساسية لأخلاقيات المتكلم المؤسِّسة على الافتراض القائل بالخير الجميل (Kalon Kagathon) أو التحام الحقيقة بالجمال. إذ ينبغي أن يكون النص الحسن السبك صادقا إذا ما عمّه سلوك المتكلم الأخلاقي.

وكما كتب أومبرتو إيكو (U. Eco) فإن المستمع يمنح الكلمات، بثقة غير مبرّرة «التزاما عاطفيا أكثر مما يمنحها اتفاقا عقليا»، ملغيا [بذلك] أية إمكانية للنقاش (1972). وبناء على ذلك، تبلغ البلاغة نفسها، وهي التي تقدم نفسها بوصفها فنا للاقناع العقلاني، عبر مكوّن ذاتي، أي عبر أخلاقيات المتكلم الفردية، التي تتحدّد انسجاما مع المقاييس الاجتماعية المتغيرة من مجتمع إلى آخر. إن المقاييس المنطقية والموضوعية، مثل الصواب، مقاييس غير واردة، لأن الخطاب لا يتوجه إلى العقل المفكّر. ومن ثم، تكون جميع الوسائل المسرحية المستعملة لتعزيز الجوانب السياسية المثيرة أدوات رئيسية لأسر عقل الجمهور وعواطفه. إذ ينبغي الهجوم على الجمهور عبر الاغراءات والمتع

السمعية والبصرية والايقاعية. إن مسيرة المشاعل المضيئة النازية توازي المسيرة الكاثوليكية. كما أن الصليب الموجود في كل مكان يمارس فعله، شأنه في ذلك شأن الصليب المعقوف أو العلم الأحمر، وكأنه ينبه الجمهور دوما إلى أن السيد الكلي المعرفة كلي الحضور ويراقب أيضا. إن حضور القائد رمزيا في كل مناسبات الحياة يزيد من وزنه، وينتهك الفضاء الخاص بالمتلقي. ولنتمعّن الآن في مدى القوة التي تمارسها الاعترافات الضابطة (confession) على المؤمنين الكاثوليكيين. فإلى يومنا هذا، لم تستطع أية قوة سياسية ابتكار سلاح أقوى [منها]، وذلك رغم أن رفض الحق في التفكير الحرّ مسألة شائعة جدا في الأنظمة الكليانية. إن نظاما قائما على [مفهوم] الأمن مضطر إلى الحدّ من الحياة الخاصة ما أمكنه ذلك، لأن الفرد يغدو، بمجرّد تحرّره من تأثير السلطة العاطفي، قادرا على بناء معارضة ثورية. ويحاول الأخ الكبير أو الكنيسة، أو الغستابو أو المخابرات السوفياتية، جميعاً، استئصال الأفكار المثارة خارج دوائرهم الخاصة، لأن كل ما يجري خارجها يتحوّل آليا إلى معارضة للسلطة. إن أي تحليل يُظهر لنا مباشرة اللا تطابق الثاوي ضمن خطاب المؤسسات القائمة، كما يُظهر لنا افتقاده إلى أية علاقة مع الواقع الحي للمستمع.

وختاما، إن الخطاب الايديولوجي السلطوي الصادر عن السلطة الحاكمة يفرض السكوت، وذلك بملئه الفضاء اللغوي بكلمة خالية من المعنى، كلمة فارغة ولا جدال فيها. إن الصوت الوحيد الذي تستطيع السلطة سماعه هو صوت القوة. وعندما يُسمع هذا الصوت في النهاية، فإن صوت السلطة يركن إلى السكوت.

**نقل النص عن الانجليزية: مصطفى كمال**


العنوان الأصلي للنص:
«Toxards a Semiotics of Authoritarian Discourse»
عن مجلة «الشعرية اليوم» - (Poetics today)
المجلد الثالث، العدد 1، (ص ص: 11 ـ 20)، شتاء 1982.

# الممارسة اللغوية

## جوليا كريستيفا

إن اللغة، رغم كونها موضوعا لعلم خاص، أي مادة فيها تتكوّن الذات ومعرفتها، هي قبل كل شيء، ممارسة، ممارسة يومية تملأ كل ثانية من حياتنا بما في ذلك زمن أحلامنا. وسواء أكانت اللغة تعبيرا [شفويا] أم كتابة فإنها وظيفة اجتماعية تتمظهر وتتعرف على نفسها في تطبيقها.

إنها ممارسة للتواصل العادي [المتمثل في] الحديث والإعلام.

وهي ممارسة خطابية [تتمثل في] الخطاب السياسي والنظري والعلمي.

وممارسة أدبية [تتجلى في] الفلكلور الشفوي والأدب المكتوب، [في] النثر والشعر والنشيد والمسرح....

ويمكن تمديد اللائحة: إذ أن اللغة تطوق حقل النشاط الانساني بكامله. وإذا نحن مارسنا اللغة بصفة شبه آلية، ضمن التواصل العادي، وكأننا لا نعير أي انتباه لقواعدها، فإن الخطيب والكاتب يواجهان هذه المادة بدون انقطاع، ويستعملانها عارفين ضمنياً قوانينها، التي، من المؤكد، أن العلم لم يكشف بعد عنها في كليتها.

١ ـ الخطباء والبلاغيون:

يحمل لنا التاريخ مثال خطباء يونانيين ولاتينيين مشهورين بَهَرَ تمكُّنهم الجموع وأسَرَها. إننا نعرف بأن «فكر» الخطباء لم يكن يمارس، أو لم يكن يمارس وحده، هذا التأثير على الجماهير، بل إن التقنية التي كانوا يستعملونها قصد تمريره داخل لغتهم القومية هي التي كانت تمارسه.

لم تتطور الفصاحة، في اليونان، إلا في نهاية القرن الخامس تحت تأثير البلاغيين والسفسطائيين داخل حرم الجمعية التمثيلية، حيث كان كل مواطن

يشارك في السياسة بأخذه الكلمة. ومع ذلك يجري الاعتقاد بأن أصل البلاغة صقلي وأنها مدينة بميلادها لمرافعات المواطنين حين محاكمتهم. فهناك، في سيرقوصه، كتب كوراكس (Korax)، وتيزياس (Tisias) أول مؤلف بلاغي ميزَّن بين: الاستهلال والعرض والمناقشة والخاتمة باعتبارها أجزاء الخطاب. لكنهما اخترعا، أيضا، مفهوم الاحتمال الغامض جدا والحقير جدا، والذي يلعب دورا هاما في الشؤون العمومية. فإذا اتهم رجل ضعيف بضرب إنسان جريح سيكون الامر غير محتمل، لكن إذا اتهم رجل قوي بضرب إنسان جريح سيكون الامر أيضا غير محتمل لأن القوة تعرِّضه، بصفة آلية، إلى هذه التهمة. إن مثل هذا التمطيط في مفهوم الاحتمال مفيد، طبعا، لأولئك الذين يملكون السلطة. . .

لقد لعب السفسطائيون، مع بروتاغوراس (Protagoras) (485 ـ 411 ق. م.)، دورا حاسما في تشكيل الفن الخطابي. ففي كتابه «فن المجادلة» يصرح [بروتاغوراس] بأنه «توجد أطرحتان متعارضتان حول كل موضوع» وأن على الخطيب أن يتمكن من «جعل الأطروحة الضعيفة تنتصر على الأطروحة القوية». ويعتبر جورجياس (Gorgias) (485 ـ 380 ق. م) أحد السفسطائيين الكبار: فهو كاتب رشيق العبارة ومنطيق لا يخطىء، وهو مخترع الأساليب الكلاسيكية في فن الخطابة مثل تقنية مطابقة كلمات ذات شكل متشابه داخل جزأين متتابعين من أجزاء الجملة. ونحن مدينون لفنه بالبيثارية (تكريم الاله أبولو، م) وبالأولبية وبالرثاء والمدائح (مدح هيلينا، والدفاع عن بولاميد). وقد كان أنتيفون (Antiphon) (480 ـ 411 ق. م.)، وخاصة أندوسيد (Andocide) وليسياس (Lysias) وإيسيه (Isée) ناثرين وخطباء قانونيين، وقد ترك الثلاثة الاخيرون خطباً مكتوبة. وسيتخلى إيزوقراط (المزداد سنة 436 ق. م.) عن هذا الأسلوب ليعتني بفصاحة موزونة وكاملة في تركيبها ومتزنة، عارفة بموارد اللغة وقوانين المنطق ومتطلبات ترخيم الصوت كما يشهد على ذلك خطابه التقريظي في تمجيد أثينا. أما في ميدان الفصاحة السياسية فيبرع ديموستين (Demosthène) (384 ـ 332 ق. م.). إننا نعرف جيدا الأسطورة التي تصوره طفلا أعجف متلعثما يتمرس، وفوه ملىء بالحصى، على اكتساب كمال في الالقاء، وقامة رشيقة. و [نعرف] أن «فيليبياته» الشهيرة الموجهة ضد سياسة فيليب المقدوني كانت سبب شهرته كوطني. فقد كافح ضد

فيليب ثم ضد الاسكندر، وبعد وفاة هذا الاخير، وأثناء فراره من جنود أنتيباتروس (Antipatros) الذي طالب بأن يسلّم إليه الخطباء الرئيسيون، تسمّم في معبد بوسيدون.

لقد كانت هذه المدرسة الشهيرة من الخطباء، بالتأكيد، نتاج حياة عمومية قوية كان عليها أن تختفي مع انهيار أثينا وسقوطها.

وبالاتصال مع هذه الممارسة الخطابية التي تمكنت من جعل خطباء عظام أسياد الشعب الكبار تمكّن علم الخطاب من التشكل. إن الخطيب لا يشيد كونا دالا من الحجج والاستدلالات عن طريق دراسة نسق شكلي (نحوي) للغة ومقولاتها (النحوية)، وإنما بواسطة الوحدات الكبرى المبنية داخل نسق اللغة (بمعرفة نحو هذه اللغة على أتم وجه). وهكذا ظهرت الحاجة، في اليونان، إلى تدوين قوانين هذا البناء: فكانت البلاغة. وما أن تكونت، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، حتى انقسمت إلى مدرستين: أتباع إيزوقراط الذين يقسمون الخطاب إلى أربعة أقسام (القصيدة والعرض والحجة والخاتمة) من جهة، ومن جهة أخرى أتباع أرسطو الذين يولون اهتماما خاصا، عملا بتعاليم أستاذهم، لتأثير الخطاب في المستمعين، ويميزون في الخطاب بين الحجج (أو المحتوى المادي) والأسلوب والترتيب. نحن نعرف أن نسق الحجج هو جوهر البلاغة الأرسطية، فأرسطو يعني بذلك وظائف الخطاب، وينظّر لها في ثلاثة أجزاء: نظرية البراهين البلاغية (وهي ذات أساس منطقي مع تحليل القياس) ونظرية الانفعالات ونظرية مزاج المؤلف.

لقد عرفت روما، هي الاخرى، مجدها الخطابي الرزين والمتزن أيام شيشرون (106 ـ 43 ق.م) وهورتنسيوس (Hortensius). فالحياة المتقلبة لماركوس توليوس شيشرون الذي ارتبط بالنشاط السياسي لروما في القرن الاول قبل الميلاد ارتباطا وثيقا في صعود، وسقوط، سيلا (Sylla) وكاتيلينا (Catilina) وبومبي (Pompée) وقيصر تعتبر المثال الأكمل لقوة الخطيب القديم وهشاشة الخطاب. فبعد أن نودي به أبا للوطن، وبعد نفيه ثم احتضانه من جديد من طرف روما التي استقبلته استقبال المنتصر، يؤلف مدح كاتون الذي رد عليه قيصر بـ: ضد كاتون، ثم كتب «فيليبيات» ـه الشهيرة ضد أنطوان ليعدمه، في النهاية، جنود المثالث (حكام روما الثلاثة) بأمر من أنطوان. لقد

ابتكر شيشرون لغة جديدة، وجلب إلى روما المنطق والفلسفة اليونانيين، كما خدم بأسلوب لا يقاوَم مثلا سياسيا أعلى، وهو خليط من الارستقراطية والحكم الشعبي. لكنه خصوصا أوصل نشوة الانتصاب إلى أوجها كمالك وسيد لكلام يضمن له الهيمنة على المتلقين الذين خصّهم بالدور الوحيد، هو أن يكونوا الصمت الذي يتحمل كلمته.

وكان على شهرة سنيكا (55 ق.م. ـ 39 م) أن تحجب المجدالشيشروني لبعض الوقت إلى أن جاء **كانتيليان** فقد ازداد حوالي منتصف القرن الأول [الميلادي] ودرس البلاغة على **دوميتيوس آفر** (D. Afer) أحد أشهر خطباء زمانه، وعرض الفن البلاغي في كتاب **«المؤسسات الخطابية»**، ودرّس في روما لمدة عشرين عاما وكان له تلامذة مشهورون أمثال بلين (Pline) وسويتون (Suètone) الذي ألف سيرة للبلاغيين. يعتبر **كانتيليان** أنه ينبغي، لتكوين خطيب كامل، الاعتناء به من المهد إلى اللحد. فكان يعلم تلامذته النحو والاملاء والموسيقى والهندسة، ويولي اهتماما خاصا للتربية و تمارين الذاكرة والانشاد، قبل تحديد مختلف أجزاء الخطاب الكامل وأساليبه. إن أكمل استعمال للكلام، في نظره وبعيدا عن أن يكون ذلك حيلة من الحيل، لا يمكن أن يقوم به سوى إنسان حكيم: «ليبلغ الخطيب، إذن، درجة تمكننا من مناداته حكيما حقا. لا أعنى، فقط، أن يكون خاليا من أي عيب في أخلاقه لأن ذلك نفسه يبدو لي ـ رغم ما يمكن قوله عنه ـ غير كاف، بل أعني أن ينصب على العلوم كلها وعلى كل أصناف الفصاحة. قد لا يوجد قط مثل هذا الانسان الفذ؟ ألا ينبغي لنا، من ثم، أن نحدّ من جنوحنا نحو الكمال؟ ألم يكن ذلك هو ما فعله أغلب القدماء الذين تركوا لنا ـ مع اعترافهم التام بأن الناس لم يعثروا بعد على حكيم حقيقي ـ رغم ذلك تعاليم حول الحكمة؟ لا، إن الفصاحة الكاملة ليست خرافة أبدا؛ إنها شيء، واقعي جدا، ولا شيء يمنع العقل البشري من الوصول إليها...».

يبدو أن الفن الخطابي الذي هيمن في العصور القديمة قد أخذ ينثني في عصرنا هذا. فقد قام الدين بتأجيجه في القرن السابع عشر (مع **بوسوي** (Bos-suet)، مثلا)، لكن الخطباء الكبار نادرون في الحياة اليومية، ويبدو أن الحركات الثورية، وحدها، تقدم اليوم الاخراج الملائم لممارسة سلطة الكلام.

أخذت البلاغة المضادة للبلاغة، في هذه الحالة الأخيرة، ترى النور، وأخذ الخطاب ينقل إلى الجماهير كلاما لا شخصياً، علمياً، يستقي قوته من التحليل الدقيق للاقتصاد والايديولوجيا، ويستخلص تأثيره من قدرته على أن يصبح مطابقا لرغبة (دال ومدلول) متلقيه.

لقد عرفت كل عشيرة أو طبقة مهيمنة كيف تستغل ممارسة اللغة، وكيف تستغل، قبل كل شيء، الممارسة الخطابية لتدعيم تفوقها. إذ ما لم يتغير لسان أمة ما أدنى تغيير تقريبا أو لم يتغير إلا بشكل خفي فإن اللغات التي تتشكل داخلها ـ النماذج البلاغية والأسلوبية، والأنساق الدالة ـ تتضمن كل واحدة منها إيديولوجيا وتصوراً للعالم وموقفا اجتماعيا مختلفة وتفرضها. فـ«طريقة الكلام»، كما يقال عادة، ليست غير مكترثة بمحتوى الكلام، فكل محتوى إيديولوجي يجد شكله الخاص به ولغته وبلاغته.

هكذا نفهم لماذا يكون كلُّ تحوُّل اجتماعي يرافقه تحول بلاغي بمثابة قانون موضوعي، ويكون كل تحول اجتماعي، بمعنى من المعاني، انتقالا بلاغيا بكيفية عميقة. ومثال الثورة الفرنسية في هذا الصدد مثال دامغ.

فالثورة الفرنسية لم تكتف، فقط، بالاعتماد على العمل المجدِّد الضخم الذي قام به، على مستوى اللغة ذاتها وعلى مستوى الأدب الفرنسي، كُتَّابٌ من أمثال فولتير وديدرو وساد . . . ، ولا بمطالبتها، في قوانينها، بتغيير مفردات اللغة؛ بل إنها صُنعت تماما ـ ولم يعلن عنها فقط ـ بواسطة خطابات قادتها وكتاباتهم. وفي إمكاننا تتبع ظهور الثورة الفرنسية ومسيرتها من خلال ظهور ومسيرة بلاغة جديدة، وأسلوب جديد زعزع اللغة الفرنسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتنتهي إلى جملة روبسبيير (Robespierre) . . .

وإذا كانت الجمعية التأسيسية لازالت تهيمن عليها البلاغة التقليدية المتأثرة بكانتيليان، فإنها قد بدأت، مع الجمعية التشريعية، تتحرر من النزعة الأكاديمية ومن فصاحة الأبّهة. لكن حزب الجبل (la Montagne) (حزب الشعب الثائر) هو الذي سيجدّد الفن الخطابي وسيكون روبسبير سيده. وبعد سقوطه ستصبح حكومة المدراء (Directoire) مهذارة وستصير حكومة القناصل والامبراطورية بكماوين. وأخذ ميرابو وبارناف وكندورسي وفرنيو ودانتون وروبسبيير وسان جوست ـ وهم ورثة مبادىء مونتسكيو وديدرو

وروسو ـ يستعملون خطابا ينعتق ببطء وثبات من بلاغة القدماء الشكلانية الفخمة التي كانت لاتزال تهيمن على الحقوقيين في الجمعية التأسيسية، ومن النزعة الكلاسيكية المتفسخة للصالونات الأدبية. وستستقي فصاحة الجمهورية نموذجها من تاسيت (Tacite) وتيت ـ ليف (Tite-Live) وستلجأ، بالتناوب، إلى نبرات تليق بالمستمعين الأرستقراطيين (ميرابو) وإلى إشارات رثائية لنزعة إنسانية خائبة ولنزعة فردانية مؤسفة لدى المهزومين (فرنيو) وإلى كلام مهيّج مُشْتَرِع ونزيه (روبسبيير) قبل أن تصبح، من جديد وبلا جدوى، خطابية مبهرجة مع عودة الملكية لتغذية حنين الرومانسيين، حتى لو ظل همُّ الفصاحة ثابتاً أثناء هذا الانتقال بحيث استولت مختلف الشرائح الاجتماعية على الكلمة، وكانت كل شريحة اجتماعية تطبعها بطريقتها الخاصة: «في ذلك الوقت كانت لغة راسين وبوسوي تزعق داعية للدم والذبح، وكانت تزمجر مع دانتون، وتصرخ مع مارا، وتصفر مثل أفعى في فم روبسبيير، لكنها ظلت صافية» [كما] كتب ديماري (Desmarais) الملكي النزعة.

* ميرابو (Mirabeau) [1]:

كان نيكر (Nicker) قد انتهى من اقتراح مساهمة استثنائية تقدر بربع المدخول، [فخطب ميرابو يقول]:

«... أيها السادة في خضم مثل هذا العدد من المناقشات الصاخبة ألا أستطيع، إذن، إعادة عدد قليل من الأسئلة البسيطة جدا إلى مداولة اليوم؟

«تفضلوا أيها السادة، تفضلوا بالاجابة!

«ألم يقدم لكم الوزير الأول المكلف بالمالية أقتم لوحة عن وضعنا الحالي؟»

«ألم يقل لكم بأن كل تأجيل سيفاقم الخطر؟ وبأن يوما أو ساعة أو لحظة يمكنها أن تجعلها خطرا قاتلا؟ هل لدينا مخطط بديل عن المخطط الذي يقترحه علينا؟

«... أصدقائي: اسمعوا كلمة، كلمة واحدة. لقد حفر قرنان من أعمال النهب واللصوصية الهاوية التي تتهيأ المملكة للانهيار فيها. يجب ردم هذا الهاوية المخيفة! ها هي ذي، إذن، قائمة الملاكين الفرنسيين، اختاروا من

ضمنها أغنى الناس حتى نضحي بأقل عدد من المواطنين؛ لكن اختاروا؛ إذ أليس من الواجب أن يهلك عدد قليل لانقاذ أغلبية الشعب؟ هيا، إن هؤلاء الوجهاء الألفين يملكون ما تستطيعون به تغطية العجز. أعيدوا النظام إلى المالية، والسلم والازدهار إلى المملكة. . اضربوا هؤلاء الضحايا الحزانى ودمروهم بلا شفقة! ألقوا بهم في الهاوية! إنها [بهم] ستنغلق ثانية. . . ها أنتم تتراجعون من فظاعة المشهد. . . إنكم لرجال متناقضون! رجال جبناء! ألا ترون أنكم بإعلانكم عن الافلاس أو بجعلكم الافلاس أمراً حتميا ـ وهذا أمر أفظع ـ دون الاعلان عنه ستدنسون أنفسكم بفعل أكثر إجراما ألف مرة، لأن هذه التضحية الفظيعة ستقوم، أخيرا، بمحو العجز على الأقل، لكن هل تعتقدون، ما دمتم لم تؤدوا الثمن، أنكم غير مدينين بأي شيء؟ هل تعتقدون أن آلاف، بل ملايين البشر الذين سيفقدون في لحظة واحدة، عن طريق الانفجار المخيف أو ارتداداته، كل ما كان يمثل عزاءهم في الحياة وربما وسيلتهم الفريدة لتغذيته، سيتركونكم تنعمون بجريمتكم بسلام؟.

«أيها المتأملون شديدو العزم للشرور غير محسوبة العواقب التي ستتقيأها هذه الفاجعة على فرنسا، أيها الأنانيون الهادئة أعصابهم الذين يظنون أن تشنجات اليأس والبؤس هذه ستمر مثل باقي الأخريات، وبصفة أسرع مادامت أعنف، هل أنتم متأكدون من أن هذا العدد الكبير من الجياع سيتركونكم تستلذون، بهدوء، الأطعمة التي لم تريدوا تقليص عددها ولا مراءتها؟ . . . كلا، ستهلكون، وداخل الاشتعال الكوني الذي لا تتورعون عن إشعاله لن ينقذ فقدانكم لشرفكم ولو متعة واحدة من متعكم البغيضة. . . .».

* **فرنيو** (Vergniaud) [(2)]:

منذ هزيمة جيوش **دوموريي** (Dumouriez) **بإيكس لاشابيل** يوم فاتح مارس 1793، وتعزيز المحكمة الثورية، أخذ حزب الجبل يكبر من حيث أهميته.

وخلال الشهر الأخير ستتسارع الأحداث: اندلاع الانتفاضة الفندية (Vendéen) يوم 10 مارس، وانتقال **دوموريي** إلى صفوف الأعداء يوم 4 أبريل؛ تأسيس **لجنة الخلاص العمومي** يوم 5 [أبريل]. إن الظروف تتطلب إدارة

أحزم، وقد أوضح روبسبيير ذلك. وقد وصل دفاع فرنيو حد اليأس، إنه يسبق اعتقال الزعماء الجيرونديين ببضعة أسابيع.

«... يتهمنا روبسبير بكوننا قد أصبحنا فجأة «معتدلين» و«رهبانا».

«هل نحن «معتدلون»؟ أنا لم أكن كذلك يوم 10 غشت، ياروبسبيير، عندما كنت أنت تختبىء في قبوك! «معتدلون»! أنا لست «معتدلا» إذا كان معنى ذلك أني أريد إطفاء الجذوة الوطنية؛ أنا أعلم أن الحرية نشيطة دائما مثل الشعلة وأنها تتنافر وهذا الهدوء التام الذي لا يليق سوى بالعبيد: إذا كان الهدف هو تغذية هذه النار المقدسة، التي تشتعل في قلبي بحرارة كما [تشتعل] في قلوب الرجال الذين يتحدثون باستمرار عن تهوّر طبعهم، فإنه ما كان لمثل هذه التباينات الكبيرة أن تنفجر داخل هذه الجمعية. وأنا أعرف أيضا أنه سيكون من الحماقة ادعاء تهدئة غليان الشعب حسب الارادة الشخصية في أزمنة ثورية مثلما [يكون من الحماقة] تسكين أمواج البحر عندما تعصف بها الرياح؛ لكن [أمر] اتقاء كوارث العاصفة، قدر الامكان، يعود إلى المشرِّع بواسطة النصائح الحكيمة؛ أما إذا كان يجب على المرء ـ ليكون وطنيا ـ أن يعلن حمايته للجريمة واللصوصية متذرعا بالثورة فأنا «معتدل»!

«منذ إلغاء المَلَكية سمعت كلاما كثيرا عن الثورة. وقلت لنفسي: ليس هناك سوى ثورتين ممكنتين: ثورة المِلْكيات أو القانون الزراعي، والثورة التي ستعيدنا إلى الاستبداد. لقد اتخذت القرار الحازم بمحاربة هذه وتلك و[محاربة] كل الوسائل الغير مباشرة التي يمكنها أن تؤدي بنا إليهما. إذا كان هذا اعتدالاً فنحن جميعا معتدلون لأننا صوّتنا جميعا لصالح إعدام كل مواطن يقترح هذه أو تلك...».

* روبسبيير:

«... إن حكومة الثورة هي استبداد الحرية ضد الطغيان.

«... إلى متى سيظل هيجان المستبدين يُدعى عدلا وعدل الشعب يدعى بربرية أو تمردا؟

«... سامحوا المَلَكيين، يصيح بعض الناس، اعفوا عن الفساق! ولا يقولون: لنعف عن البراءة، لنعف عن الضعفاء، لنعف عن الأشقياء، لنعف عن البشرية!

« . . . لقد انقسم أعداء الشعب الفرنسي الداخليين إلى فرعين كأنهما فيلقان عسكريان. إنهما يسيران تحت ألوية ذات ألوان متباينة ويسلكان طرقا مختلفة، لكنهما يسيران نحو نفس الهدف.

«هذا الهدف هو الاخلال بنظام الحكومة الشعبية وسقوط الجمعية التأسيسية، أي انتصار الطغيان. تدفعنا إحدى هاتين الزمرتين نحو الضعف وتدفعنا الأخرى نحو التجاوزات. تريد إحداهما تحويل الحرية إلى متهتكة وتريد الأخرى تحويلها إلى عاهرة.

« . . . لقد أطلقنا على هؤلاء اسم معتدلين؛ وهناك قدر أكبر من الدقة في تسمية الثوريين المتطرفين التي نشير بها إلى أولئك.

« . . . ربما يكون الثوري المزيف، في الغالب، داخل الثورة أكثر مما يكون خارجها. إنه معتدل. [أو] وطني حتى الجنون حسب الظروف. إن ما سيفكر فيه غداً يُقرَّر داخل اللجن البروسية والنمساوية والانجليزية بل والموسكوفية. إنه يعارض التدابير الحازمة ويُبالغ فيها إذا لم يستطع منعها. إنه قاس بالنسبة للبراءة لكنه متسامح بالنسبة للجريمة؛ بل هويتهم المذنبين الذين ليسوا أغنياء بما يكفي لشراء صمته وليسوا مهمّين بما يكفي لاستحقاق حماسه؛ لكنه يتحاشى، دائما، أن يعرض نفسه للشبهات إذا ما دافع عن الفضيلة المفترى عليها؛ ويكتشف أحيانا مؤامرات مكشوفة، وينزع القناع عن خونة تم فضحهم بل وقطعت رؤوسهم؛ لكنه يطري على الخونة الأحياء الذين لازالوا مؤتمَنين؛ وهو يسارع، دائما، إلى مداهنة الرأي الراهن ولا يقل اهتمامه بألاّ يُنوّره أبدا، وخاصة بألاّ يعاكسه أبدا؛ وهو مستعد دائما لتبني التدابير الجريئة شريطة أن تكون لها سلبيات كثيرة؛ ويفتري على تلك التي لا تمثل سوى الايجابيات، أو يضيف إليها جميع التعديلات التي يمكن أن تجعلها ضارة؛ يقول الحق باقتصاد وبالقدر الذي يكفيه ليكتسب حق أن يكذب دون عقاب؛ وهو يقطّر الخير قطرة قطرة ويسكب الشر أسيالا، ويتحمس حماسا كبيرا للقرارات الكبرى التي لا تعني شيئا وهو شديد الاهمال تجاه تلك التي يمكنها أن تشرّف قضية الشعب وتنقذ الوطن؛ وهو يعطي الكثير لأشكال الوطنية؛ وهو جد مرتبط ـ مثله مثل النساك الذين يصرح بعدائه لهم ـ بالممارسات الخارجية ويفضل أن يبلي مائة طاقية حمراء على أن يفعل حسنة واحدة.

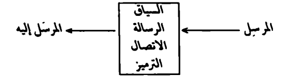
«... هل ينبغي أن نفعل؟ ها هم يطنبون في خطبهم. هل يجب أن نتداول [الأمر]؟ ها هم يريدون البدء في العمل. هل الأوضاعُ هادئة؟ ها هم يعارضون كل تغيير مفيد. هل هي عاصفة؟ ها هم يتحدثون عن إصلاح كل شيء لبلبلة كل شيء. هل تريدون إيقاف تقدم العصاة؟ إنهم يذكرونكم برحمة قيصر. هل تريدون تخليص الوطنيين من الاضطهاد؟ إنهم يقترحون عليكم قساوة بروتوس كنموذج. إنهم يكتشفون أن فلانا كان نبيلا عندما يخدم الجمهورية ولن يتذكروا ذلك عند خيانته لها. على السلم مفيدة إنهم يفرشون لكم أكاليل الانتصار. هل الحرب ضرورية؟ إنهم يمجدون لكم عذوبات السلم. هل يجب استرجاع حصوننا؟ إنهم يريدون مهاجمة الكنائس وارتقاء أدراج السماء؛ إنهم ينسون النمساويين من أجل محاربة الناسكات...».

إن الخطاب يحمل إيديولوجيا ما ويفرضها؛ وكل ايديولوجيا تجد خطابها. ونحن نفهم، بالتالي، لماذا تحرص كل طبقة مهيمنة على ممارسة اللغة بصفة خاصة وتراقب أشكالها ووسائل نشرها: الاعلام والصحافة والأدب. ونفهم لماذا تملك طبقة مهيمنة لغاتها المفضلة وأدبها وصحافتها وخطباءها وتميل إلى فرض الرقابة على أي لغة أخرى.

## 2 ـ الأدب:

إن الأدب هو، بدون شك، أفضل ميدان تمارس فيه اللغة وتتدفق وتتحول. واللغة الأدبية تقدم، من الأسطورة إلى الأدب الشفوي، ومن الفولكلور والملحمة إلى الرواية الواقعية والشعر الحديث، تنوعا يدرس علمُ الأدب أجناسه، لكنها تظل، مع ذلك، موحَّدة بواسطة نفس الميزة الوحيدة التي تميزها عن لغة التواصل البسيطة. وإذا كانت الأسلوبية تحلل الخصوصيات المختلفة لهذا النص أو ذاك وتساهم، بهذه الكيفية، في تأسيس نظرية الأجناس، فإن الشعرية تحاول أن تحيط بهذه الوظيفة المشتركة للغة في تجلياتها الأدبية المختلفة. وندعو وظيفةً شعريةً هذه الخصوصية لوظيفة اللغة في الأدب. فكيف ندقّق الوظيفة العشرية؟

يعطي ياكبسون الخطاطة التالية للتواصل اللغوي:




إذا كانت الرسالة موجهة نحو السياق فإن وظيفتها معرفية تقريرية ومرجعية. وإذا كان القول يرمي إلى التعبير عن موقف المرسل بالنسبة لما يتحدث عنه تكون الوظيفة انفعالية. وإذا شدد القول على السياق كانت الوظيفة انتباهية. وإذا ركز الخطاب على الترميز قام بوظيفة ورا ـ لغوية. إلا أن «هدف الرسالة بصفتها رسالة، مع التشديد على الرسالة لذاتها، هو ما يميز الوظيفة الشعرية للغة». وإنه لمن المهم أن نستشهد بالتعريف الكامل الذي يعطيه ياكبسون للوظيفة الشعرية: «لا يمكن أن تكون دراسة هذه الوظيفة مفيدة إذا أغفلنا مشاكل اللغة العامة، ومن جهة أخرى يتطلب [أي] تحليل دقيق للغة أن نأخذ، جدِّيا، بعين الاعتبار الوظيفة الشعرية. وكل محاولة لتقليص دائرة الوظيفة الشعرية إلى الشعر أو حصر الشعر في الوظيفة الشعرية لن تفضي إلا إلى اختزال مبالغ فيه وخادع. ليست الوظيفة الشعرية الوظيفة الوحيدة لفن اللغة وإنما هي الوظيفة المهيمنة والحاسمة فحسب، غير أنها لا تلعب، في الأنشطة الشفوية الأخرى، سوى دور فرعي ومتمِّم. هذه الوظيفة التي توضح الجانب المحسوس للعلامات، تعمق، من هذه الناحية بالذات، التفرع الثنائي الأساسي للعلامات والأشياء. لهذا لا يمكن للسانيات، وهي تعالج الوظيفة الشعرية، أن تنحصر في ميدان الشعر».

ومن البديهي أن هذه «الوظيفة الشعرية» للغة ليست خاصة بنوع واحد [من أنواع] الخطاب كالشعر أو الأدب مثلا؛ إذ كل ممارسة للغة، خارج الشعر، يمكنها أن توجد هذه الوظيفة الشعرية.

وفيما يخص الشعر بحصر المعنى، فإن تأكيد الرسالة هذا لحسابها الخاص، هذا التفرع الثنائي للعلامات والأشياء، يتميز، بدءاً، بالأهمية التي يحتلها تنظيم الدال فيه أو بأهمية المظهر الصوتي للغة. فتشابه الأصوات والقوافي والتنغيم وإيقاع مختلف أنواع الأبيات، إلخ، له وظيفة ـ من المستبعد

أن تكون تزيينية خالصة ـ تنقل مدلولا جديدا ينضاف إلى المدلول الصريح . «إنه مجرى الدلالة التحتي» [كما] يقول بو (Poe) ؛ و«على الصوت أن يبدو صدى للمعنى» [كما] يصرح بوب (Pcpe) ، «الشعر، ذاك التردّد الممتد بين الصوت والمعنى» [كما] بيـن فاليري. إن العلم الحديث الذي يهتم بهذا التنظيم الدال ـ العروض ـ يتحدث عن رمزية ما للأصوات.

وللزيادة في توضيح الوظيفة العشرية يُدخل ياكبسون مصطلحي الانتقاء والتركيب. لنسلّم مثلا بأن موضوعة رسالة ما هي «طفل»، ففي إمكان المتكلم أن يختار بين سلسلة كاملة من الكلمات (الطفل والصبي والولد والابن) لتسجيل هذه الموضوعة؛ وللتعليق على الموضوعة في إمكانه، كذلك، أن يختار بين كلمات عديدة (ينام ويغفو ويستريح ويَسِن). «إن الكلمتين اللتين تم انتقاؤهما تتراكبان في سلسلة كلامية. فالانتقاء يحدث على قاعدة المعادلة والتشابه، أو اللا تشابه، والترادف والتنافر، في حين يقوم التركيب وبناء المتتالية على التجاور. تقصد الوظيفة العشرية مبدأ معادلة محور الانتقاء لمحو التركيب. إن المعادلة ترقى إلى صف الإجراء المكون للمتتالية. وفي الشعر يدخل كل مقطع لفظي في علاقة معادلة مع كل المقاطع اللفظية الأخرى لنفس المتتالية، وعلى كل نبرة لفظية أن تكون معادلة لكل نبرة لفظية أخرى، وكذا الأمر بالنسبة للغير منبور الذي يعادل غير المنبور، و[المقطع] الطويل (عروضيا) يعادل [المقطع] الطويل والوجيز يعادل الوجيز؛ وتخم الكلمة يعادل تخم الكلمة، وغياب التخم يعادل غياب التخم، والوقفة التركيبية تعادل الوقفة التركيبية، وغياب الوقفة يعادل غياب الوقفة. فالمقاطع اللفظية تتحول إلى وحدات قياسية وكذلك الأمر بالنسبة للنبرات».

[. . .] يضيف علم الأدب، القائم المشكّل على قاعدة اللسانيات وتجربة الأوصاف الأدبية التقليدية، إلى خصوصيات اللغة الأدبية مثل هذه خصوصيات أخرى حتى يبرهن على أن الوظيفة الشعرية هي، فعلا، «إعادة تقويم شامل للخطاب ولكل مكوناته أياً كانت». وتكمن إعادة التقويم هذه بصفة عامة، كما وضحت ذلك حلقة بفراغ اللغوية من قبل، «في كون كل مستويات النسق اللغوي التي لا تملك في لغة التواصل سوء دور خدماتي، تملك في اللغة الشعرية قيما مستقلة ذاتيا هائلة بهذا القدر أو ذاك. إن وسائل

التعبير المجتمعة داخل هذه المستويات وكذا العلاقات المتبادلة الموجودة بين هذه الأخيرة والتي تميل إلى أن تصبح آلية في لغة التواصل، تميل، عكس ذلك، إلى التحيين في اللغة الشعرية». وفي بعض الحالات يكون هذا السعي إلى الاستقلال الذاتي [الذي يقوم به] الدال، المشبع بمدلول يبدو كأنه مطابق لمدلول رسالة صريحة، مبالغا فيه إلى حد أن النص الشعري يشكل لغة جديدة تكسر القواعد ذاتها للغة التواصل الخاصة بلغة، ويظهر كأنه جَبْرٌ فو - أو - تحـ - تواصلي، مثل أشعار برونتغ (Browning) وملارمي (Mallarmé) . . . إن ترجمة مثل هذه النصوص، التي تبدو وكأنها تدمر لسان التواصل المعتاد لبناء لغة أخرى فوقه، هي شبه مستحيلة: إذ تتجه [هذه النصوص]، عبر مادة لغة طبيعية، نحو إقامة علاقات دالة تستجيب لقواعد نحو ما أقل من استجابتها لقوانين اللاوعي الكونية (المشتركة بين كل الألسن).

كان ملارمي يكتب كي يخلق مثل هذه اللغة الأخرى من خلال [اللغة] الفرنسية. وإذا كانت [قصيدتا] إيجيتور (Igitur) وضربة نرد شاهدتين على هذه اللغة فإن تصورات ملارمي النظرية تكشف عن مبادئها. فهذه اللغة، بدءاً، ليست لغة التواصل: «إن أفضل ما يجري بين إنسانين يفلت دائما منهما بصفتهما متخاطبين». [أما] اللغة الجديدة، التي يجب بناؤها، فتخترقُ اللسانَ الطبيعي وبنيته أو تُغير موضعه: «أسمِّي هذا القصد تغييرا للموضع أو بنية أخرى». فهو يُزيح بنية التواصل الظاهر عن المركز ويُنتج معنى - نشيدا - إضافيا: «اللحن أو النشيد تحت النص يقود الكهانة من الآن فصاعدا. . .». كيف يبني هذا اللسان داخل اللسان؟ أولا، وباتفاق مع اللسانيات المقارنة لزمانه (التي اكتشفت لتوها اللغة السنسكريتية وكانت تبحث عن تكوين الألسن)، حدد ملارمي لنفسه غاية معرفة قوانين ألسن شعوب العالم كلها، لا للوصول إلى لسان أصلي - كما يُريد ذلك الاستيهام اللساني - وإنما [للوصول] إلى المبادىء المولِّدة والكونية والمجهولة، تبعا لذلك، لكل لسان: «ألا يبدو، للوهلة الأولى، أنه لإدراك لسان قوم ومعانقته في مجموعه كان ينبغي معرفة كل الألسن التي لازالت موجودة بل وتلك التي كانت موجودة. . .» (في: الكلمات الانجليزية). قراءة النص تعني الاصغاء إلى نشوء كل عنصر مكوِّن للبنية الحاضرة: «بل عوض الولادات المغرقة في المجهول وفي النوم الهائل يعاني

السمع المولّد، هذه المرة، وهو يقوم بإنهاكها، من إرهاق كل القرون ومن اتساعها. . .».

إن اللسان الذي تبحث عنه الكتابة يوجد في الأساطير والأديان والطقوس ـ في الذاكرة اللاواعية للبشرية التي سيكتشفها العلم في يوم ما بتحليله لمختلف أنساق المعنى. «إن مثل هذا المجهود الجبار [الذي تقوم به] المخيلة الراغبة ليس فقط في إرضاء ذاتها عبر الرمز الساطع في مناظر العالم، بل في إقامة رابط بين هذه الأخيرة وبين الكلام المكلّف بالتعبير عنها، يمس أحد أسرار اللغة المقدسة والمحفوفة بالمخاطر، والتي سيكون من الحكمة تحليلها فقط في اليوم الذي سيقوم العلم، وهو يملك قائمة عريضة من ألسن أقوام لم يتكلم بها أحد على الأرض قط، بكتابة تاريخ حروف الأبجدية عبر كل العصور وما هي دلالتها المطلقة تقريبا، التي كان الناس خالقو الكلمات يحزرونها أحيانا ويتجاهلونها أحيانا أخرى: لكن لن يكون هناك أبدا، في هذا الزمن، علم لتلخيص ذلك ولا شخص لقوله. [هذه] خرافة، لنكتف، الآن، بالأضواء التي يسلطها كتاب عظام على هذا الموضوع».

تكمن وظيفة الأدب في العمل على توضيح قوانين هذه اللغة الموغلة في القدم، قوانين هذا الجبر اللاواعي الذي يَعْبر الخطاب، قوانين هذا المنطق الأساسي الذي يقيم علاقات [ما] (منطق المعادلة، سيقول ياكبسون): «ملاءمة عجيبة بين البنية الشفافة وصواعق المنطق البدائية» («اللغز في الحروف»). أو: «لكن للأدب شيئا ما أعقل من ذلك؛ [إذ] الأشياء موجودة ولا نحتاج إلى خلقها، فما علينا إلا أن نمسك بعلاقاتها، وستكون خيوط هذه العلاقات هي التي تشكل الأبيات والأجواق» («حول التطور الأدبي»).

من أجل ماذا؟ [من أجل] الوصول، عبر اللغة الحالية، عبر اللسان، إلى قوانين أحلام الإنسان لنخلق منها مسرحا للرمزية المأخوذة مجدداً من مصدرها: «أعتقد أن الأدب، المأخوذ مجددا من مصدره الذي هو الفن والعلم، سيمدنا بمسرح تكون عروضه هي الشعيرة الحقيقية الجديدة؛ وبكتاب، هو تفسير للإنسان كاف لأجل أحلامنا.» («حول المسرح»).

وفي نصوص أدبية أخرى يكون استقلال العلامة الذاتي الذي يميز الوظيفة الشعرية أقل بروزا، ولا تقدم اللغة الأدبية خصوصيات مختلفة كثيرا عن خصوصيات لغة التواصل. وإن قراءة سطحية لا تكشف فعلا عن اختلافات بينة بين لغة رواية واقعية ولغة التواصل الشائع، سوى اختلاف في الاسلوب طبعا. وفعلا فإن بعض الأجناس، مثل الملحمة أو الرواية، لم تحدد لنفسها كوظيفة أولية تفكيك الدال كما هو الحال بالنسبة للشعر والشعر الحديث خاصة. فهي تستعير القواعد المشتركة من الجملة النحوية في لغتها القومية، لكنها تنظم مجموع الفضاء الأدبي كما ينظم نسقٌ [ما] وليكن لغة خاصة يمكننا وصف بنيتها الخاصة بها. لنذكر بأعمال كروتشي (Groce) وسبيتزر (Spitzer)، الخ. الذين يكرسون اهتمامهم لدراسة لغة الأدب أو [لدراسة] الأدب باعتباره لغة.

لقد تمكنت الشكلانية الروسية و (L'OPOIAZ) بصفة خاصة، على صعيد أكثر إيجابية ومتخلص من الجمالية، من كشف القواعد الأساسية (وشبه المتكافئة كليا في كل الحالات) لمثل هذا التنظيم في السرد. لقد حلل بروب (Propp) الحكاية الشعبية الروسية مميزا الخطوط العامة لبنيتها وأبطالها الرئيسيين ومنطق تصرفهم. وقد كان ياكبسون وإيخنباوم (Eichenbaum) وتوماتشيفسكي (Tomachevski)، الخ، أول من نظر الى النصوص الأدبية باعتبارها نسقا دالاً ومُبَنْيَناً. [أما] ليفي - ستراوس فقد وصف، بأكبر قدر من الدقة، بنية لغة الأساطير («النيء والمطبوخ»، «من العسل الى الرماد»). منذ ذلك الحين أصبح تعاون اللسانيين والأدباء أوثق بكثير، و[أصبح] نقل القواعد اللسانية المطبقة على تحليل الجملة، الى مجموع الأسطورة والسرد والرواية الأوسع، أكثر شيوعا وإثماراً. إن مثل هذه الأبحاث تخصص اليوم كذلك للأدب الحديث؛ ولن نبالغ إذا ركزنا على أهمية هذه الأعمال التي تضم إلى ممارسة اللغة الأكثر تقدما تحليلا مستوحىً من العلم الأحدث عهداً.

وتكتسي دراسات سوسير المنشورة حديثا أهمية قصوى في هذا الميدان. إن سوسير، وهو يتناول نسق اللغة الشعرية في كتاب «الجناسات التصحيفية» (الذي نشر قسما منه ستاروبنسكي، مركور دي فرانس، 1964؛ تيل كيل، ع: 37، 1969)، قد انكب على استدلالات يبدو أنها تعيد النظر في مفهوم

العلامة اللسانية. إنه يدرس البيت الحزين [الزُحلي] والشعر الفيدي [البراهماني] ويلاحظ وجود اسم آلهة أو رئيس حربي أو شخصية أخرى كـ[شيء] تحققٌ في كل بيت، وهو اسم يتكون من مقاطع لفظية موزعة على كلمات مختلفة، بحيث تحتوي كل رسالة على رسالة تحتية [خفية] هي ترميز مزدوج في نفس الوقت، ويكون كل نص نصاً آخر وتكون لكل وحدة شعرية، على الأقل، دلالة واحدة مزدوجة ولاواعية، بلاشك، [دلالة] تكوّنها لعبة الدال من جديد. من المحتمل أن يكون سوسير قد أخطأ فيما يخص انتظام هذا القانون الذي يَتطلب اسما مختفيا تحت النص الظاهر، لكن المهم هو أنه استنتج، بواسطة هذا «الخطإ»، خصيصة للاشتغال الشعري حيث تتسرب معان إضافية الى الرسالة الشفوية وتمزق نسيجها الكثيف وتعيد تنظيم مشهد دال آخر: مثل كتابة متأنقة تستعمل مواد العلامات اللفظية لكتابة رسالة عبر - لفظية تطابق رسالة يَبثها خط التواصل ويضخم حجم هذا الخط. إننا نرى كيف يفند مثل هذا التصور أطروحة خطية الرسالة الشعرية ويُحل اللغة الشعرية محلها مثل شبكة معقدة ومرتبة من مستويات دلالية.

إلا أن الأدب نفسه، وبموازاة هذه الدراسات التي يَخصُّ بها العلمُ تنظيم النصوص الأدبية، يمارس ذاته كبحث عن قوانين تنظيمه الخاص به. وتصير الرواية الحديثة تفكيكا لثوابت السرد التقليدية وقواعدها، واستكشافا للغة السرد يبرز طرق عملها قبل تفجيرها. لقد أصبحت «الرواية الجديدة» نحوا حقيقيا للسرد؛ فرواية «التحويل» لميشال بيتور، ورواية «المتلصص» أو «الأصباغ» لألان روب غرييي، ورواية «الانتحاءات» لنتالي ساروت، تستكشف وحدات السرد التقليدي: [مثل] الوضع الحكائي (مرسل - مؤلف/مرسل إليه « - أنتم»)، والشخصيات [التي هي] ذوات مجهولة تصبح ضمائر، ومواجهتها ببعضها البعض، وخط الأحداث الصاعد أو الهابط أو الدائري، الخ، مع الوعي الظاهر، في غالب الأحيان، للكتاب بالكتابة قصد تعرية ترميز السرد، ومعها قواعد الوضع الكتابي. وهكذا لم يصبح الأدب الحديث علما للسرد فحسب، بل علما للخطاب وموضوعاته وأوجهه وتمثلاته كذلك، وبالتالي [علما] للتمثل في اللغة وعبرها؛ وهو علم ضمني، بل صريح أحياناً، لكن العلم الوضعي لم يمنهجه بعد.

بل إن الرواية الحديثة بتأكيدها على ما سميناه «الوظيفة الشعرية للغة» تصير استكشافا لا للبنيات الحكائية للسان فقط بل لبنيته الجملية والدلالية والتركيبية أيضا. ومثال ملارمي أو إزرا باوند (Ezra Pound) يُتناول حاليا في الرواية الفرنسية المكتوبة الآن - مثل «أعداد» فيليب سولرس (إننا لا نتطرق هنا، للجانب الايديولوجي لهذا النص) - باعتباره تحليلا دقيقا للموارد الصوتية والمعجمية والدلالية والتركيبية للسان الفرنسي الذي عليه ينبني منطق غير معروف بالنسبة للمتكلم الذي يتواصل داخل هذه اللغة، منطق يصل الى درجة تكثيف الحلم ويقترب من قوانين «الرسوم - أفكار» أو من الشعر الصيني، الذي جاءت [الحروف] الهيروغليفية، المرسومة في النص الفرنسي، لتنتزعنا مما أراد علم «لفظي مركزي» بأكمله (وهو العلم الذي تتبعناه خلال التحليل السابق) أن يجعلنا نقبله باعتباره صورة للساننا.

نقل النص عن الفرنسية: **محمد بولعيش**

---

● النص جزء من القسم الثالث من كتاب جوليا كريستيفا «اللغة ذلك المجهول» (Le langage cet inconnu) والمعنون بـ: «لغة ولغات»، سلسلة «بوان»، سوي، باريس، 1981، ص ص: 275 - 291.

## تصويبات

رغم حرصنا الشديد على أن تصدر «بيت الحكمة» خالية من الأخطاء الطباعية، فقد تسرّب بعض منها إلى صفحات أعداد السنة الأولى، نورد تصويبه أدناه، ومعذرة.

**العدد الأول**

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| 22 | 11 | ما | عمّا |
| 26 | 11 | آرائنا | آراءنا |
| 27 | 23 | إمكانية | إمكان |
| 28 | 2 | دون | ودون |
| 35 | 22 | ميتافيزيقا | ميتافيزيقات |
| 42 | 28 | أن | أنا |
| 43 | 17 | حبيسا للمعتقدات | حبيس المعتقدات |
| 44 | 12 | «كل شيء»، | «كل شيء» |
| 50 | 19 | نفسنا | أنفسنا |
| 66 | 10 | بأكمها | بأكملها |
| 76 | 10 | تمثل | يمثلون |
| 82 | 6 | قلتم | قلت |
| 82 | 8 | لكم | لك |